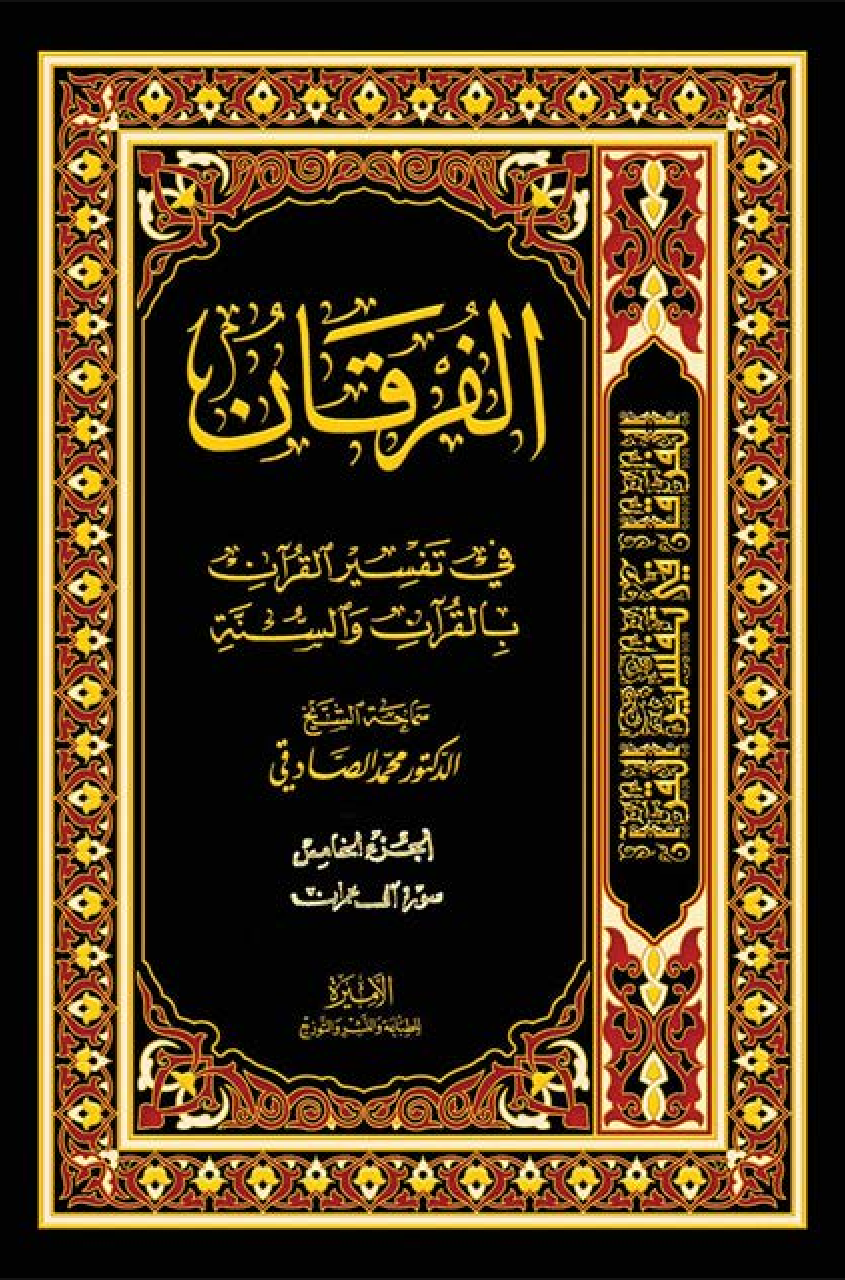

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الخامس
سورة آل عمران
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

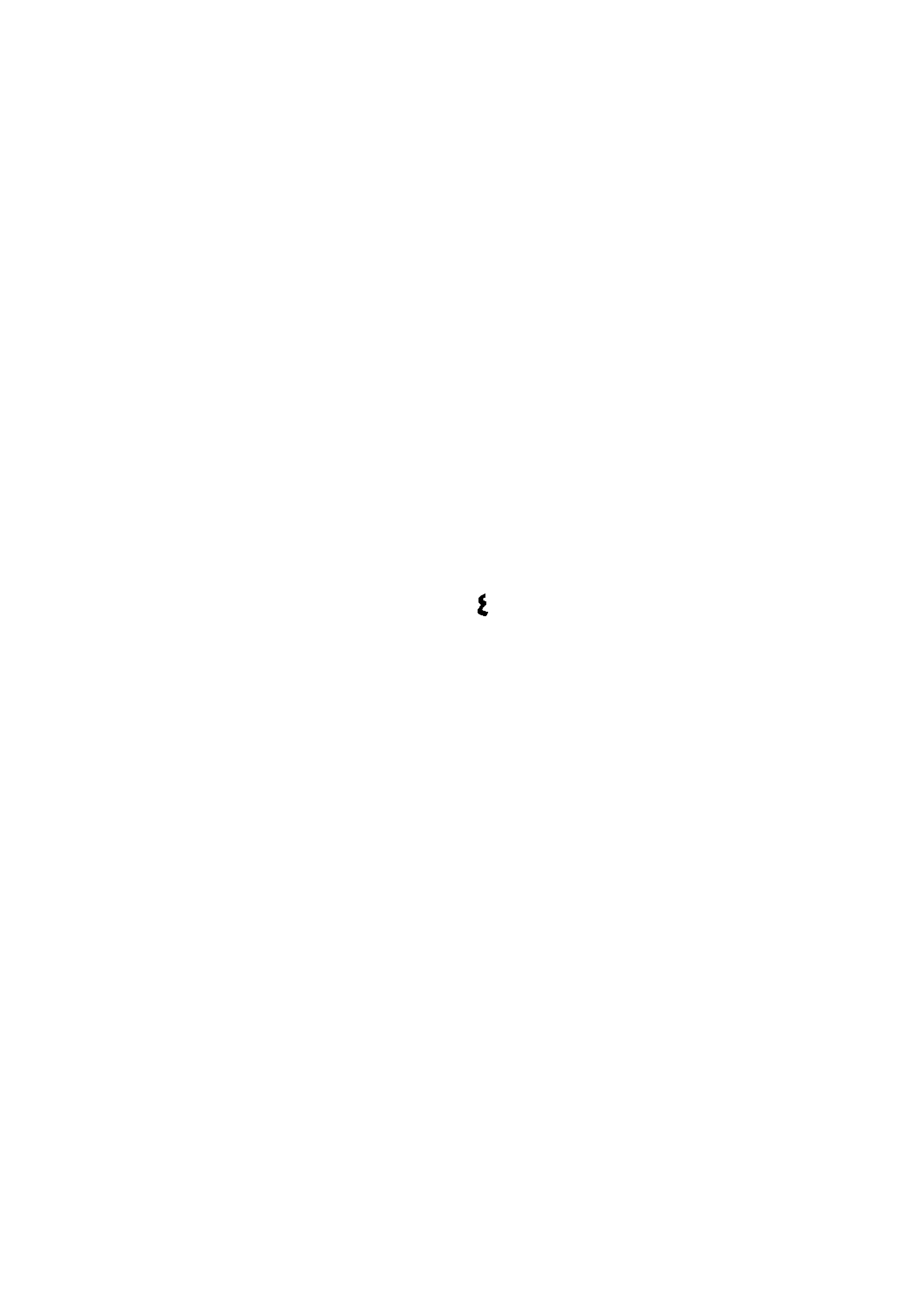
الجزء الخامس

تتمة سورة آل عمران

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي





تتمة

سُورَة آل عِمْرَان



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ
فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا
وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ
ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ
وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن
تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ
تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ
فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ
يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾
إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ
وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ

بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾:

مثل عيسى عند المغالين بحقِّه يختلف حقاً عن مَثَله عند الله، فهم يزعمونه ابن الله أو الله المتجسِّد في الناسوت، فهو من جوهرة الألوهية، ومثله عند الله ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ...﴾.

فإذا كان خلق المسيح خارقةً إن لم يكن له والد، فخلق آدم خارقتان إن لم يكن له والدان، وإنما ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ في جثمانه هيكلاً ترابياً مثال الإنسان ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ إنساناً في الجسم والروح ﴿فَيَكُونُ﴾ ما كوَّنه الله آدم وسواه كما قال الله، وقد يعني ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ خلق جسمه ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ قولاً تكوينياً موجهاً إلى جسمه أن كُن إنساناً فهو تكوين روحه من جسمه، وهذه عبارة أخرى عن ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ في تخليق بنيه.

وقد تكون ﴿فَيَكُونُ﴾ بديلاً عن «فكان» إشارة إلى استمرارية هذه الكينونة الخارقة للمألوف، دون اختصاص بآدم، حيث ثنِّي بالمسيح عليه السلام، ومن ثم في كافة الآيات المعجزات.

فإن كان المسيح لخلقه دون أب ابناً لله فليكن آدم المخلوق دون أبوين

أخاً لله، وإن كان المسيح لذلك هو الله فليكن آدم أباً لله، سبحانه وتعالى عمّا يُشركون، ثم وإن كان المسيح يستحق الولادة مجازياً تشريفياً، فليشرِّف آدم بسمة الأُخوَّة لله.

ذلك! ولا يصح المجاز إلّا فيما يمكن حقيقته، وإذ ليس بالإمكان ابن أو أخ لله، فلا تشريف - إذاً - بمجاز وسواه، حيث المجَاز هو الحقيقة المُجاز إذ يجوز اللفظ ويعبر منه إلى ما يُشابهه.

تنزل هذه الآية جواباً عما سأله جماعة من أهل نجران «هل رأيت مثل عيسى أو أنبأت به؟»[1] فقد تحمل إجابة وافية قاطعة لأعذار مؤلهي المسيح ومتبنّيه، ومختلقي انتسال آدم من إنسان أم ارتقاءٌ من حيوان!.

وذلك التساؤل حدث بعدما كتب النبي ﷺ إلى أهل نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام[2].

---

(١) الدر المنثور ٢: ٣٧ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس من أهل نجران قدموا على النبي ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا قال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله قال: أجل إنه عبد الله قالوا فهل رأيت...؟ فجاء جبرئيل فقال: قل لهم إذا أتوك: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم...

وفيه عن قتادة أنهما لقيا نبي الله فسألاه عن عيسى فقالا: كل آدمي له أبٌ فما شأن عيسى لا أب له فأنزل الله فيه هذه الآية.

وفيه أتاه ﷺ منهم أربعة من خيارهم فسألوه ما تقول في عيسى؟ قال: هو عبد الله وروحه وكلمته قالوا هم: لا ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره فهل رأيت إنساناً خلق من غير أب فأنزل الله هذه الآية.

(٢) أخرج البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جدِّه أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد رسول الله إلى أسقف نجران إن أسلمتم فإني أحمد الله إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، أدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فقد أذنتم بحرب والسلام، فلما قرأ الأسقف الكتاب فظع به وذعر ذعراً شديداً فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة فدفع إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه فقال له الأسقف: ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله تعالى إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا الرجل نبياً وليس لي في النبوة =

وهنا المُماثلة بين آدم والمسيح عليه السلام ليست إلّا في فقد الأب، ثم يختص آدم بفقد الأُمِّ أيضاً وخلقه رأساً من تراب، وقد نابت النطفة الرجولية في خلق المسيح مناب اللقاح الرجولي، إن خلقها الله تعالى دون صلبٍ وألقاها نفخاً إلى رحم البتولة العذراء وكما فصلناه في سورة مريم، وآدم خُلِقَ دونما صلب ورحم أو نطفة!.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾:

أترى أن رسول الله الهدى امترى في الحق من ربه، ومنه مثل عيسى في خلقه حتى يخاطَب بـ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؟ طبعاً لا وألف كلّا، فإنما ذلك التعبير هو قضية الموقف حيث المتسائلون لم يكونوا ليسكتوا عن قيلاتهم، وكأن ذلك المثل لا يحمل حقاً من الله.

لذلك يخاطَب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من باب «إياك اعني واسمعي يا جارة» تأكيداً لحق الجواب، حسماً لكل مرية هي بعيدة عن جادة الصواب.

فهو - إذاً - كـ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] - ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2] وكيف يجوز الامتراء والشك والشرك على مَنْ باشر برد اليقين وتلقى عن الروح الأمين... أو أن الخطاب في ﴿رَّبِّكَ﴾ ليس ليختص بمن

= رأي لو كان أمر من أمر الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك فبعث الأسقف إلى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلمهم قال مثل قول شرحبيل فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل وعبد الله ابنه وحيار بن قنص فيأتوهم بخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى ابن مريم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى صبح الغداة فأنزل الله هذه الآية إلى ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فأبوا أن يقروا بذلك فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة....

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

لا يمتري، بل هو كلّ من يجوز في حقه الامتراء وهو كلّ مخاطب سامع للبرهان من المكلفين كائناً من كان، فهو خطاب الإفراد شاملاً كلَّ الأفراد على سبيل الأبدال فيشمل الذين قالوا - فيما غالوا بحق المسيح عليه السلام - إنه الله أو ابن الله، فـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ كله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي ربّاك يا رسول الهدى، وكلٌّ من يصح خطابه، دون الغالين الدجالين ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بحق الحق، ولا تمار فيه مجادلاً عن الباطل، ومحاجاً ضد الحق، وقد فعلوا فنزلت آية المباهلة.

ووجه ثالث - علّه معني مع الأولين - أن ليس الامتراء هو الشك فقط بل وهو المماراة والمجادلة بشأن الحق الجلي مع من لا يخضع لبرهان، فلماذا - إذاً - المماراة مع المعاندين ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ فكل أمرك إلى رب العالمين مع من حاجك حول الحق اليقين، الناصح الأمين:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾:

هذه من غُررِ الآيات بشأن الغُرِّ الكرام من آل الكساء عليهم السلام، حيث تعبر عن علي عليه السلام بـ «أنفسنا» وعن فاطمة عليها السلام بـ «نساءنا» وعن الحسنين عليهما السلام بـ «أبناءنا» مما يدل على أخص الاختصاصات لهؤلاء بالرسالة القدسية المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

هنا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ دون ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[1] يحمل توسيعاً لدائرة العلم، فهو علم الوحي بعد العلم العقلي وقد حصلا معاً بتلك المماثلة في ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ...﴾.

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

وذلك مما يؤكِّد عدم عناية الشك من امترائه ﷺ لو أنه المخاطب بـ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ في الحق من ربك، الذي لا مرية فيه ولا ريبة تعتريه ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ...﴾ وهذه دعوة صارحة صارخة في هذه الإذاعة القرآنية إلى مباهلة الكاذبين المصرين على كذبهم بَعد صُراح الحق المبين، فقد تجوز المباهلة وتفيد حين تتوفر شروطها[1]، إذ ليس الحق ليقف مكتوف الأيدي أمام الناكرين المكذبين، فإما تقبُّله ببرهان أم دخول في لعنة الله على الكاذبين.

ولقد دعى الرسول ﷺ الذين كانوا يحاجونه في قصة المسيح عليه السلام إلى اجتماع حاشدٍ من أعزَّ الملاصقين من الجانبين، ليبتهل الجميع إلى الله في دُعاءٍ قاصعٍ قاطع أن ينزل لعنته على الكاذبين فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة[2] وتبين الحق واضحاً وَضَحَ الشمس في رابعة النهار.

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٥١ عن أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد ابن حكيم عن أبي مشرق (مسروق) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: إنّا نكلم الناس فنحتج عليهم بقول الله عز وجل: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩] فيقولون نزلت في أمراء السرايا، فنحتج عليهم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾ [المائدة: ٥٥] فيقولون: نزلت في المؤمنين ونحتج عليهم بقول الله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] فيقولون: نزلت في قربى المسلمين، قال: فلم أدع شيئاً مما حضرني ذكره من هذا أو شبهه إلّا ذكرته فقال لي: إذا كان كذلك فادعهم إلى المباهلة قلت: وكيف أصنع؟ قال: أصلح نفسك ثلاثاً - وأظنه قال: صم واغتسل - وابرز أنت وهو إلى الجبان فشبك أصابعك من يدك اليمنى في أصابعه ثم أنصفه وابدأ بنفسك وقل: اللّهم رب السماوات السبع ورب الأرضين السبع عالم الغيب والشهادة إن كان أبو مسترق جحد حقاً وادعى باطلاً فأنزل عليه حسباناً من السماء وعذاباً أليماً، ثم رد الدعوة عليه فقل: وإن كان فلان جحد حقاً وادعى باطلاً فأنزل عليه حسباناً من السماء أو عذاباً أليماً ثم قال لي: فإنك لا تلبث أن ترى ذلك فيه فوالله ما وجدت خلقاً يجيبني إليه.

(٢) الدر المنثور ٢: ٣٩ - أخرج عبد الرزاق والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير =

ولأن الابتهال هو التأكُّد في الدعاء - من البهل: الدعاء - وليس إلّا في مسرح الاضطرار، ولا أحق من حق الله عند أهله - حين يُنكر ويكذب ولا ينفع الدليل - أن يستجاب في ابتهال وقد وعد الله المضطرين الإجابة ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾(١).

وحين تستجاب الدعاء بحقنا فهلّا تستجاب بحق الحق ولا سيّما من رسول الحق في هذه المعركة الصاخبة ومعه أخص أهله الطاهرين! والمدعوون في هذه المباهلة ثلاثة ﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ - وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ - وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ يدعو كلّ من الطرفين أخصاءه الثلاثة، وقد «دعا رسول الله ﷺ - حسب متواتر الأثر - علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي»(٢).

= وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لو باهل أهل نجران رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً.

(١) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٢) المصدر أخرج مسلم والترمذي وابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال:

لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ . . . وفيه أخرج ابن جرير عن علباء بن أحمر اليشكري قال: لما نزلت هذه الآية أرسل رسول الله ﷺ إلى علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين . . .

وأخرجه مثله الحافظ أحمد بن حنبل في مسنده ١٥ : ١٨٥ والطبري في تفسيره ٣: ١٩٢ بطرق أربع، وأبو بكر الجصاص في أحكام القرآن ٢: ١٦ قال: إن رواة السير لم يختلفوا في أن النبي ﷺ أخذ بيد الحسنين وعلي وفاطمة ودعا النصارى الذين حاجوه إلى المباهلة.

والحاكم في المستدرك ٣: ١٥٠ وفي معرفة علوم الحديث ٥٠، والثعلبي في تفسيره كما في العمدة لابن بطريق ٩٥ والحافظ أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة ٢٩٧ والواحدي النيسابوري في الباب النزول ٧٤ وابن المغازلي الواسطي كما في العمدة لابن بطريق ٩٦ والبغوي في معالم التنزيل ١: ٣٠٢ وفي مصابيح السنة ٢: ٢٠٤ والزمخشري في الكشّاف ١: ١٩٣ وابن العربي الأندلسي في أحكام القرآن ١: ١١٥ والإمام الرازي في تفسيره ٨: ٩٥ وابن الأثير في جامع الأصول ٩: ٤٧ والذهبي في تلخيصه المطبوع في ذيل مستدرك الحاكم ٣: ١٥٠ وابن طلحة الشامي في مطالب السؤول ص ٧ وابن الأثير في أسد الغابة ٤: ٢٥=

. . . .

= وسبط ابن الجوزي في التذكرة ص ١٧ والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣: ١٠٤ والبيضاوي في تفسيره ٢: ٢٢ والطبري في ذخائر العقبى ص ٢٥ ومسلم في صحيحه من عدة طرق منها ج ٤ باب فضائل أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية ورواه الحميري في الجمع بين الصحيحين في مسند سعد بن أبي وقاص والثعلبي في تفسيره هذه الآية عن مقاتل والكلبي وأخرجه في الدر المنثور نقلاً عن الحاكم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن جابر عنه صلى الله عليه وآله وسلم والبيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جدِّه عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأبو نعيم في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وعبيد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم عن الشعبي والترمذي عن سعد عنه صلى الله عليه وآله وسلم ومحمد ابن جرير عن علباء بن أحمر اليشكري وروى ابن بطريق في العمدة ٩٥: ٩٦ نزول هذه الآية فيهم بأسانيد من صحيح مسلم وتفسير الثعلبي ومناقب ابن المغازلي وابن الأثير في جامع الأصول من صحيح مسلم عن سعد والبيضاوي في تفسيره ٢: ٢٢ والطبري في ذخائر العقبى ٢٥ وفي الرياض النضرة ١٨٨ والنسفي في تفسيره ١: ١٣٦ والمهايمي في تبصير الرحمن وتيسير المنان ١: ١١٤ والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٥٦٨ والخطيب الشربيني في تفسير سراج المنير ١: ١٨٢ والنيشابوري في تفسيره ٣: ٢٠٦ والخازن في تفسيره ١: ٣٠٢ وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ٢: ٤٧٩ وعماد الدين أبو الفداء بن كثير في تفسيره ١: ٣٧ وفي البداية والنهاية ٥: ٥٢ وابن الملك في مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار للصنعاني ٢: ٣٥٦ والعسقلاني في الإصابة ٢: ٥٠٣ وفي الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص ٢٦ وابن الصباغ في الفصول المهمة ١٠٨ وملا معين الكاشفي في معارج النبوة ١: ٣١٥ والسيوطي في تاريخ الخلفاء ١١٥ وفي الإكليل ٥٣ وفي الجلالين ١: ٣٣ وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة ١١٩ وأبو السعود أفندي في تفسيره ٢: ١٤٣ والحلبي في السيرة النبوية ٣: ٣٥ وأبو السعود محمد أفندي العمادي في تفسيره، والشاه عبد الحق في مدارج النبوة ٥٠٠ والكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٤٤ والشبرواي في الإتحاف بحب الأشراف ٥ والشوكاني في فتح القدير ١: ٣١٦ والآلوسي في تفسير روح المعاني ٣: ١٦٧ والعلوي الحضرمي في رشفة الصادي ٣٥ وابن المغازلي في مناقبه كما في كفاية الخصام ٣٨٨ والسيد صديق حسن خان في كتاب حسن الأسوة ٣٢ السيد أحمد زيني دحلان في السيرة النبوية المطبوعة بهامش السيرة الحلبية ٣: ٤ وعياض المغربي في الشفاء ٢: ٤١ والبيهقي في السنن الكبرى ٦٣ وابن تيمية في منهاج السنة ٣٤ والبرزنجي في مقاصد الطالب ١١ وأحمد بن حنبل في المسند ١: ١٨٥ وسعيد بن محمد بن مسعود الشافعي في المنتقى في سيرة المصطفى ١٨٨ والشيخ أبو الحسن الكازروني في صفوة الزلال المعين والشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي في ذخائر المواريث ١: ٢٢٦ والقرماني في أخبار الدول والشيباني في تيسير =

ولأن المُباهلة هي ذات جهتين: الدعاء، واستدعاء اللعن على الكاذب، فلا بدَّ - إذاً - أن يكون الأبناء والنساء والأنفس المدعوون فيها من أعزهم وألصقهم بالداعين وأقربهم إلى الله استجابة للدعاء.

فليس ضم الأبناء والنساء والأنفس إلّا لتأكيد الاستجابة والدلالة على الحق، ثقة بالحال وتصديقاً للمقال واستيفاءٍ على خصومه بصدقه وكذبهم، حيث يستجره على تعريض أعز أعزته وأفلاذ كبده.

لقد خصَّ هنا الأبناء والنساء بالدعوة لذلك المسرح الخطير لأنهم أعزّ الأهل وألصقهم بالقلب ولربما فداهم الرجل نفسه وكلّ نفيسه.

لذلك كانوا في الحرب يسوقون مع أنفسهم الظعاين لتمنعهم من الهَرَب ويسمَّون الذادة عنها حُماة الحقائق.

ثم خصَّ أحض خواصه المعبر عنه هنا بـ «أنفسنا» رمزاً إلى أنه لنفسه المقدسة كأنه هو، ففديته مع نفسه في هذه المعركة الصاخبة تضحية لنفسه مرتين، كما أن فدية النساء والأبناء تمثل فدية أُخرى ثالثة.

فآية المباهلة هي من أبرز الآيات الدالات على موقف الإمام علي عليه السلام المنقطع النظير مع البشير النذير، أن لو كان للرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنفس أو نفس أخرى لكانت علياً عليه السلام دون مَن سواه، وقد أجمع المفسرون والمحدثون

= الوصول ٢: ١٦٠ والقدوسي الحنفي في سنن الهدي ٥٦٣ والنقشبندي في مناقب العترة ١٨٩ والشيخ حسن النجار في اتحاف ذوي النجابة ١٥٤ والحسيني البصري في انتهاء الأقسام ١٩٧ والشيباني في المختار في مناقب الأخيار ص ٣ والسيد صديق محمد حسنخان ملك بهوبال في فتح البيان ٢ : ٥٥ والشيخ عبيد الله الأمر تسري في أرجح المطالب ٣٧ والسيد أحمد بن سودة الإدريسي في رفع اللبس والشبهات ٤٠ وخواجه خواند مير في علم الكتاب.

أقول: ذلك وإلى مئات من الرواة والمصنفين والمفسرين، (راجع ملحقات إحقاق الحق للمرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج ٣ ص ٤٦ - ٧٦ وج ٩ ص ٧١ - ٩١، تجد في خمسين صفحة من هذه الموسوعة بحراً ملتطماً من الأحاديث حول آية المباهلة التي ذكرت علياً عليه السلام نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

والحفاظ أنه لم يصاحبه ﷺ بعد ابنيه الحسنين وبنته فاطمة عليهم السلام إلّا عليّ صلوات الله عليه.

فلم يَعْنِ من أبنائه إلّا سبطيه ولا من نسائه إلّا فاطمته ولا من نفسه إلّا عليَّه، حيث لا يدعو الإنسان - فيما يدعو - نفسَه، اللّهم إلّا من هو كنفسه، ولم يكن معه آنذاك من يمثل نفسه إلّا علي عليه السلام.

وهنا تجاوب لا حِوَل عنه بين الآية ومتواتر النقل، كلٌّ يؤيد الآخر ويتأيد هو الآخر بالآخر... ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد لمن حاجك فيه ﴿تَعَالَوْاْ نَدْعُ﴾ نحن ندعو أبناءنا ونساءنا وأنفسنا وأنتم تدعون كما ندعو.

ولكن ﴿نَدْعُ﴾ في جانب الرسول واحدٌ هو الرسول، وفي جانبهم جمع المحاجين، وليس ﴿نَدْعُ﴾ إلّا اعتباراً بالطرفين وهما معاً - لا محالة - جمع مهما كان الطرف الأول مفرداً.

ف ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ تعني أعز الأبناء في الجانبين دون تحليقٍ على كلِّ الأبناء، ولقد انحصروا في جانب الرسول ﷺ في الحسنين عليهما السلام، مما يبرهن على صحة انتساب أبناء البنات إلى الجدود، وكما نسب المسيح عليه السلام إلى إبراهيم ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ... وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ... وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ...﴾[1] وهكذا يستدل الذرية المعصومة بالذكر الحكيم أمام الناكرين[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٨٣-٨٥.

(٢) في العيون بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام في حديث له مع الرشيد قال الرشيد له: كيف قلتم: إنا ذرية النبي والنبي لم يعقب وإنما العقب للذكر لا للأنثى وأنتم ولد البنت ولا يكون له عقب؟ فقلت: اسأله بحق القرابة والقبر ومن فيه إلّا ما أعفاني عن هذه المسألة، فقال: تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم كذا أُنهي إليّ ولست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب الله وأنتم تدعون معشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه شيء لا ألف ولا واو إلّا تأويله عندكم واحتججتم بقوله عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم. =

فاختصاص سهم السادة بالمنتسبين بالأب - فقط - إلى رسول الله ﷺ خرافة لا تملك بُرهاناً من كتاب أو سُنَّة، بل هما يعارضان ذلك الاختصاص.

و﴿وَنِسَآءَنَا﴾ حيث تعني كلَّ النساء الآهلات للانتساب إليه ﷺ دون خصوص الأزواج، نراهن اختُصرن واحتُصرن في قرة عينه وفلذة كبده فاطمة الزهراء سلام الله عليها، مما يبُرهن على فضلها، وأنها تجمع في نفسها الخاصة كلَّ الانتسابات الرسالية بين نسائه بالرسول ﷺ فهي - إذاً - مفضلة على كلِّ أزواجه وسواهن من النساء المنتسبات إليه ﷺ.

ثم ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ هي في جانب الرسول ﷺ يتمثَّل في نفسٍ واحدةٍ هي نفسه ﷺ ولم يكن معه في مُباهلته من غير فاطمته وحسنيه إلّا عليُّه عليه السلام.

= فقلت: تأذن لي في الجواب؟ فقال: هات، قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ . . . وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥] من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس له أب، فقلت: إنما ألحقه بذراري الأنبياء من طريق مريم وكذلك ألحقنا الله تعالى بذراري النبي من أُمِّنا فاطمة، أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات، قلت: قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا. . .﴾ [آل عِمرَان: ٦١] ولم يدع أحد أنه أدخل النبي ﷺ تحت الكساء عند المباهلة مع النصارى إلّا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فكان تأويل قوله: ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ - الحسن والحسين، ﴿وَنِسَآءَنَا﴾: فاطمة، ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ [آل عمران: ٦١]: علي بن أبي طالب.

وفي نور الثقلين ١: ٣٤٩ عن الخصال في احتجاج علي عليه السلام على أبي بكر قال: فأنشدك بالله أبي برز رسول الله ﷺ وبأهلي وولدي في مباهلة المشركين من النصارى أم بك وبأهلك وولدك؟

قال: بكم، وفيه أيضاً من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وتعدادها قال عليه السلام: وأما الرابعة والثلاثون فإن النصارى ادعوا أمراً فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ فيه: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ. . .﴾ [آل عِمرَان: ٦١] فكانت نفسي نفس رسول الله ﷺ والنساء فاطمة والأبناء الحسن والحسين ثم ندم القوم فسألوا رسول الله ﷺ الإعفاء عنهم وقال: «والذي أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد لو باهلونا لمسخهم الله قردة وخنازير» وفيه عن عيون أخبار الرضا عليه السلام عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه: يا علي من قتلك فقد قتلني ومن أبغضك فقد أبغضني ومن سبّك فقد سبّني لأنك مني كنفسي روحك من روحي وطينتك من طينتي.

فلو كان للرسول ﷺ أنفس يمثلونه لكان علياً عليه السلام لا سواه.

ذلك وقد تواتر عن الرسول ﷺ قوله بحق هذه المُماثلة السامية والمُباعضة الحانية: «علي مني وأنا منه لا يؤدي عني إلّا علي»[1] - «علي مني مثل رأسي من بدني»[2] - «منزلة علي مني منزلتي من الله»[3] مما يؤكد هذه النفسية النفيسة العلوية المحمدية.

فكون علي عليه السلام نفس محمد ﷺ لا يدلُّ فقط على أفضليته على سائر الأمة بأسرهم، بل وعلى أفضليته على كافة السابقين والمُقربين وأولي العزم من النبيِّين صلوات الله عليهم أجمعين، ولا فارق بين محمد وعلي عليهما السلام إلّا في الرسالة، فهو يُساميه فيما سواها من العصمة القمة وسائر المدارج القُدسية الروحية والزمنية بأسرها.

---

(١) حديث صحيح رجاله كلهم ثقات أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤ : ١٦٤ و١٦٥ بأسانيد أربعة والحافظ ابن ماجة القزويني في سننه ١ : ٥٧ والحافظ أبو عيسى الترمذي في جامعه ١٣ : ١٦٩ و٢ : ٤٦٠ وفي صحيحه ٢ : ٢١٣ والنسائي في خصائصه ٦٢ و٢٧ وابن المغازلي الشافعي في المناقب بأسانيد وفيرة والبغوي في المصابيح ٢ : ٢٧٥ والخطيب العمري في المشكاة ٥٥٦ والكنجي في الكفاية ٥٥٧ والنووي في تهذيب الأسماء واللغات والمحب الطبري في الرياض ٣ : ٧٤ عن الحافظ السلفي وسبط ابن الجوزي في التذكرة ٢٣ والذهبي في تذكرة الحفاظ وابن كثير في تاريخه والسخاوي في المقاصد الحسنة والمناوي في كنوز الدقايق ٩٢ والحمويني في فرائد السمطين ب ٧ والسيوطي في الجامع الصغير وجمع الجوامع وابن حجر في الصواعق ٧٣ والمتقي الهندي في كنز العمال عن (١١) حافظاً والبدخشاني في نزل الأبرار ٩ والفقيه شيخ بن العيدروس في العقد النبوي والشبلنجي في نور الأبصار ٧٨ والصبان في الاسعاف هامش نور الأبصار ١٥٥ كلهم أخرجوه ورووه عن حبشي ابن جنادة وعمران وأبي ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ.

وروى مثله البخاري في ٤ من صحيحه عن عمر بن الخطاب وفي الجمع بين الصحاح ج ٣ من عدة طرق ومنها ما عن ابن جنادة عن رسول الله ﷺ أنه قال: علي مني وأنا منه.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن المغازلي بالإسناد عنه ﷺ وابن الأثير في جامع الأصول عن البخاري ومسلم بسنديهما عن البراء بن عازب عنه ﷺ (البحار ٣٨: ٣٢٨).

(٣) أمالي الطوسي عن ابن مسعود، وأخرجه الحافظ ابن المغازلي كما في العمدة لابن بطريق ٥٣ بإسناده عن بكر بن سوادة عن قبيصة بن ذؤيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبدالله عنه ﷺ والسيرة الحلبية ٣: ٣٩١.

ومهما يكن من أمر فقد «خرج ﷺ وعليه مرط من شعر أسود وكان قد احتضن الحسين عليه السلام وأخذ بيد الحسن عليه السلام وفاطمة تمشي خلفه وعلي عليه السلام خلفها وهو يقول: إذا دعوت فأمِّنوا فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تُباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيٌّ إلى يوم القيامة. . .»[1].

وما أبلغه حجة أن يُباهلهم بعد بُرهانه المبين، تعريضاً عريضاً على كذبهم دونه بجمع ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ تأكيداً أنهم هم جمع النجرانيين دونه ﷺ إذ كان واحداً في تلك المجابهة مهما حمل معه حسنيه وفاطمته وعليّه عليهم السلام تأكيداً للحجة وإيضاحاً للمحجة.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨: ٨٠ روي أنه عليه السلام لما أورد الدلائل على نصارى نجران ثم إنهم أصرُّوا على جهلهم فقال عليه السلام: إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك فلما رجعوا قالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم - يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى إن محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لكان الاستئصال فإن أبيتم إلّا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم وكان رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط. . . ثم قالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك فقال ﷺ: فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين فأبوا فقال ﷺ: فإني أناجزكم القتال فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك في كلِّ عام ألف حلة: ألفاً في صفر وألفاً في رجب وثلاثين درعاً عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال: والذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسُخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.
قال: وروي أنه عليه السلام لما خرج في المرط الأسود فجاء الحسن عليه السلام فأدخله ثم جاء الحسين عليه السلام فأدخله ثم فاطمة ثم علي عليه السلام ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث.

ذلك! وكما أن في «ونجعل» دون «ونسأل» تأكداً بنزول اللعنة لا محاله، ولم يكن إحضار هؤلاء الأربعة كنماذج عن الباقين، وإلّا لكان المفروض إحضار أقل الجمع من كلٍّ من الثلاث، ولكن الجمع الأول اختص في مسرح المباهلة بحسنيه والجمع الثاني بفاطمته والجمع الثالث بعليّه مما يدل على حصر تلك الأهلية فيهم وحسرها عمن سواهم.

ومن الطريف حوار بين الإمام الرضا عليه السلام والمأمون حيث قال: ما الدليل على خلافة جدِّك علي بن أبي طالب؟ قال: آية أنفسنا، قال: لولا نساءنا قال: لولا أبناءنا(١).

فقد عنى المأمون بـ«لولا نساءنا» أنها دليل كون الأنفس هم كلُّ الذكور بقرينة المُقابلة فليسوا هم علياً فحسب، فأجاب «لولا أبناءنا» أن لو عنى بـ«أنفسنا» الذكور لشملت الأبناء، فإفراد الأبناء دليل اختصاص «أنفسنا» بذكور خصوص، وهو رجل خاص: علي عليه السلام، حيث حمل كلَّ نفسيات

(١) ومثله ما في حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي ص ١١٢ قال: ومن شجون هذه المسألة ما حُكي عن القاسم بن سهل النوشجاني قال: كنت بين المأمون في ديوان أبي مسلم بمرو وعلي ابن موسى الرضا عليه السلام قاعد عن يمينه فقال لي المأمون: يا قاسم أي فضائل صاحبك أفضل؟ فقلت: ليس شيء منها أفضل من آية المائدة فإن الله سبحانه جعل نفس رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ونفس علي واحدة فقال لي: إن قال لك خصمك: إن الناس قد عرفوا الأبناء في هذه الآية والنساء وهم الحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام وأما النفس فهي نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده بأي شيء تجيبه؟ قال النوشجاني: فأظلم عليّ ما بينه وبيني وأمسكت لا أهتدي بحجة فقال المأمون للرضا عليه السلام: ما تقول فيها يا أبا الحسن عليه السلام؟ فقال له: في هذا شيء لا مذهب عنه قال: وما هو؟ قال: هو أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم داع ولذلك قال الله سبحانه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا...﴾ [آل عِمرَان: ٦١] والداعي لا يدعو نفسه إنما يدعو غيره، فلما دعا الأبناء والنساء ولم يصح أن يدعو نفسه لم يصح أن يتوجه دعاء الأنفس إلّا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام إذ لم يكن بحضرته - بعد من ذكرناه - غيره ممن يجوز توجه دعاء الأنفس إليه ولو لم يكن ذلك كذلك لبطل معنى الآية، قال النوشجاني: فانجلى عن بصري وأمسك المأمون قليلاً ثم قال له: يا أبا الحسن إذا أصيب الصواب انقطع الجواب.

الرسول في شخصه الشخيص، فلو كان هناك أنفس للنبي ﷺ يمثلونه لم تكن إلّا علياً عليه السلام الذي هو بدوره نفس الرسول ﷺ إلّا في رسالته، فلا دور لما أورده بعض المجاهيل على انطباق أبنائنا على الحسنين لمكان التثنية ونساءنا وأنفسنا على فاطمة وعلي عليهما السلام لمكان الإفراد، لأن ذلك من باب الانطباق دون الدلالة اللغوية.

فقد عنى من «نساءنا» أخص النساء وألصقهن بالمباهلين فانحصرن للنبي بفاطمة عليها السلام ومن «أبناءنا» أخص الأبناء فانحصروا بالحسنين، بل ولم يكن له أبناء غيرهما، ثم ومن أنفسنا خير الممثلين للمُباهلين ولم يكن للنبي ﷺ إلّا علي عليه السلام، وأما نساؤكم وأبناؤكم وأنفسكم فهم كثرة حسب عديد المباهلين الكاذبين مهما لم يكونوا حُضوراً إذ طلب منهم إحضارهم ولكنهم تحاشوا عن ذلك المسرح الخطير بُقية على أنفسهم وأهليهم.

ولقد نرى من ذكر الجمع وإرادة مصداق واحد عديداً في الذِّكر الحكيم، كـ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[١] ولا مصداق له إلّا علي عليه السلام حيث زكّى في ركوع الصلاة، فكان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عُنواناً مشيراً إلى خصوص ذلك المصداق.

وكذلك الجُموع التي نزلت بشأن الوحدات تعميماً للأحكام التي تضمنها كـ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾[٢] ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾[٣] [٤] ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٣.
(٤) الشعر الجاهلي هو:
بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأغارب =

ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[(١)] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[(٢)] وما أشبهها من آيات تذكر جموعاً وموارد النزول وحدات، أم تعني وحدات تجمع في أنفسها كيان الجُموع كما ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[(٣)] أمّاهيه؟.

ذلك - وحين نرى الإخوة في الدين - ككلّ - هم حسب القرآن أنفس إخوانهم كما ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[(٤)] ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[(٥)] إجراء للأُخوّة بالديانة مجرى الأُخوّة في القرابة، فبأحرى أن يكون علي عليه السلام نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل أنفسه لو كانت له أنفس أو من يمثلونه.

وإذا وقعت النفس في بليغ العبارة على البعيد النسب كانت أحرى أن تقع على القريب النسب والسبب.

ومن غريب التهريف في التحريف أن علياً عليه السلام أريد هنا من ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ دون «أنفسنا» فراراً عن الإقرار له بتلك المنزلة الكريمة، ثم وبماذا يفسر «أنفسنا» والداعي أول الحضور فكيف يدعو نفسه؟.

فآية المباهلة - إذاً - هي من أظهر الآيات البينات على القدسية القمة

= والحديث ما في الوسائل ٦ : ١٨٨ مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال: ومن كانت أمه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له وليس له من الخمس شيء فإن الله يقول: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥].
أقول هذه آية الأحزاب ﴿. . .وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] ولا تعني إلّا الأدعياء، فهل إن أبناء البنات من الأدعياء، أم ترى أن الحسنين عليهما السلام وسائر الأئمة عليهم السلام هم من أدعياء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ إن هي إلّا فرية جاهلة وقحة!

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٠.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١١.
(٥) سورة النور، الآية: ٦١.

لهؤلاء الأربعة ولا سيّما علي عليه السلام حيث احتل في قدسيته القمةَ المحمدية وكأنه نفسه المقدسة، فهما - إذاً - روح واحدة مهما تعددا في البدن، وتفارقا في ظاهر الرسالة الأخيرة!.

ومما تدل عليه آية المُباهلة أن أبناء البنت هم أبناء أبيها كما هم آباؤهم فإن ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ لا تعني إلّا الحسنين.

إذاً فكل أبناء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من فاطمة هم ذريته دون فرق بين المنتسبين بالأب والأم أو المنتسبين بأحدهما إليها سلام الله عليها.

ولا دليل لمن يختص سهم السادة بالمنتسبين إليها بآبائهم إلّا الشعر والحديث الجاهِلَيين فليضربا عرض الحائط فإن «ادعوهم لآبائهم» إنما هي للأدعياء، فهل أن الحَسَنَيْنِ - كذلك - من الأدعياء؟.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿ٱلْقَصَصُ﴾ ككلّ هو اتباع الأثر تحسُّساً عما فيه أثر لتبني الحياة الحُسنى، وهكذا يقص القرآن القصص الحق الذي لا مرية فيه، رفضاً للقصص الباطل الذي ملأ الأجواء المضلّلة.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي قصّ من قصة الحوار بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونصارى نجران ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو المختصر المختصر ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ - ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك التوحيد الوحيد، إلى توحيد الثالوث - بزعمهم - الوهيد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عقيدياً - ف :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

الشرائع الكتابية مهما اختلفت في البعض من طقوسها العبادية ليست لتختلف في توحيد المعبود، فإنه الميزة البارزة القمة للشرعة الكتابية عن الإشراك بالله والإلحاد في الله، فالتزام الكتابي بتوحيد الله حق مشترك لا حول عنه إلّا للمرتد عن كتب الله الداعية إلى توحيد الله، وإنها كلمة جامعة قامعة وقد أتت في كتابات للرسول ﷺ يدعو فيها الملوك والشيوخ والزعماء إلى الإسلام وكما نقرؤه في كتابه إلى هرقل عظيم الروم(١).

وهذه الدعوة هي القاطعة القاصعة في كلٍّ حوار أن يتبنّى المحاورون كلمة سواء بينهم، ولا سواءَ بين الكتابيين أفضل وأحرى بالبناء من كلمة التوحيد، وهكذا ندرس من القرآن كيف نُحاور معارضينا كحجة أخيرة حين لا تنفع سائر الحجج وكما نراها هنا بين الرسول ﷺ والكتابيين.

وكما أن كلمة التوحيد هي كلمة سواء بيننا وبين كافة الموحدين، كذلك القرآن كلمة سواء بيننا نحن المسلمين، فنحن المتابعون للقرآن كأصل هو رأس الزاوية في كلٍّ الإسلاميات، نقول للذين أخلدوا إلى دراسات غير قرآنية، تعالوا إلى كلمة القرآن وهي سواء بيننا وبينكم، أن نتبنّاه في كافة الأصول والفروع.

ألستم تقولون إن القرآن هو الدليل الأوّل والمحور الأصيل، فلماذا لا

(١) الدر المنثور ١ : ٤٠ - أخرج عبد الرزاق والبخاري ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم اسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا - إلى قوله - ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٦٤] وفيه أخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول الله ﷺ إلى الكفار ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ...﴾ وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج في الآية قال بلغني أن النبي ﷺ دعا يهود أهل المدينة إلى ذلك فأبوا عليه فجاهدهم حتى أتوا بالجزية.

نجده أصيلاً في دراساتكم الحوزوية، وإذا أقبل طلاب مظلومون إلى ذلك الكتاب المظلوم تتقولون في نواديكم المنكرة أنهم ليسوا من طلاب الحوزة الرسميين؟!.

وترى «أهل الكتاب» ككلٍّ كانوا يعبدون غير الله، والشرعة الكتابية - ككلٍّ - هي شرعة التوحيد وهم كانوا يطعنون في رأي من عبد غير الله تعالى من مشركة الأمم ومؤلهي الصنم؟.

أجل فإن منهم من يعبدون المسيح كما الله حيث اعتقدوا فيه أنه الله أو ابن الله، فعبادته - إذاً - هي عبادة الله!: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(١).

ومن ثم فهم عظمّوا رؤساءهم ورحبّوا علماءهم وقلدوهم في التحليل والتحريم والتأخير والتقديم وتقحموا ما قحمّوهم من فاسد العقيدة والمذاهب الرديئة، قلدوهم كأنهم آلهة إلّا الله، تقليداً طليقاً يحلق على ما يناحر العقلية الكتابية ونصوصها: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ...﴾(٢).

ذلك وكما نراهم يركعون ويسجدون للصليب ولتمثال المسيح، بل ولعلمائهم، سجوداً وتكفيراً وتضاؤلاً وخضوعاً بالغاً - كما لله - لكبرائِهم وديانيهم وأولي التقدم في دينهم، وكذلك ملاك أمورهم زمنياً أو اقتصادياً أو ثقافياً، يطيعونهم حين لا يطيعون الله، فالربوبيات الواقعية تربوياً لا بدّ وأن تنتهي إلى ربوبية الله دونما محادة ومشاقة.

ففيما يسأل رسول الهدى ﷺ: ما كنا نعبدهم يا رسول الله! يقول:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.

أما كانوا يحلُّون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ فقال: نعم فقال: هو ذاك[١].

فالتوحيد الحق هو جماع التوحيد المحلِّق على وحدة الذات وهي مع الصفات والصفات مع بعضها البعض، ووحدة الخالقية والمعبودية والطاعة وما إلى ذلك من شؤون الألوهية والربوبية في وحدات، فمن نقض واحدة منها فقد نقض كامل التوحيد، داخلاً في الإشراك بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لله في كامل توحيده وأنتم غير مسلمين له.

فالمسلمون لله هم المعتقدون المحققون كامل درجات التوحيد، خصيصة تميزهم عمن سواهم، وأهم مراحل التوحيد هي توحيد العبودية والطاعة، فهو التحرر الطليق عن كلّ عبودية أو طاعة سوى الله، اللهم إلّا بأمر الله كطاعة رسول الله، وأما العبودية فكلّا.

في حقول الأنظمة الأرضية تتوفر عبادة مَن دون الله واتخاذ بعض بعضاً أرباباً من دون الله، سواء أكان في أرقى الديمقراطيات أم في أحطِّ الدكتاتوريات، مهما كانت تلك العبوديات في سجودٍ أو ركوعٍ أم في طاعات طليقة لغير الله.

ولكن النظام الإسلامي السامي يحرِّر الإنسان عن كلِّ عبوديةٍ وطاعةٍ لمن سوى الله، حيوية سليمة طليقة في بعد واحد هو الله.

ولقد تركَّزت الدعوة التوحيدية الموجهة إلى أهل الكتاب إلى مثلثة الجهات، رفضاً لثالوث العبوديات.

(١) نور الثقلين ١: ٣٥٢ وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم: . . .

١ - ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في أية مرحلة من مراحل العبودية، في السيرة والصورة، في قالة وحالة أماهيه.

٢ - ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فيما يختص بساحة الربوبية، في أية دركة من دركات الإشراك بالله قالة وحالة وفعالة، عبادة وطاعة وتأثيراً في تكوين أو تشريع.

٣ - ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الربوبية الخاصة بالله، وسائر الربوبيات المناحرة لربوبية الله.

وفي ﴿بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ برهانان اثنان أحدهما على بطلان الربوبية في هذا البين لمكان المُباعضة، إذ لا يمتاز بعض عن بعض لمشاركتها في الكيان أياً كان، وثانيهما على أن الله ليس كمثله شيء فلا مباعضة بين الرب والمربوبين فلذلك يستحق هو الربوبية لا سواه.

فمهما كان لبعض على بعض - في المتشاركين - فضلٌ، ليس ليأهل ربوبية على قسيمه، فإنها غنى مطلقة والربوبية فقر مطلق.

فيا له برهاناً ما أوضحه على كلمة التوحيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في جميع شؤون الألوهية، كلمة سواء في العقلية الإنسانية والكتابية، فالمتولّي عنها متولٍ عنهما على سواء.

وقد ينضم ثالوث السلب في ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ كما توحيد الإيجاب في ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولا تعني سائر كلمات التوحيد وعباراته إلّا كلمة الإخلاص هذه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وخطاب أهل الكتاب - ككلّ - بكلمة سواء، تنديد بهم في كافة الانحرافات والانجرافات عن التوحيد الحق، هوداً كانوا أو نصارى أم ومسلمين: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(١).

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

فليست صيغة «الإسلام - و - المسلمون» مما تصوغ كامل التوحيد، كما وأن صيغة التهوّد والتنصُّر ليست لتصوغ الإشراك بالله، فـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

وليست ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ - فقط - لفظة تقال مهما تأولوها بما لا تعنيه كتوحيد التثليث أو التثنية أماهيه، أم كانت أعمالهم واتجاهاتهم تضادها أم لا تتجاوب معها، فقد تعني كلمة التوحيد بعد قالها حالها وأعمالَها في كافة مدارجها، فهي التي يقول الله عنها «كلمة لا إله إلّا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي».

ويا له حواراً ما أجمله وأنصفه أن يدخل الرسول ﷺ نفسه والذين معه في جموع أهل الكتاب لـ ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ دون أن يختصهم بمثلث النهي، لئلا يكون تعريضاً عليهم صُراحاً، فإنما هو ختام للجدال بالتي هي أحسن بأنصف النصفة وهو الالتزام بما هو لزام الشرعة الكتابية لأهلها هوداً ونصارى ومسلمين.

ثم وأخيراً ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ - ﴿فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دونكم دون «أنتم كافرون».

وهنا ندرس من أدب الحوار الرسالي لكل داعية أنه - ككلٍّ - استجاشة للفطرة والعقلية الإنسانية والوحدوية الكتابية ما يقرب إلى الحق، أو - لأقلِّ تقدير - لا يغرب عنه، دونما سباب أو انتقام في الخصام.

فرغم عدم السواء في كلمة التوحيد بيننا وبينهم واقعياً يوجههم الله إليها مبدئياً كتابياً، فـ ﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ بسند الشرعة الكتابية بعد سناد الفطرة

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

والعقلية الإنسانية فالمتخلف عنها متخلف عن الكلمة السواء مهما كان مسلماً أو من هود أو نصارى.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾:

لقد حاجّ أهل الكتاب رسول الهدى ﷺ في إبراهيم كأنه يهودي أو نصراني، حجَّة واقعية من الرسالة الإبراهيمية المقبولة لدى الكلِّ، فتهوُّده أو تنصرُّه قد يقضي على ﴿كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ أو يتهافتان.

ولكنهم محجوجون في هذا المسرح قبل كلِّ شيء بأنه ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ فكيف يعقل تهوّده وتنصره ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾[1].

ذلك ولقد جرت العادة للمبطلين أن يضموا أنفسهم إلى قادة المحقين لكي يبرِّروا باطلهم كأنه حق، حينما كلّت كل حججهم عن إثبات الباطل وتزييف الحق.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾:

المحاجة الحقَّة الصادقة هي التي تتبنّى العلم، والتي لا تتبنّاه هي من الباطل، فلتكن لأهل الكتاب محاجّتان اثنتان حقة وباطلة، فما هي الأولى؟

والأخيرة ظاهرة من تلك الحوار، من المحاجة الحقة للنصارى ما احتجوا به لإثبات رسالة السيد المسيح على اليهود وهم ناكروها، ومنها

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

لليهود عليهم ما احتجوا به لإبطال ألوهية المسيح والتثليث أماذا من حجاجات حقة بينهم أنفسهم.

ومن الباطلة احتجاجها على المسلمين بالتهوُّد والتنصُّر لإبراهيم الخليل تثبيتاً لاختلاقاتهم المعارضة للشرعة الكتابية، والحجاج الحقة ليست لتثبت الحق في الحجاج الباطلة، وإنما يقدر كل بقدرة.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

لأن التهوُّد والتنصُّر اختلقا منذ نزول التوراة والإنجيل، وهما - دون ريب - أنزلتا بعد إبراهيم عليه السلام فمن المستحيل كون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً حتى يتمسك في صحتهما بشيخ المرسلين.

ولكن يبقى سؤال: كيف يشكُّ أي ذي مسكة أو سفيه أن إبراهيم الذي عاش قبل نزول الكتابين يقرون هو يهودي أو نصراني، حتى يتطلب ذلك النقاش العريض في عديد من آي الذكر الحكيم؟.

والجواب أن كلّاً من الهود والنصارى كانوا - ولا يزالون - يدَّعون أن الشرعة الإلهية هي شرعة التوراة أو الإنجيل، امتدادا زمنياً خلفياً وأمامياً مهما جاء بهما الرسولان، فليكن إبراهيم ومن قبله ومَن بعده إلى يوم القيامة هوداً أو نصارى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[1] فالنبيون الأوّلون والآخرون والذين معهم هم هود في الأصل أو نصارى حتى يستحقوا دخول الجنة.

ومن الامتداد الخَلفي المدّعى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ...﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

فبناءً على هذه الضابطة المدَّعاة إبراهيم الخليل عليه السلام هو من الهود أو النصارى، وقضية الشرعة التوراتية أو الإنجيلية هذه التي نعتقدها فنحن - إذاً - من أتباع إبراهيم الخليل عليه السلام.

والقرآن يزيف في آيات عدَّة أولاً نزول التوراة والإنجيل إلّا من بعد إبراهيم، ثم وفي أخرى يصرِّح بعديد الشرائع الإلهية: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1] ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2].

وذلك هو الشأن الشائن لكلّ الطائفيّين المتصلبين، كأن شرعتهم هي شرعة الكلّ، فالمُتخلِّف عنها خارج عن شرعة الله، تنديداً بسائر كتابات الوحي ورسالاته بأممها.

وترى ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ليس رجوعاً إلى مثل الدعوى وقد أنزل القرآن من بعده؟.

كلّا، حيث الإسلام هو التسليم لله في كافة الأدوار الرسالية، فالنبيون والذين معهم كلهم كانوا مسلمين لله وكما في آيات عدة، وما اختصاص المسلمين الآخرين باسم الإسلام، إلّا لمقابلته بالذين يكفرون بشرعة القرآن، وإنها لم تحرَّف أو تبدّل فحفظ إسلامه سليماً كما أنزل دون سائر كتابات الوحي حيث حرفت عن جهات اشراعها أصلية وفرعية.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تأييد أكيد للمعني من إسلام إبراهيم، فإن قضيته التقسيم إلى مسلم ومشرك، وكل المسلمين لله في الأدوار الرسالية مسلمون ومن سواهم مشركون أو ملحدون.

وهنا تنحلُّ المشكلة في محاجتهم فيما ليس لهم به علم، إذ كانوا

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الحج، الآية: ٦٧.

يعلمون نزول التوراة والإنجيل ولكنهم يجهلون أن ليسا هما كتابي الشرعة الإلهية الممدودين خلفياً وأمامياً.

هذا إبراهيم، ثم ومن هو أولى به انتساباً روحياً هو الأولى في كلِّ الحقول الروحية:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

ليس الأولى بإبراهيم من يدَّعون تهوُّده وتنصُّره كذباً وزوراً، ولا المنتسبون إليه سبباً أو نسباً، إنما هم الذين اتبعوه في حنفه وإسلامه ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ...﴾.

فلقد اختصت الأولوية هنا بالذين اتبعوه وبهذا النبي الذي هو في الحق متبوعه في محتدِّ الإسلام، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على طول خط الرسالات دون فارق بين مؤمن ومؤمن إلّا بفارق درجات الإيمان، دون سائر الفوارق المختلفة المختلقة، عنصرية أو إقليمية أو طائفية أماهيه.

ذلك - فكذلك إن أولى الناس بمحمد للذين اتَّبعوه، لا الذين انتسبوا إليه بسببٍ أو نسبٍ أم عاصروه وصاحبوه، مهما كان الأولى بالقرابة والطاعة أولى من وليه بالطاعة لأنه مجمع النورين وكما يروى عن علي عليه السلام: فنحن مرة أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة[1].

ويروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إن وليَّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أطاع الله ورسوله وإن بعدت لحمته وإن عدوّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عصى الله ورسوله وإن قربت

(١) المصدر عن نهج البلاغة من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً وكتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنا وهو قوله سبحانه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قرابته»[١] و: إن أولى الناس بالنبي المتقون فكونوا أنتم بسبيل ذلك فانظروا لا يلقاني الناس يحملون الأعمال وتلقوني بالدنيا تحملونها فأصدّ عنكم بوجهي ثم قرأ هذه الآية[٢].

فصاحب الطاعة أولى بالنبي ﷺ من صاحب القرابة، والجامع بينهما أولى من صاحب الطاعة، كما وأن القريب العاصي أغرب من الغريب العاصي وكما قال الله في نساء النبي: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ... يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا... وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا... فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[٣].

وإنها ضابطة ثابتة على مدار الزمن الرسالي، أن الأصل في الأولوية إيجابية وسلبية هي الطاعة إيجابية وسلبية، ثم تزيدها القرابة بدرجاتها درجات أم دركات.

وهذه الصورة الوضاءَة المشرقة هي أرق صورة للتجمع الانساني لمجمع واحد، تمييزاً له من القطيع، صورة تسمح بتلك الوحدة العريقة غير الوهيدة دون قيود إلّا ما يختاره الإنسان من صالح العقيدة والعملية.

فبإمكان الإنسان أيّاً كان أن يغير عقيدته وعمله من طالحٍ إلى صالحٍ أو من صالحٍ إلى طالحٍ فيدخل نفسه في صالحين أم طالحين، وليس بإمكانه أن يغيِّر لونه وميلاده ونسبه، مهما كان يملك أن يغير لغته أو شغله أو طبقته

(١) نور الثقلين ١: ٣٥٣ عن المجمع قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به ثم تلا هذه الآية وقال:...

(٢) الدر المنثور ٢: ٤٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن ميناء أن رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش:...

(٣) سورة الأحزاب، الآيات: ٣٢، ٣٠، ٣١، ٢٩.

بصعوبةٍ، فتبقى الحواجز - إذاً - سارية المفعول لولا عامل الوحدة العقيدية التي يقرب كلَّ غريب ويغرب كلَّ قريب.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿وَدَّت... لَوْ﴾ تحيل ذلك الإضلال المرتجى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ و«لا يضلون» في ودّهم هذا ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث يتضاعف ضلالهم وعذابهم بما ودُّوا ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

ذلك وحتى ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشرائط الإيمان فإضلالهم راجع بالنتيجة إلى أنفسهم حيث يزدادون جزاءً وفاقاً: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1] ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2].

ففيما لا يَضلُّ مِنكم بإضلالهم فالحصر حقيقي دون ريب، إذ ظلت محاولة الإضلال فاشلة إلّا في أنفسهم إذ يزدادون ضلالاً، وفيما يضلُّ البعض، فليس الراجع إلى المضلِّل إلّا ضلال إلى ضلالٍ، والمضلَّل إنما ضلَّ بسوء اختياره، فالحصر نسبيٌّ والخاسر الأصيل هو المضلّل ف ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[3] ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[4].

ذلك! ولأن ذلك الودُّ المضلِّل ليس عن إيمان بباطلهم وكفر بحقهم وإنما حسداً وليكونوا سواءً: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ٢٥.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الروم، الآية: ٤٤.

بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[(١)] ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[(٢)].

ومن إضلالهم إياهم قولتهم: أنتم تؤمنون بموسى والمسيح كما نحن مؤمنون فما هو برهانكم على رسالة محمد ونحن به كافرون؟ والجواب أننا نؤمن بالمسيح الذي بشر بمحمد ﷺ لا المسيح الله أو ابن الله أو خاتم الرسل الناكر لرسالة خاتم النبيين ﷺ.

ومنه إن النسخ قول بالبداء وإن الله يجهل ثم يعلم، والجواب أنه يبيِّن أمد الحكم السابق قضيةَ المصالح الوقتية في الأحكام المتبدلة، ثم لا نسخ في أصول الدين وجذور الأحكام . . .

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم كلهم، و﴿تَكْفُرُونَ﴾ لا تعني - فيما عنت - صراح الكفر بالله، فإنما بآيات الله مهما استلزم الكفر بالله.

و﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعمُّ آيات الربوبية والآيات الرسولية والرسالية، ومنها هنا آيات البشارات بالرسالة المحمدية ﷺ الموجودة في كتابات العهدين عتيقة وجديدة، كما ومنها الآيات التي كانوا يحرِّفونها، وقضية الأهلية الكتابية تصديق سائر آيات الوحي ثم ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ها، أنها آيات الله، لأنها في كتاباتكم، ولأنها في هذه الرسالة تُشبه سائر الآيات الرسالية وزيادة.

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ مشاهدَ المسلمين بهذه الرسالة، وإذا خلا بعضكم إلى بعض تصدقون، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ انطباق آيات البشارات على هذه الرسالة السامية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٩.

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بهذه الآيات أنها حقة في أنفسكم وفيما بينكم.

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عليها في مشهد المسلمين، فكلٌّ هذه الشهادات هنا معنية حيث المتعلق المحذوف لـ﴿تَشْهَدُونَ﴾ طليق يليق أن يكون كلًّا من هذه الأربع مهما اختلفت معانيها، حيث تتوحد في التنديد بذلك الكفر الماكر، وأنه من أنحس الكفر وأتعسه.

إنهم يكفرون بآيات الله - مطلعين على البشارات وغير مطلعين - لا لنقصٍ في الدليل ولكنه المصلحية والتضليل، فتقرعهم بينات الآيات بواقع موقفهم المريب المعيب.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾:

ولقد كانوا يلبسون الحق ويغمرونه في غمار الباطل، الأمر الذي درجوا عليه منذ البداية وحتى اللحظات الحاضرة، يقدمهم اليهود ويتبعهم النصارى، و«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتبّع وأحكام تُبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضِغث فيُمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحُسنى»[1].

فلبس الحق بلباس الباطل ولبس الباطل بلباس الحق شيطنة مدروسة على مدار الزمن الرسالي يصطاد بها السذَّج البُله الذين لم يعرفوا الباطل والحق حقهما فهم هُمج رُعاع، أتباع كُّل ناعقٍ يميلون مع كلِّ ريح ولا يلجأون إلى ركن وثيق.

(١) من خطب للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام برواية الكافي وفي النهج مثلها بتفاوت يسير.

والمُهمّة الأولى والأخيرة لهؤلاء المناكيد كتمان الحق حتى لا يُتَّبع، أن يلبس بالباطل كما يلبس الباطل بالحق، والحق ضائع في المسَرحَين.

﴿لِمَ تَلْبِسُونَ . . . وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لبسَكم، و«تعلمون» الحقَّ والباطلَ، وأنتم أهل الكتاب الذي يعرّفكم الحق والباطل فِلمَ تلبسون؟.

لقد نرى - منذ بزوغ الإسلام حتى الآن جموعاً من أهل الكتاب - ولا سيّما المستشرقين والمبشرين الصليبيين - يدسون في التراث الإسلامي ككل، اللّهم إلّا القرآن المصون عن كل تحريف بما وعد الله، دسّاً في الأحاديث والأحداث والتاريخ وعامة التراث وحتى في مختلف التفسير للقرآن لحدّ تركوه تيهاً لا يكاد الباحث غير الدقيق يهتدي فيه إلى معالم الحق.

فهُناك شخصيات مدسوسة على الأمة الإسلامية، مغروسة في أصول حقولها ليؤدّوا لأعداء الإسلام من خدمات هامة لا يملكها الأعداء الظاهرون.

وفي الحق أنهم هم حملة الفتن الهدامة في أُمّةِ الإسلام، وعلى أعقابهم كتلٌ ساذجة جاهلة أو متجاهلة يحسبون هذه الدسائس من صلب الإسلام، ويتهمون ناكريها بأنهم خارجون عن الدين: أتنكر حديث الرسول ﷺ أو أنت منكر روايات الأئمة من آل الرسول ﷺ وأنت أنت وحدك ترد ما اشتهر بين جماهير المسلمين، وجادت به أقلام المؤلفين؟!.

وليتهم في خضّم هذه المعارك الصاخبة رجعوا إلى عقليتهم الإسلامية، إلى القرآن الناطق بالحق، الفرقان بين كلّ باطل وحق، وكما أمرهم الرسول ﷺ فيما يقول: «فإذا التبست عليكم الفتن كقِطَعِ الليل المُظلم فعليكم بالقرآن فإنه حبلُ الله المتين وسببه الأمين». . . .

ولو أن القرآن احتلَّ الأوساط العلمية والعقيدية اختلّ الدسّ والتجديف

في كلِّ حقوله، ولكنَّما المحاولة المستمرة في الوسط الإسلامي - وحتى الحوزات العلمية - مستمدةً من الوسط الكتابي المستعمر المستحمر، إنها لا تزال تعمل في إبعاد القرآن وتسفيره عن حوزة الأمة وحيازتها، اكتفاءً بقراءَته وتجويده في عبارته، وتجاهلاً عن حق دراسته وممارسته.

نرى لبسهم الحق بلباس الباطل بمختلف المحاولات المضلِّلة من قالات وفعالات ومنها:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٧٢)﴾:

وقد تعني الآية وجوهاً يتحملها الأدب لفظياً ومعنوياً أن:

١ - «آمنوا بما أنزل على الذين آمنوا» ككلّ ﴿ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾.

٢ - «آمنوا بما أنزل وجه النهار» «واكفروا» به «آخره».

٣ - «آمنوا بما أنزل وجه النهار» «واكفروا» بما أنزل عليهم «آخره».

والجمع المعني منها هو الإيمان النفاق البارز ببديل الكفر عن الإيمان ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

وهذه المنافقة اللئيمة مما تؤثِّر بطبيعة الحال في الذين لم يقع الإيمان موقعه المكين في قلوبهم، فحين يرون طائفة من أهل الكتاب يؤمنون يزدادون إيماناً، وحين يرونهم يكفرون بعد إيمانهم يرجعون.

ولقد خاب سعيهم بما أوضح الله من كامن كيدهم وميدهم، أن سراع الكفر بعد الإيمان ليس من صادق الإيمان، ولينتبه المسلمون على طول الخطِّ أنه من مكائد الكتابيين - اللئيمة - فلا يدخلوا في هوَّاتهم بغوَّاتهم.

وهذا أمكر طريقه وأنكرها في تضليل البُسطاء وضِعاف العقول، حيث

يوقعهم في البلابل، إذ يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بالبيئة الكتابية، فإذا ارتدّوا بعد إيمانهم لم يكن ذلك الارتداد إلّا بسبب اطلاعهم - بعد تطلعهم الصحيح - على بطلان هذا الدين!.

ولقد تطرّقوا في هذا الكيد اللئيم طُرقاً شتَّى تناسب مختلف الحقول وشتَّى العقول، فاختلقوا جيشاً جراراً بصورة مثقفين فائقين في مختلف العلوم وهم يحملون اسم الإسلام لا لشيء إلّا لانحدارهم من سلالة إسلامية، رغم انهدارهم عن سُلالة الإسلام.

فهم قد يدقون على تقدمية الإسلام وأخرى على رجعيتها دعاية ضالة للتفلت عنه، وإبعادها عن مختلف مجالات الحياة وجلواتها إشفاقاً عليها!.

ولا فحسب في ميادين العلوم التجريبية، بل وفي العلوم الإسلامية نفسها حيث يمحورون القيلات الشتات التي هي ويلات على المسلمين، تاركين كتاب الله وراءهم ظهرياً.

فهؤلاء وأولاء - وهم مسلمون! - يشاركون - جاهلين أو متجاهلين أم ومعاندين - يُشاركون رأس الثالوث الماكر وهم طائفة مستشرقة ومبشرة من أهل الكتاب، فهم شُركاء ثلاثة في سالوسهم بثالوثهم تأديةً لدور التضليل.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)﴾:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ من خطاب أهل الكتاب بعضهم بعضاً ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ من المسلمين المضلَّلين ومن إخوانكم - ككل - في الدين، والإيمان له ليس كالإيمان به أو إيمانه أو معه، إنما هو الوثوق والاطمئنان إلى إخوتهم في دينهم، فأسِرُّوا إليهم وجاهِروهم كما تحبون.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ لا هدى الهوى التي أنتم تبغونها، فهُدى الله

تعالى طليقة عن عنصريات وقوميات وطائفيات أو لغات، ومن هدى الله طليقة ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ سواكم ﴿مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ من شرعة الله وسلطانه، ولا تعني هذه المماثلة إلّا في أصل الوحي والشرعة دون درجاتها.

فإذا ﴿يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ فآمنوا به ولهم «أو» إذا توليتم ﴿يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ لماذا كفرتم به وأنكرتموه، ألأن فضل الله بأيديكم؟

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لا من تشاؤون ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] دونكم أنتم اللئام المتضايقون الأضِنَّة.

إن الشراسة الإسرائيلية وتصلّبها العُنصري كانت ولا تزال تخيِّل إليهم أنهم هم الشعب المختار، اختار الله لهم شُرعته إلى يوم الدين، دونما أية حجَّة وبيِّنة، صدّاً عن سبيل الله وسدّاً عن فضل الله وهداه إلَّا لهم أنفسهم، فمن سواهم أتباعهم على طول الخطّ الرسالي، كلّا! ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾:

اختصاصاً في الأدوار الرسالية لكلِّ رسالة برسول، واختصاصاً للرسالة الأخيرة بخاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين محمد ﷺ.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2] ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾[3].

ذلك! وليس أهل الكتاب كلهم كفرة ناكرون ماكرون بل هم كما يقول الله:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

۞وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ

يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

مثالٌ ماثل بين أيدينا لغايتي الأمانة والخيانة الكتابية، فمنهم ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كالذين ائتمنوا كتاب الله فأدُّوه إلى أهل الله بكلِّ البشائر المودوعة فيه لأهليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ بخلاً عن أداء أمانته على قلتها ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ﴾ تقوم على أمانة البشارة وسواها بحجَّة كتابية لا حِوَل عنها، و«ذلك» البعيد البعيد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الخونة لا كلهم ﴿قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ وهم غير الكتابيين أنفسهم، سلباً لسبيل القيادة الروحية وسواها وسائر الحقوق عن بني إسماعيل الأميين كأنها محصورة في الكتابيين أنفسهم محسورة عمن سواهم! ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ دونما تقوى في طغواهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الحق وأنهم كاذبون في نكرانه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾[1] تعني - فيما تعنيه - الملك الروحي، فكأن لهم نصيباً من ذلك الملك يملكونه فيختصون به أنفسهم ولا يؤتون سائر الناس منه نقيراً!.

(١) سورة النساء، الآية: ٥٣.

وقد يعني المثال الأول قسماً من النصارى والثاني اليهود فـ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

وقد تعني ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ كلَّ حق هو لهم، فلا علينا أن نؤدي حقهم مهما كانت أمانة، فلما نزلت قال النبي ﷺ: «كذب أعداء الله ما من شيءٍ كان في الجاهلية إلّا وهو تحت قدمي هاتَيْنِ إلّا الأمانة فإنها مؤدّاة إلى البِّر والفاجر»[2].

وأما كيف خصَّ الله تعالى أهل الكتاب بتلك الخاصة وفي غيرهم - كما هم - الخائن والأمين والثقة والضنين؟.

لأنه لا يعني - فقط - أمانة المال، بل والأصل هو الممثل له: أمانة الوحي المخصوص بأهل الكتاب، ولكيلا يغتر المسلمون بأنهم أهل الكتاب فيأمنوهم على ما ينقلونه لهم من وحي الكتاب.

ثم ولا نحسبهم على سواء في خيانة الأمانة، فلا تمنعنا المشاقة لهم من أن نشهد أن فيهم الثقة وإن كانت الظنة غالباً عليهم، وإن فيهم الأمين وإن كانت الخيانة أشبه بطرائقهم.

ولقد سمُّوا المسلمين أميين زعماً منهم ألّا كتاب لهم حيث يحصرونه بالعهدَيْنِ.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

(٢) الدر المنثور ٢: ٤٤ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير قال لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: . . .

ولقد كان بين اليهود وبين أقوام من العرب بُيوعٌ وقروضٌ فلما أسلموا قالوا: ليس علينا أن نقضيكم أموالكم لأنكم قد انتقلتم عن دينكم واستبدلتم بمعتقدكم، حيلة تسلب أموالهم ومطال ديونهم، فقال النبي ﷺ قوله: كذب أعداء الله . . .

ومن قيلة اليهود الغيلة أن غيرنا عبيد لنا يحلّ لنا أكل أموالهم وهَتْك أعراضهم و﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ مهما أكلنا من أموالهم وظلمناهم في سائر حقوقهم.

إذاً فـ ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ تعني كلَّ سبيل روحيٍّ أو زمنيٍّ أو ماليٍّ أم أي حق، فنحن أصحاب الحق المطلق، وهم ليس لهم علينا أي حق، وكما يلوح كل ذلك من طيّات الآيات التي تحكي عن مزاعمهم التفوقية على كلِّ الأمم، لحد يحسبونهم حيواناً خلقهم الله بصورة الإنسان لكي يصلحوا لخدماتهم!.

هنا ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ تلمح أنهم ينسبون هذه الفوقية العنصرية إلى الله وهم يعلمون كذبهم فيه.

وذلك من أخطر الخطر على الإنسانية، أن تحصر حقوقها - الفطرية والعقلية والشرعية أماهيه - قبيلاً واحداً من عامة الناس هم بنو إسرائيل أمّن هم، لا لحق إلّا دعوى مكرورة على ألسن وأقلام سامّة تكدِّر جوّ الحياة على مَن سواهم.

فرغم أن الإنسانية أمانة ربانية لهم وعليهم ككّل، هم يختصون فضائلها وفواضلها بكلِّ حقوقها بأنفسهم، احتلالاً قاحلاً جاهلاً لشرف الإنسانية وميّزاتها.

ولقد برزت هذه الأنانية الحمقاء بين اليهود كأصلٍ على مدار الزمن،

ومن ثم بين سائر الاختصاصيين من المُستعمرين المُستثمرين المُستحمرين المُستبدين المُستكبرين المُستضعِفين المُستخِفين، أصحاب الأبواب السبعة الجهنمية على مدار التاريخ الإنساني.

والقرآن يجرف هذه الخرافات الزور الغرور بكلمة واحدة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] ثم وليست الكرامة عند الله مما يحمل التقي على الطغوى، فإنما هي تقوى أمام الله وأمام عباد الله وحتى بالنسبة للحيوانات والنباتات.

كلا وألف كلا! ليست هذه الأنانية مسموحة في أية فطرة أو عقلية إنسانية فضلاً عن شرعة الله.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ﴾ من هودٍ أو نصارى أو مسلمين ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ عهد الله، الذي عاهد عليه الله فطرياً وشرعياً، وعهده نفسه، والذي عاهد اللهَ عليه أم عاهد عباد الله أم عاهدوه عليه وتقبله بحق ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ الله في عهوده كلها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سواء حملوا اسم الإسلام أو سواه ولقد عهد الله على عباده ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[2].

فليست كرامة الحب الربانية بذلك المبتذل الفوضى حتى ينالها كلُّ مدعٍ زوراً وغروراً دونما تقوى، بكل قيلةٍ وادعاءٍ وويلةٍ في طغوى الحياة، أن ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[3] - ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٨.

إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[1] و﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

وهنا نعرف أن الوفاء بالعهد له صلة وثيقة بتقوى الله، فلا يتغيَّر في التعامل مع عدوٍّ أو صديقٍ، إذ ليس الوفاء بالعهد مسألة مصلحة، إنما هو تعامل مع الله.

أجل ليس هو المصلحة، ولا عرف المجموعة، ولا قضية ظروف، بل قضية واقع الخُلُق الصالحة الإسلامية السليمة، اللهم إلّا في عهود متخلفة فإنها في الأصل باطلة في ميزان الله فضلاً عن الوفاء بها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾:

هنا الرباط بين عهد الله وأيمانهم، أنهم قد يشترون بالعهد وبأيمانهم ليصدّقوا، على أن لكلٍّ وزراً.

﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ في مربعه ولا سيما الذي عاهدهم الله عليه من وحي الكتاب بشارةً وسواها ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[3] ولكنهم اشتروا به ثمناً قليلاً.

﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ على الوفاء بعهد الله، يشترون بهما ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وكلّ ثمن بعهد الله قليل في كلٍّ قليل وجليل: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[4] من حظوة الرئاسة وزخرفات مالية أماهيه، فإن عهد الله لا يُساوى أو يُسامى بأي ثمنٍ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ٧٧.

ولماذا ﴿يَشْتَرُونَ﴾ وهم يشرون عهد الله، لأن المشتري يهمُّه الثمن المشتَرى، فلذلك لا يهمُّه قليله وجليله، وهؤلاء الأنكاد وصلوا في هتكهم لحرمات الله إلى تقديم كل حظوة فانية في هذه الدانية عليها.

لذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعاد البعاد ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ ولا نصيب ﴿فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾.

«فمن لم يكن له نصيب في الآخرة فبأي شيء يدخل الجنة؟»[1] حيث شروا بِعَهْدِ الله هذا الأركس الأدنى فهم - إذاً - إنما تهمهم هذه الأدنى دون الأخرى و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾[2] و«اللهم إلّا من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى» فأولئك لهم خلاق.

ذلك! وهؤلاء الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً هم أنحس من أولاء وأنكى إذ باعوا بالدين الدنيا.

ف ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلام عطف ونظر لطف ورحمة[3] اللهم إلّا ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[4] و﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[5] كما ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بتوبة أو شفاعة أو تكفير سيئات

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٥٦ بسند متصل عن أبي جعفر عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وأنزل في العهد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ فمن...

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٣) المصدر في كتاب التوحيد حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه - وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات، وأما قوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عِمرَان: ٧٧] يخبر أنه لا يصيبهم بخير وقد تقول العرب: والله ما ينظر إلينا فلان وإنما يعنون بذلك أنه لا يصيبنا منه بخير فذلك النظر هاهنا من الله تبارك وتعالى إلى خلقه فنظره إليهم رحمة لهم.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

(٥) سورة النحل، الآية: ٢٩.

بحسنات إذ حبطت أعمالهم التي كانوا يرونها صالحة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[١] - ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهذه السلبيات الأربع من حظوة الآخرة لهؤلاء الأنكاد هي - بطبيعة الحال - إيجابيات للمتقين، فلهم في الآخرة خلاق كما سعوا لها ويكلمهم الله عطفاً وينظر إليهم لطفاً ويزكيهم بمختلف التزكيات، ولهم ثواب عظيم.

هنا «عهد الله» معني في كلٍّ حقوله، وكذلك «أيمانهم» لله أم لعباد الله، وكما العهد الفاجر يخلف العذاب كذلك اليمين الفاجرة، مهما اختلفت المراحل في كلٍّ منهما وفاء ونقضاً.

وقد رُويت عن رسول الهُدى ﷺ روايات عدّة بشأن اليمين الفاجرة الشائنة منها قوله ﷺ: «من حلف على يمينٍ هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئٍ مسلمٍ لقي الله وهو عليه غضبان...»[٢].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.

(٢) الدر المنثور ٢: ٤٤ - أخرج جماعة عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: ... فقال الأشعث بن قيس: فيّ والله كان ذلك كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: ألك بينة؟ قلت: لا فقال لليهودي احلف فقلت: يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾، وفيه أخرج ابن جرير عن ابن جريج أن الأشعث بن قيس اختصم هو ورجل إلى رسول الله ﷺ في أرض كانت في يده لذلك الرجل أخذها في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ: أقم بينتك قال الرجل: ليس يشهد لي أحد على الأشعث قال فلك يمينه فقال الأشعث نحلف فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ فنكل الأشعث وقال:

إني أشهد الله وأشهدكم أن خصمي صادق فرد إليه أرضه وزاده من أرض نفسه زيادة كثيرة، وفيه أخرج ابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن الحارث بن البرصاء سمعت رسول الله ﷺ في الحج بين الجمرتين وهو يقول: من اقتطع مال أخيه بيمين فاجرة فليتبوأ مقعده من النار ليبلغ شاهدكم غائبكم مرتين أو ثلاثاً، وفيه أخرج البزار عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال: اليمين الفاجرة تذهب المال، وفيه أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ليس مما عصى الله به هو أعجل عقاباً من البغي وما من شيء أطيع الله فيه أسرع ثواباً من الصلة واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع. =

فضلاً عن اقتطاع حقٍّ من الله في زعمه فأغضب وأشجى!.

أجل و«إن اليمين الغموس»[1] اهتضام لحق الناس واهتدام لكرامة الله.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

اللَّيُّ هو عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج، ولواه به عطفه بما سواه ليحسب مما سواه.

طرف آخر من مكائد البعض من أهل الكتاب هو تحريفه بألسنتهم إقحاماً لما ليس من الكتاب في الكتاب أم تحريفاً بزيادة أو نقيصة في آي الكتاب أو إعرابه، ولَيُّ الألسنة بكتاب يشملهما ولا سيما الثاني خلطاً بما ليس منه فيه بنفس العبارة الكتابية لغة وجملة ولحناً وكما في ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾[2] ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أنتم المسلمين غير العارفين بلغة الكتاب ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ ويقولون ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ﴾ فيها يلوون ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كذبهم، وذلك

= وفيه أخرج الحارث بن أبي أسامة والحاكم وصححه عن كعب بن مالك سمعت رسول الله ﷺ يقول: من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة كانت نكتة سوداء في قلبه لا يغيرها شيء إلى يوم القيامة، وفيه أخرج الطبراني والحاكم وصححه عن جابر بن عتيك قال قال رسول الله ﷺ: من اقتطع مال مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار فقيل: يا رسول الله ﷺ وإن شيئاً يسيراً؟ قال: وإن كان سواكاً، وفيه أخرج عبد الرزاق عن أبي سويد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن اليمين الفاجرة تعقم الرحم وتقل العدد وتدع الديار بلاقع.

(١) نور الثقلين ١: ٣٥٥ في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام حديث طويل في تعداد الكبائر وبيانها من كتاب الله وفيه يقول الصادق عليه السلام: واليمين الغموس لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ...﴾ [آل عِمرَان: ٧٧].

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٦.

أيضاً ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ فلكي يصدُّوا كلَّ سبيلٍ للحجة على أنفسهم يستحلون الفرية على الله حيث الغاية - بزعمهم - تبرِّر الوسيلة.

كما ولهم ليٌّ في كَتب الكتاب وثالث في تفسير الكتاب تحريفاً عن جهات أشراعه، ورابع في تخلفهم عملياً عن الكتاب، قواعد أربع يتبنّون عليها عرش السلطة الروحية الكتابية!.

واللّيُّ الأوّل يعمُّ ما حرَّفوه من الكتاب كَتباً وسواه، ومثلث الكتاب يعني كتاب الوحي توراةً وإنجيلاً، ولأن الملوي باللسان لتحسبوه من الكتاب قد يكون من عند الله في وحي السنة فقد نفى كونه من عند الله، تكذيباً ثانياً لما يلوون، وثالث يؤكدها ويسمهم بِسِمَة الكذب على أية حال ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وذلك اللّيُّ والاشتراء والخيانة في أمانة الوحي وسواه من تجديفات - هي بطبيعة الحال - من رجال الدين، والعلماء العملاء لتشويه سمعة الدين.

فآفة رجال الدين وعاهتهم على الدين والدينيين حين يفسدون هي أن يصبحوا أداةً لتشوية الدين باسم الدين، ليّاً بالكتاب ضدَّه وبألسنة ضدِّها.

هؤلاء الذين يحترفون الدين فيهرفون فيما يحرِّفون ضدَّ الدين تلبية لأهوائهم وأهواء آخرين ممن يستفيدون من أموالهم وما لهم من رغبات وشهوات، فيحملون نصوصاً من الكتاب ويلهثون بها وراء تلك الأهواء الجهنمية، ليّاً لأعناق هذه النصوص لتوافق أهواءهم السائدة المايدة، فإنهم - لكي تتحقق أهواءُهم من وراء الكتاب - يبذلون جهوداً لاهثة باحثة عن كل تمحُّل وكل تصيُّد لأدنى ملابسة لفظية أماهيه، ليلبسوها من أهوائهم ما يبغون.

والله يحذِّر المسلمين من هذا المزلق الوبيء الذي انتهى بانتزاع أمانة القيادة الروحية من بني إسرائيل.

ولقد نرى ليّاً وَبيئاً في الآيات الإنجيلية المؤولة إلى ثالوثهم وإن المسيح ابن الله، وهم فاضحون فيما يفتعلون[1].

---

(١) يصرح الإنجيل في ثمانين موضعاً أن المسيح عليه السلام عبد الله ورسوله كما يقول: إن الحياة الأبدية معرفة الله بالوحدانية وإن المسيح رسوله (يوحنا ١٧ : ٣) و«أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد» (مرقس ١٢ : ٢٩) وهو يتحاشى عن أن يخاطب بالرب كما يندِّد ببطرس لما قال له: حاشاك يا رب، فالتفت إليه وقال: اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس (متى ١٦: ٢٢ - ٢٣) ويعتبر أيضاً من يظنه إلهاً أو ابنه من المجانين: « . . فلما عرفوه أخذوا يصرخون: مرحباً بك يا إلهنا وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله فتنفس الصعداء وقال: انصرفوا عني أيها المجانين لأني أخشى أن تفتح الأرض فاهها وتبتلعني وإياكم لكلامكم الممقوت، لذلك ارتاع الشعب وطفقوا يبكون» (برنابا ٩٢ : ١٩ - ٢٠).

وحقاً إنه لا يوجد في الأناجيل ما يدل صراحاً على النبوة والألوهية والثالوث المسيحية اللّهم إلّا اختلاقات ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين.

فمثل «أنا والآب واحد» (لوقا ١٠ : ٣٠) من المتشابهات التي تفسرها محكمات كالتي سلفت فالوحدة هنا توحد العبد مع ربه في الدعوة إليه، فلو دعا إلى نفسه لم يكن معه واحداً.

وكذلك: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (يوحنا: ٥).

فإن لم تكن هذه الحاقية ليست لتعني الكلمة فيها المسيح بل هي كلمة ﴿كُن﴾ التكوينية التي كانت عند الله فإنها القدرة الفعلية، ثم كان الكلمة الله من حيث القدرة الذاتية وهي من صفات الذات.

فللقدرة كما العلم واجهتان ذاتيتان هما من صفات الله التي هي عين الذات، فعليتهما عند الله لأنهما من صفات الفعل.

ثم لا نجد في الإنجيل ما يوهم التثليث إلّا كلمة الآب والابن، والآب تعني الخالق والابن هو ابن الإنسان كما في ثمانين موضعاً.

وأما في الرسالة الأولى ليوحنا ٥: ٦ - ٨: ١١: هذا هو الذي أتى بماء ودم المسيح. لا بالماء فقط بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون (في السماء) هم ثلاثة (الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد. والذين =

من ذلك ليّ «الآب» وهو لغة يونانية بمعنى الخالق، إلى «الأب» مع الحفاظ على مدِّه في أصل الكتاب، يلوون ألسنتهم بالآب أباً لتحسبوه من الكتاب نصاً على أُبوَّة الله للمسيح عليه السلام وليس الأب من الكتاب وإنما هو الآب فالابن معه أم سواه هو ابن الإنسان، فقوله عليه السلام لمريم المجدلية:

= يشهدون في الأرض هم ثلاثة) الروح والماء والدم والثلاثة هم واحد!
فما بين الهلالين منها: الآب.. - إلى - هم ثلاثة - مما كتبت أيديهم كذباً وزوراً ولا توجد في أقدم النسخ وكما لا تصرح به الترجمة العربية من الأصل اليوناني المطبوعة في المطبعة الأمريكية في بيروت ١٩٠٦ وهي مدار النقل عندنا في كتبنا الثلاثة: عقائدنا - المقارنات - رسول الإسلام في الكتب السماوية - فالتنبيه الموجود في أوّل هذه النسخة: والهلالان ( ) يدلان على أن الكلمات التي بينهما ليس لها وجود في أقدم النسخ وأصحها هذا التنبيه دليل أن التثليث المذكور فيه مقحم وكما يقول به كبار المحققين من علماء الإنجيل مثل كريسباج وشولز وهورن المفسر الشهير الإنجيلي، رغم تعصبه في الحفاظ على الأناجيل حيث يقول: هذه الجملة - يعني ما بين القوسين - الحاقية يجب حذفها عن الإنجيل، وتبعه جامعو تفسير هنري وإسكات وآدم كلارك، ثم إكستائن وهو من أعلم علماء التثليث ومرجعهم لا ينقل هذه العبارة في رسالاته العشر التي كتبها حول هذه الرسالة الإنجيلية، رغم أنه ممّن أسس أساس التثليث، فلم تكن - إذاً - هذه العبارة في الإنجيل حتى القرن الرابع زمن إكستائن وإلّا لكانت من أوضح أدلته على التثليث! وقد تكلف في مناظرته مع فرقة إيرين المنكرين للتثليث في الآية (٨) فكتب أن المعني من الماء هو الآب والدم هو الابن والروح هو الروح القدس!.
فلو كانت عبارة التثليث: الآب والكلمة والروح القدس - موجودة في زمنه وأن في نسخة مجهولة ساقطة لكان يتثبت بها ولم يسقط في هوة هذا التأويل البارد.
وممن يصرِّح بذلك الإلحاق الدكتور فندر الألماني مؤلف ميزان الحق في ردِّه - بزعمه - على الإسلام، ويكتب المفسر الشهير هورن ١٢ صفحة في التفتيش عن هذه الجملة وقد لخصها جامعو تفسير هنري والإسكات كالتالي: الأدلة المثبتة لكونها الحاقية ما يلي:
١ - لا توجد هذه العبارة في النسخ اليونانية قبل القرن ١٦ فهي - إذاً - ملحقة في هذا القرن.
٢ - لا توجد في المطبوعات الأولى ثم نراها بعدها.
٣ - لا توجد في شيء من التراجم إلّا اللاتينية قليلاً.
٤ - لم يستدل بها أحد من القدماء والمؤرخين الكنسيين.
٥ - زعماء بروتستانت الروحيون بين مسقط لهذه العبارة ومبقٍ لها بضميمة علامة الريب والتزييف ض.

امضي إلى إخوتي وقولي لهم: إني صاعد إلى آبي الذي هو آبوكم وإلهي الذي هو إلهكم (يوحنا: ٢٠) لا يعني من «الأب» إلّا الخالق مهما أسقطوا مدها أم أثبتوها وكما يؤيّده ثانياً «إلهي وإلهكم».

ذلك! وكما يلوون ألسنتهم بـ«بريكليطوس» التي تعني غاية الحمد:

أحمد ومحمد - فيلفظونها «باراكليطوس»: المسلي، ليحرفوها عن محمد النبي إلى المسلي الروح القدس، و«بريكليطوس» هي المسجَّلة في الأناجيل قبل الإسلام ثم حرفت إلى «باراكليطوس» بعد الإسلام.

ومن ليِّهم في تراجم الكتاب إسقاط «مِقرِبْ» في بشارة سفر التثنية بنبيٍّ اسماعيليٍّ حيث تقول: «نابِيء آقِيم لاهِمْ مِقرِبْ إحِيحِمْ كموشِهْ...»: نبيٌّ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى ثم نرى سائر التراجم كالمتفقة على إسقاط «مِقرِبْ» حيث تقول: «من وسط بني إسرائيل من إخوتهم مثلك - من إخوتك مثلي» ترجمة مرتجفة مريبة رغم وحدة الأصل في «مِقرِبْ» تنحية لهذه البشارة عن النبي الإسماعيلي الذي بعث من أقرباء أخيهم، فـ«أخيهم» هو بنو عيص كما في (تث ٢٨: ٨) وأمر القوم وقل لهم إنكم لحدِّ إخوانكم بني عيص» وأقرباء بني عيص هم بنو إسماعيل، فإن عيص نفسه كان صهراً لإسماعيل(١).

ومن ليِّهم ترجمة «بِمْئُدْ مِئُدْ شِنيم عاسار نسيئيم يُولِدْ...»: بمحمد واثني عشر إماماً يلدهم - حيث ترجموها بـ«الكثير جداً واثني عشر رئيساً»(٢).

هذه وأشباهها كما تجد قسماً منها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ٣٣ - ٣٩.

(٢) المصدر ٤٠ - ٤٣.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

لقد نزلت هذه الآية في خِضَّمِ الحوار مع نصارى نجران حين سئل: «أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم، فقال رجل من أهل نجران نصراني: أو ذاك تريده هنا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبُدَ غير الله أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني»(١).

وكما قال له رجل: «يا رسول الله ﷺ نسلِّمُ عليك كما يُسلِّم بعضُنا على بعضٍ أفلا نسجُدُ لك؟ قال: لا ولكن أكرموا نبيَّكم واعرفوا الحق لأهله فإنه لا ينبغي أن يُسجد لأحدٍ من دون الله فأنزل الله هذه الآية(٢)، وقال ﷺ: لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً»(٣).

وهنا ﴿مَا كَانَ﴾ تنفي عن أعماق الزمان بمثلثه الدعوة المعاكسة لتوحيد الله لرسل الله وأنبيائِه، أن يرتقوا زوراً وغروراً عن الرسالة الإلهية إلى الإلهية

---

(١) الدر المنثور ١: ٤٦ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد...

(٢) المصدر أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال بلغني أن رجلاً قال يا رسول الله ﷺ:...

(٣) نور الثقلين ١: ٣٥٧ في عيون الأخبار في حديث سلسلة الذهب قال المأمون: يا أبا الحسن عليه السلام بلغني أن قوماً يغلون فيكم ويتجاوزون فيكم الحد فقال الرضا عليه السلام حدثني أبي - إلى - قال قال رسول الله ﷺ: ... قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ [آل عِمرَان: ٧٩] وقال علي عليه السلام: يهلك فيّ اثنان ولا ذنب لي مفرط ومبغض مفرط وإنا لبراء إلى الله تعالى ممن يغلو فينا فرفعنا فوق حدنا كبراءة عيسى ابن مريم عليه السلام من النصارى.

نفسها، نفياً في استحالة ذات بعدين، أن يبعث الله من يحاده في ألوهيته، وأن يتبدل المألوه إلهاً.

وليست ﴿لِبَشَرٍ﴾ هنا تختص النفي ببشر، وإنما لأن المدّعى ألوهيته هنا بشر، وإن البشر - وهو في أحسن تقويم - إذا لم يصلح له أن يكون معبوداً من دون الله فبأحرى من دونه من سائر الخلق، ثم الآية التالية لها تنفي بوجه عام الألوهية عما سوى الله.

وهنا ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ... ثُمَّ يَقُولَ﴾ دون «أن آتاه الله ثم قال» مما يؤكِّد الاستحالة في بعديها، إن ليس الله يبعث من يتخلف هكذا عن رسالة، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[١] وليست تتبدل الرسالة إلى المرسِل نفسه.

و«الكتاب» هنا هو كتاب الوحي ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ هو الحُكم الرسالي بالكتاب، فقد أوتي المرسل إليهم الكتاب ولم يُؤتوا الحُكم الرسالي بالكتاب، ومن ثم «النبوّة» هي الرفعة بين المرسلين بالكتاب، فهي المرحلة القمة الرسالية مهما كانت درجات.

ولقد بلغت دركة الدعاية الثالوثية لحدٍّ يستجوب الله فيها المسيح عليه السلام البريء فيُجيب: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ... مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ...﴾[٢] و﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[٣].

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

إن المعرفة البسيطة بالله تمنع العارف عن دعوى الألوهية، فضلاً عمن يؤتى الكتاب والحكمة والنبوة، فإنها تحكِّم عرى العبودية، إذ ليست واردة إلّا مورد العبودية القمة.

﴿مَا كَانَ... ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾: منتسبين إلى الربِّ بمعرفة غالية وعبودية عالية كما نحن المرسلين، نحن بـ ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ثم أنتم ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فعلم الكتاب الرسالي وتعليمه يجعلكم ربانيين بعيدين عن الدعاوى الخاوية الشركية.

فالربَّانيون هم القادة الروحيون، الحاملون لدعوات الرسل بين المرسل إليهم، وهم هنا «الناس» المعنيون ببازغ الدعوة ومنطلَقها، حيث يتربون في حجر الوحي الرسالي، معرفياً وعملياً ثم يربُّون الناس كما تربوا.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿يَأْمُرَكُمْ﴾ منصوب عطفاً على ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾: ما كان لبشر... «ولا أن يأمركم» ذلك البشر، ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ النبي ﴿بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أو ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾ الله بالكفر بتلك الرسالة المضادة ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

فكلما تبلغ النبوة ذروة عُليا يبلغ النبي إلى عبودية أسمى، ولئن استحق المسيح عليه السلام أن يدعو لنفسه لكرامته على الله، فليبلِّغ إمامه وإمام المرسلين: محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإمامة على الله!.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

آية غُرة ترفع من شأن خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم إلى أعلى القمم التي لا تُساوى

أو تُسامى حيث تحمّله - وهو آخر النبيين - المجيء إليهم كلهم برسالته القدسية.

هنا زوايا أربع لذلك الميثاق، آخذه وهو الله، والمأخوذ منهم وهم النبيّون فلا ذكر لأُممهم حتى يكونوا هم المعنيين، والمأخوذ له: ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وأصل الميثاق: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ وفي أخرى ميثاق آخر غليظ على النبيين ومعهم خاتمهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾[1] فالميثاقان إذاً مختلفان كل ينصبّ في مصبٍّ غير الآخر.

صحيح أن ﴿مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أدبياً كما يتحمل كونه من إضافة المصدر إلى المفعول كما ذكرناه كذلك إضافة إلى الفاعل ليكون ذلك الميثاق للنبيين على أُممهم، ولكنه معنوياً هنا لا يناسب إلّا الأول لمكان ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ حيث المخاطبون فيهما هم النبيون إذ لا خبر هنا عن أممهم، فقد أخذ الله الميثاق من النبيين عليهم لرسول جاءهم بعدهم مصدق لما معهم.

فذلك - إذاً - ميثاق رسالي لصالح الرسالة الأخيرة المحمدية إيماناً به سلفاً ونصرةً له ولمّا يولد ويُبعث في ظاهر حاله.

وترى «إذ» تعني زمناً واحداً جمع فيه النبيون لمجمع واحد لأخذ ذلك الميثاق منهم عليهم؟ قد يجوز فيما لا نحيط به علماً[2] لكن المفهوم لدينا المعلوم عندنا أن زمن ذلك الميثاق موزَّع على زمن النبيِّين كلٌّ لحده.

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧، ٨.

(٢) البحار ١٥: ٢٢ - ٣٦ السرائر عن أبي الحسن الأول عليه السلام يقول: خلق الله الأنبياء والأوصياء يوم الجمعة وهو اليوم الذي أخذ الله ميثاقهم، وقال: خلقنا نحن وشيعتنا من طينة مخزونة لا يشذّ عنا شاذّ إلى يوم القيامة.

ثم وذلك الزمن الموزَّع لذلك الميثاق هو ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم. . .﴾ ميثاقاً عشيراً لإتيانهم كتاباً وحكمة.

وقد يحتمل أن «إذ» تعني زمن خلق كلٍّ من النبيين أن فطرهم الله على ذلك الميثاق، ولكن ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ موضوعاً لأخذ الميثاق يبعد ميثاق الفطرة المأخوذة منذ خلقهم لا منذ نبواتهم، ثم ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ يبعده ثانياً حيث الفطري رسالياً أم خلقياً لا يتخلف.

وقد يقال إن مصير الإقرار هنا هو مصير الإقرار بالتوحيد في آية الذَّر حيث تعني ميثاق الفطرة على التوحيد، ثم ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ غير صريحة أن ذلك الميثاق أخذ عليهم منذ النبوة، فقد يجوز أنه مأخوذ عليهم منذ خلقهم.

ولكن تلك الفطرة الخاصة بالنبيِّين لا يعبر عنها بأخذ الميثاق، لكنه لا بأس بكونه ضمن المعني من أخذ الميثاق عليهم حين نبواتهم تأكيداً لما أخذ عليهم حين خلقهم.

إذاً فكما الله فطر الناس على توحيده منذ خلقهم، كذلك فطر النبيين على الإيمان بمحمد ﷺ ونصرته.

أم تعني «إذ» مربع الزمان، قبل خلقهم في أرواحهم حيث كانوا أنواراً روحية، وعند خلقهم وقبل نبوّاتهم وعندها، ميثاق وثيق رفيق عريق مأخوذ عليهم في هذه المواطن الأربعة!.

أترى ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾ تعني كلّ رسول يتلو نبياً منهم، فهم - إذاً - كل الرسل، أخذ الميثاق على كل نبي سبقه أن يؤمن به وينصره؟.

و﴿رَسُولٞ﴾ بإفراده أمام جمعية النبيِّين لا يُناسب جمعية الرسل! ثم وكيف يُؤخذ ميثاق الإيمان من كلِّ نبيٍّ لكلِّ رسول والنبوّة أعلى محتداً من الرسالة، إلّا أن يكون الرسول مرسلاً إلى النبيين فهم كأُمته مهما كانوا قبله،

ومن ثم ليس قضية الرسالة أن يأتي كلّ رسول تلو سابقه، بل وكذلك النبيون اللّهم إلّا أولي العزم منهم.

ثم التعبير الواضح الفاصح عن تتالي الرسل «ثم جاء كلاً منكم رسول مصدق له» دون ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ بل «فجاء» دون «ثم» حيث الرسل كانوا تترى دون فصل، كلّ هذه وأشباهها ممّا تبعد جمعية الأبدال في ﴿رَسُولٌ﴾ بل وتحيلها.

هنا مادة الميثاق ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ هي مُنقطع النظير عن كلِّ بشيرٍ ونذيرٍ، إلّا من يكون رسولاً إلى الرسل وإماماً في جموع النبيين.

نجد ﴿ءَامَنَ مَعَهُۥ﴾ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ من نبي لنبي، ثم ولا نجد ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ إلّا هنا ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ وبذلك التأكد الأكيد.

صحيح أن على كلِّ رسولٍ سابقٍ تصديق اللاحق، وعلى كلِّ لاحقٍ تصديق السابق، وأما الإيمان به فلا يصح إلَّا لمن هو إمام النبيين ورسول إلى المرسلين كما هنا.

وهنا ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمعاً محلى باللام تعني مستغرق النبوات، فلا تعني بعضاً دون بعض، ولا كلّ الرسل إلّا بطريقة أولى، فإنما ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وهم أولو النُّبوة والرفعة بين المرسلين ومن نَبْوتهم ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾[1] [2] وليس كلّ رسول يأتيه كتاب مهما أتته حكمة، فكما أن أولي العزم من الرسل خمسة، كذلك النبيون منهم وهم أصحاب كتب الوحي ليسوا إلّا قسماً من المرسلين، فهم الأخصاء المتميزون بين المرسلين.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) اللام في «لما» للتأكيد و«ما» بمعنى الذي وصلته ﴿ءَاتَيْتُكُم...﴾ والجملة ظرف تحمل الحكمة الحكيمة لـ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ...﴾ وقد يحتمل أن اللام للقسم توطئة لبيان حكمة مادة الميثاق، واللام في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ جواب القسم.

وهنا ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ﴾ لها دور العناية بختم الرسالة الإلهية - العظمى - وإنها موجهة إلى النبيين سلفاً كما وجهت إلى أُمة الإسلام الأخيرة خَلفاً.

وفي ﴿رَسُولٌ﴾ هنا رغم نبوّته العُليا، عناية خاصة إلى رسالته الروحية الواسعة إلى كافة النبيِّين قبله، والرسول إلى النبيِّين هو - بطبيعة الحال - يفوقهم رسالة ونبوة.

ف «جاءكم نبي» لا تعني رسالته إليهم، وإنما مجيء نبي قد يعني التزاور بينهم ولكن ﴿جَآءَكُمۡ رَسُولٌ﴾ هو مجيئه بالرسالة الإلهية إليهم.

فموقف الرسالة هو حمل الوحي ببلاغ الدعوة الرسالية كما هنا إلى النبيين وفي غيرها إلى سائر الأُمم الرِّساليين.

وموقف النبوة هو بيان محتد الرسول النبي في نفسه أو بين المرسلين.

و﴿جَآءَكُمۡ رَسُولٌ﴾ تضم الموقفين، أصالة في رسالته إليهم، ولمحةً بمحتد هذه الرسالة السامية أنها إلى النبيين، فهو فائق على كافة الرسالات والنبوات.

ونرى القرآن يعبر بـ«الرسول - الرسل» في موقف البلاغ إلى المرسل إليهم، وقد يعبر بـ«النبي - النبيِّين» في موقفهم الذاتي شخصياً أم بين المرسلين.

والرسالة قد تكون إلى مرسل إليهم عاديين فرسالة عادية، أم وإلى رسل غير نبيين فأنبى وأعلى، أم وإلى نبيين غير أولي العزم وهي الرسالة العليا مختصة بأولي العزم من الرسل، أم وإلى أولي العزم وهي فوق العليا وهي التي تعنيها ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾.

ف «جاءكم نبي» تثبت فقط نبوته مهما كانت فوق رسالة، ولكنها لا تثبت رسالة إليهم، وهي تثبت إمامته الرسالية على النبيين أجمعين.

فالروح الرسالية المحمدية محلقة على كلّ الأرواح الرسالية قبل خلقها في الجسد، وهي محلقة عليها بعد خلقها في الجسد وبعثها لرسالتها الختمية.

ومن ميزات هذه الرسالة إلى النبيين واجب الإيمان به ونصرته كشرط أصيل لإيتائهم كتبهم، وكما منها رسالته لبلاغ الدين ككلٍّ مهما اختلفت شرائعهم مع بعض البعض ومع شريعته، ومنها زَرق الروح البلاغي استقامة لهم كما أمِر، وتضحية في الدعوة كما له وعلى أضوائه القدسية.

و﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ تعني تصديق رسالاتهم بكتاباتهم، فلولا تصديقه لما معهم لما صدقت رسالاتهم، كما أن ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ دليل خاتمية الرسالية العليا، وآية ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1] دليل خاتمية النبوة له، فهو - إذاً - خاتم النبيين والمرسلين على الإطلاق.

وإن خاتميته هي لزام نبوته الرسالية، فنكرانها - إذاً - نكران لرسالته.

ترى ومتى ﴿رَسُولٌ﴾ هذا الرسول الأخير وهو الجاني بعدما مضوا وقضوا برسالاتهم.

﴿جَآءَكُمْ﴾ هنا تطوي الطول التاريخي الرسالي وعرضه الجغرافي، تغاضياً عن فواصل الزمان والمكان، بياناً لمحتد الرسالة الأخيرة أنها لا تحض الأمة الأخيرة، بل وتشمل بروحيتها العالية كافة النبيين، ولأنهم بكتبهم وحِكَمهم تقْدِمات لقرآن محمد ومحمد القرآن حيث يهيمنان على النبيين بكتاباتهم، «أما علمت أن الله تبارك وتعالى بعث رسول الله ﷺ وهو روح إلى الأنبياء عليهم السلام وهم أرواح قبل خلق الخلق...»[2] مهما جاءهم

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) البحار ١٥ : ١٤ ح ١٧ بسند متصل عن المفضل قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام : يا مفضل أما علمت... بألفي عام؟ قلت: بلى، قال: أما علمت أنه دعاهم إلى توحيد الله وطاعته =

برسالته إليهم بعدهم مبعثاً، فهو على حدّ قوله ﷺ: أوّل النبيين ميثاقاً وآخرهم مبعثاً.

= واتباع أمره ووعدهم الجنة على ذلك وأوعد من خالف ما أجابوا إليه وأنكره النار؟ فقلت: بلى - الخبر..

وفيه ١٥ ح ١٩ بسند متصل عن ابن نباتة قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا إني عبد الله وأخو رسوله وصديقه الأوّل قد صدقته وآدم بين الروح والجسد ثم إني صديقه الأوّل في أُمتكم حقاً فنحن الأوّلون ونحن الآخرون الخبر.

وفيه ح ٢٠ عن ابن سنان قال قال أبو عبد الله عليه السلام: أوّل من سبق من الرسل إلى «بلى» رسول الله ﷺ وذلك أنه كان أقرب الخلق إلى الله تبارك وتعالى.

وفيه ح ٢١ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن بعض قريش قال لرسول الله ﷺ: بأي شيء سبقت الأنبياء وفضّلت عليهم وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ قال: إني كنت أوّل من أقرّ بربي جلّ جلاله وأوّل من أجاب حيث أخذ الله ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى فكنت أوّل نبي قال «بلى» فسبقتهم إلى الإقرار بالله عزّ وجلّ.

وفيه ص ١٨ - ح ٢٨ عن مرازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال الله تبارك وتعالى: يا محمد إني خلقتك وعلياً نوراً - يعني روحاً - بلا بدن قبل أن أخلق سماواتي وأرضي وعرشي وبحري فلم تزل تهللني وتمجدني ثم جمعت روحيكما فجعلتهما واحدة فكانت تمجّدني وتقدّسني وتهلّلني ثم قسمتها ثنتين وقسمت الثنتين ثنتين فصارت أربعة محمد واحد وعلي واحد والحسن والحسين ثنتان ثم خلق الله فاطمة من نور ابتدأها روحاً بلا بدن ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا.

وفيه ٢١: ٣٤ كتاب فضائل الشيعة بإسناده إلى أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ أقبل إليه رجل فقال: يا رسول الله ﷺ أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] فمن هم يا رسول الله ﷺ الذين هم أعلى من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا وعلي وفاطمة والحسن والحسين كنا في سرادق العرش نُسبّح الله وتُسبِّح الملائكة بتسبيحنا قبل أن يخلق الله عزّ وجلّ آدم بألفي عام فلما خلق الله عزّ وجلّ آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له ولم يأمرنا بالسجود فسجدت الملائكة كلهم إلّا إبليس فإنه أبى أن يسجد فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾، أي من هؤلاء الخمسة المكتوب أسماءهم في سرادق العرش.

وفيه ٢٣ - ٣٩ عن أبي حمزة قال سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إن الله عزّ وجلّ خلق محمداً ﷺ وعلياً والأئمة الأحد عشر عليهم السلام من نور عظمته أرواحاً في ضياء نوره يعبدونه قبل خلق الخلق يسبّحون الله عزّ وجلّ ويقدسونه وهم الأئمة الهادية من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين. =

ذلك، ولكن الآية ليست لتعني الإيمان به والنصرة له قبل خلقهم في الجسد، إذ لم تكن لهم حينذاك كتب ولا نبوات ولا أنه إذا جاء بعدهم، فإنه خلق قبلهم.

إنما تعني الإيمان والنصرة ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ طياً لطول الزمان فعليهم أن يؤمنوا كلٌّ في زمنه بهذا الرسول وينصروه، كما عليهم ذلك الإصر عند الرجعة.

= وفيه ٢٣ - ٤٠ عن الصادق عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى خلق أربعة عشر نوراً قبل خلق الخلق بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا فقيل له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن الأربعة عشر؟ فقال: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين آخرهم القائم الذي يقوم بعد غيبته فيقتل الدجال ويطهر الأرض من كلّ جورٍ وظلم.

وفيه ٣٢ - ٤١ عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا جابر كان الله ولا شيء غيره لا معلوم ولا مجهول فأول ما ابتدأ من خلقه أن خلق محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وخلقنا أهل البيت معه من نور عظمته فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان ولا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر الخبر.

وفيه ح ٤٣ عن جابر بن عبد الله قال قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أول شيء خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كلَّ خير، وعن جابر أيضاً قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أول ما خلق الله نوري ابتدعه من نوره واشتقه من جلال عظمته.

وفيه ح ٤٥ عن المفضل قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف كنتم حيث كنتم في الأظلة؟ فقال: يا مفضل كنا عند ربنا ليس أحد غيرنا في ظلة خضراء نسبحه ونقدّسه ونهلّله ونمجده وما من ملك مقرب ولا ذي روح غيرنا حتى بدا له في خلق الأشياء فخلق ما شاء كيف شاء من الملائكة وغيرهم ثم أنهى علم ذلك إلينا.

وفيه ح ٤٦ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله كان إذ لا كان فخلق الكان والمكان وخلق نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار وأجرى فيه من نوره الذي نورت منه الأنوار وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً فلم يزالا نورين أولين إذ لا شيء كوّن قبلهما فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهرين في عبد الله وأبي طالب عليهما السلام.

وفيه ح ٤٧ عن جابر بن يزيد قال قال لي أبو جعفر عليه السلام: يا جابر إن الله أوّل ما خلق خلق محمداً وعترته الهُداة المهتدين فكانوا أشباح نور بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظلّ النور، أبدان نورانية بلا أرواح وكان مؤيداً بروح واحد هي روح القدس كان يعبد الله....

ففي مربع فرض الإيمان والنصرة كمحتملات، لا تدخل في نطاق الآية إلّا ما بعد خلقهم في الجسد.

وتلك الهيمنة الكبرى من قضيتها الإيمان السابق والنصر من كافة النبيين لصاحب هذه الرسالة السامية.

ولقد لمحت أو صرحت آيات عدة بهذه الهيمنة لذلك الرسول كآية الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾[1].

حيث اعتبر الوحي إلى الأربعة الآخرين من أولي العزم وصية إمام الوحي إلى إمامهم محمد ﷺ لأن كتاباتهم تحمل - كأصل - توصيات لهذه الرسالة الأخيرة، مهما حملت شرائع موقّتة لأُمم مضت قبلها.

ذلك وكما نرى «رسولنا» في آياتها الأربع و«رسوله» في الأربع والثمانين، تعنيان هذا الرسول وكأنه هو الرسول لا سواه، مهما شملت جمعية الصيغة الرسالية كل الرسل.

وكما نرى - وبأحرى - «النبي» معرفاً تختص في عديدها الواحد والأربعين بهذا النبي لا سواه.

وليس ذلك الإفراد في الرسول والنبي لهذا الرسول النبي صدفة غير مقصودة، بل هو مقصود لبيان محتده الفريد بين كافة الرسل والنبيين.

ففي مُثّلثِ الوحي والرسالة والنبوة محمد ﷺ هو الأصل والكلُّ فروعه، وكأن الوحي إليه هو الوحي فقط إذا قورن بسواه كما في آية الشورى، وإن الرسالة والنبوة تخصانه كما في كل الآيات التي أتت بهما بإفراد.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

ولقد خُصّت الرسالة المحمدية بميِّزات بين كافة الرسل وعلى حدِّ قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» فكينونات الرسالة المحمدية أربع لا يشترك سائر الرسل إلَّا في أُولاها وهي الكينونة الرسالية في علم الله، دون الثلاثة الأخرى وهي كيان الإيمان به ونصرته بالتبشير به قبل خلقه وبعثه، وكيان رسالته في الأرواح الرسالية كرأس الزاوية، وكيان الإيمان به ونصرته في رجعته.

وقد نحتمل أن روحه الرسالية كانت مخلوقة قبل الرسل كلهم، انبعاثاً إليهم فقط دون سائر المكلفين، وقد يعنيه المروي عنه ﷺ في جواب السؤال: متى نبئت؟ نبئت وآدم بين الماء والطين - وآدم مجندل في التراب و....

فقد كانت الروح الرسالية المحمدية مشرفة في واقعها - كما يعلم الله - على أرواح النبيين أجمع، هيمنة عليهم وسياجاً لهم عن أية تبعثرات في رسالاتهم.

وآية الميثاق هذه تذكر من ميزات هذا الرسول النبي أنه خاتمهم ومصدقهم والرسول إليهم فعليهم ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ لَتُؤْمِنُنَّ... وَحِكْمَةٍ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ - ثم يأخذ منهم الإقرار بما أخذ عليهم ميثاقه: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ إقراراً بهذه الرسالة الختمية والإيمان به ونصرته، وأخذاً بكامل القوات ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ العظيم العظيم، الثقيل الثقيل ﴿إِصْرِى﴾ إصراً في مثلث التصديق والإيمان والنصرة ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ إقراراً - بطبيعة الحال - شاملاً لأخذ الإصر ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا۟﴾ على ما أقررتم ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

والإصر - ككُلّ - هو الحمل الثقيل على الآصر وكما ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ

عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[١] ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

وترى لو أنَّ الإصر موضوع عن الأمة المرحومة رحمة عليهم كما في آيته فكيف يحمّله النبيون أجمعون وهم أحرى بوضع الإصر عنهم، ثم كيف يُصبح واضع الإصر عن أمته إصراً على زملائه النبيين؟!.

الإصر لغوياً هو عقدُ الشيء وحبسه بقهره كمأصر السفينة الذي يحبسها بقهر عن تفلُّتها، ولكنه قد يكون عقداً وحبساً بشرٍّ أو ما لا طاقة به كما في آيتيه، وأخرى بخير وهو يطاق، وهكذا يكون إصر الإقرار بالتصديق والإيمان بمحمد ﷺ لهم ونصرته، فإنه يحلِّق على كلِّ حياتهم الرسالية أن يكرِّسوها - فيما يكرَّس - للتعريف والبشارة بهذه الرسالة السامية، فذلك - إذاً - إصر في حِملِه على النبيين، وإصر في حملِ أُممهم على التصديق به!.

فالإصر والإصار هما الطُنب والأوتاد التي يعمد بها البيت، والرسالة المحمدية هي عماد كلّ بيوتات الرسالات، لولاها لما قام لها عمود، ولولا زندها لما كان لها وَقود.

وقد يصعب - بطبيعة الحال - لكلِّ نبي أن يعرف نفسه بين أمته أنه - كما هم - من أمة رسول يأتي بعدهم كلهم، وكما يصعب على الأمم أن يسمعوا منهم ويصغوا كأن رسلهم ليسوا أصلاء في رسالاتهم، بل هم مبشرون بهذه الرسالة.

ويصعب في الأجواء المتعنتة التي لا تقبل الرسالات التي تعيشها، أن تبشّر بالرسالة الأخيرة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

ثم ويصعب الإيمان به ونصرته على طول الخطّ، قبل أن يجيئَهم بما يبشرون ويوطئون لمجيئه، وبعد مجيئِه أن يحشروا لحاضر الإيمان به ونصرته.

تلك صعوبات وصعوبات يعبر عنها هنا بـ«إصري» الحِمل الرباني على كواهل النبيين في مثلث تصديقه والإيمان به ونصرته.

وهنا تنحل مشكلة «ثم جاءكم - لتؤمنن به - ولتنصرنه» كيف جاءهم ثم كيف ينصرونه وقد قضوا نحبهم قبله؟.

فإنه «جاءَهم» في الروح الرسالي تاماً وطاماً، ما ينير عليهم دروب الرسالات بما عرفهم ربهم به في الشبح الروحي والقمة الرسالية، كما «جاءهم» يوم الرجعة فقد يرجع بعدهم كلهم، رسولاً إليهم، فهم - إذاً - من أمته الرسميين.

و«جاءهم» فيما بشّروا به كأنه الحاضر أمامهم وهو إمامُهم، فليبشروا به أممهم وأنهم من أمته[1].

و«جاءهم» وقد قضوا نحبهم إلّا مسيحهم، فليؤمنوا به بعد موتهم كما آمنوا به قبله ولينصروه.

و«جاءهم» في الرجعة المهدوية حيث يرجع الرسول ﷺ وعترته المعصومون والنبيون كلهم راجعون أعضاداً لدولة الحق الأخيرة[2].

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٥٩ عن المجمع وروي عن علي عليه السلام أن الله تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبيّنا ﷺ أن يخبروا أُممهم بمبعثه ونعته يبشروهم به ويأمروهم بتصديقه.

(٢) المصدر العياشي عن فيض بن أبي شيبة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول - وتلا هذه الآية -: قال ولتؤمنن برسول الله ولتنصرن أمير المؤمنين، قلت: ولتنصرن أمير المؤمنين؟ قال: نعم من آدم فهلم جراً ولا يبعث الله نبياً ولا رسولاً إلّا ردّ إلى الدنيا حتى يقاتل بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام.

وفيه عن سلام المستنير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لقد تسمّوا باسمِ ما سمّى الله به أحداً إلّا=

ومن ثمَّ ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ لها بُعد الجمعية والإفراد: ثم جاء كل واحد منكم حين يتنبَّأ فرداً فرداً، ومن ثم جاءكم ككل بعد انقضاء النبوات بأسرها، وتقييد مجيئه إياهم فيما يروى بـ«لئن بعث وهو حي» تفسير بمصداق له مختلف فيه وهو زمن الرجعة[1].

فذلك - إذاً - إيمان متواصل به ونصرته في هذه المسارح كلها، لم يسبق له نظير ولن، لكل بشير ونذير.

ولقد نرى بشارات له تترى في كتابات الوحي على تحرُّفها ولا سيّما في تلك البشارات! نراها بعشرات وعشرات هي عشيرات للوحي الرسالي على طول الخطّ، فيها نبرات الإيمان والنصرة من النبيين لهذا النبي العظيم، نذكر قسماً منها بطيّات آيات تناسبها، وقد جمعناها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

فلقد أخذ الله تعالى ميثاقاً رهيباً عجيباً شهده هو وأشهد عليه أنبياءه، طيّاً لكلِّ الفواصل زمانياً ومكانياً بين النبيين المتتابعين في مختلف الأزمنة والأمكنة، يجمعهم في ذلك المسرح الصارح الصارخ وهو يُخاطبهم ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ... قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا...﴾.

= علي بن أبي طالب عليه السلام وما جاء تأويله، قلت: جعلت فداك متى يجيء تأويله؟ قال: إذا جاءت جمع الله إمامة النبيين والمؤمنين حتى ينصرونه وهو قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ [آل عِمرَان: ٨١] فيومئذ يدفع راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللواء إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فيكون أمير الخلائق كلهم أجمعين، يكون الخلائق كلهم تحت لوائه ويكون هو أميرهم فهذا تأويله.

أقول: وذلك من الجري والتأويل كما في نفس الحديث، فعلي عليه السلام هو ممثل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الرجعة كما هو قبلها.

(١) الدر المنثور ١: ٤٧ - أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لم يبعث الله نبياً آدم فمن بعده إلّا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا هذه الآية.

ذلك المشهد الهائل الجليل يرسمه ذلك التعبير العبير، فيجفّ له القلب، وليتذكر السامعون.

وهنالك ﴿إِصْرِيۖ﴾ لمكان العصبية الذاتية، لشخص الرسول رسالياً ولقومه قومياً وعنصرياً، والاتباع ككل نحلة لهم، أماذا من عصبيات، تراها كلها تنحني وتنمحي أمام ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ تناكراً لكل الآصار: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ لدي ولدي أممكم[١] ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لدى الكل.

فذلك المجيء هو غير متعوّد المجيء بين المرسلين، فإنه المجيء في كلِّ حقوله، رسالياً ورسولياً: إيماناً به في الروح قبل مجيئه في الجسم، وهذا ما يعنيه الجائي نفسه في قوله: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» فلا يعني نبوته في علم الله إذ تعمّ سائر النبيين، بل نبوّته في قسم عظيم من لزاماتها وأهمها الإيمان به، والميثاق للإيمان والنصرة له وكما يروى عنه «أنا أول النبيين ميثاقاً وآخرهم مبعثاً»[٢].

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن خاتميته في رسالته ونبوته ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق المؤكد الجمعي ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لو كانوا من هؤلاء النبيين ولن - وليس هنا «منهم» حتى يختصهم التولي - أو كانوا ممن يدعون نبوة قبله أو بعده، أم كانوا من الأمم المبشَّرة بتلك الرسالة الختمية.

ذلك، فحتى ولو كانوا من النبيين، فكما لا تصدق نبواتهم إلّا بختمِ

(١) الدر المنثور ٢: ٤٨ - أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم فمن تولى عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم فأولئك هم الفاسقون هم العاصون في الكفر.

(٢) راجع لتفصيل هذه الروايات إلى آية ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] في الأحزاب.

وتوقيعٍ من خاتم النبيين، كذلك لا يؤتَون كتاباً وحكمة إلّا شريطة الإيمان به ونصرته.

ذلك! فضلاً عن المرسل إليهم، فقد انضم النبيون كلّهم بأُممهم إلى موكب هذه الرسالة السامية رسالة واحدة إلى أمة واحدة، كما وأن الرسالات واحدة إلى أُمة واحدة: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾[١].

ولو أن ميثاق الإيمان والنصر كان - فقط - بين النبيِّين أنفسهم، كلٌّ لاحق لسابقه، لم يكن لذلك التهديد دور، فإنما تهدد هنا الأُمم الناكرة لخاتم الرسل ﷺ.

ولو أن ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ كان ميثاقاً لهم على أُممهم لكان صحيح التعبير «ميثاقاً للنبيين على أممهم» أما لو عنى من الخطاب في ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ﴾ الأمم، لأتى بذكرهم وإن مرة يتيمة!.

فالرواية الهارفة الخارفة إن اقرؤوها: «وإذ أخذ الله ميثاق أُمم النبيين»[٢]

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

(٢) نور الثقلين ١: ٣٥٨ في تفسير العياشي عن حبيب السجستاني قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ...﴾ [آل عِمرَان: ٨١] فكيف يؤمن موسى بعيسى وينصره ولم يدركه وكيف يؤمن عيسى بمحمد ﷺ وينصره ولم يدركه؟ فقال: يا حبيب إن القرآن قد طرح منه آي كثيرة ولم يزد فيه إلّا حروف أخطأت بها الكتبة وتوهمتها الرجال وهذا وهم فاقرأوها «وإذا أخذ الله ميثاق أمم النبيين..» هكذا أنزلها الله يا حبيب فوالله ما وفت أمة من الأمم التي كانت قبل موسى بما أخذه الله عليها من الميثاق لكل نبي بعثه الله بعد نبيها.

أقول: لقد أخطأ الراوي في فهم ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: ٨١] زعماً منه أن ﴿رَسُولٌ﴾ هو كل رسول بعد رسول، ثم أخطأ في الفرية على باقر العلوم في «قد طرح منه آي كثيرة» وهو خلاف العصمة الربانية للقرآن ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩]، ثم لم يزد في «لم يزد فيه إلا حروف» إلّا أن القرآن الموجود كله حروف أخطأت بها الكتبة وتوهمتها الرجال، فبُعداً للقوم الظالمين المختلقين هذه الروايات الزور والغرور!.

هي صادرة من مصدر الجهالة والحماقة، ممن لا يعرف معاني كلام الله ومغازيه فيتورط في ورطةِ التحريف والتجديف!.

ذلك الدين الشرعة الذي يحمله خاتم النبيين هو الدين كله وليس ما سبقته من شرعة إلّا شرعة من ذلك الدين:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ هو طاعته بمختلف شكليات الشرائع الخمس، وفي كلّ بأشكال مختلفة الظاهر، والكلّ تتوحد في أنها ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته، فالذي يبغى دين الله عليه أن يبغي شُرعته المتشرعة منه كما يشاء، دون إخلاد إلى شرعة أَلِفها، وتصلب عليها نكراناً لشرعة تلحقها.

والمُكلَّف هو بطبيعة الحال يبتغي ديناً وطاعة إمَّا للرحمن أو الشيطان أم نفاق بينهما عوان، فالذي يدعي الإيمان، عليه أن يبتغي دين الله واصباً لأنه دين الله، لا لأنه أَلِفه هو وآباؤه الأوّلون، فالمبتغي دين الله هو في سبيل الحق ولمّا يصل فإنه شكٌّ مقدس يتحرّى فيه الشاكّ عن دين اليقين، والراسب على شُرعة منسوخة دون تحرٍّ عن ناسخها أو تجرٍّ عليه هو على دين غير مقدس، فإنما ابتغاء دين الله هو الصالح بجنب الله لا سواه مهما تقشف وتزهد في شرعة منسوخة مضى دورها.

فـ ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ هو طاعته بمعرفته، خالصة غير خليطة بسائر الطاعة، إذاً ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ من طاعة لما سوى الله، إلحاداً في الله أو إشراكاً بالله، فالكافر بالشرعة الأخيرة تثاقلاً على السابقة هو كافرٌ بدين الله، متبّع لهواه، تارك لأمر مولاه، لأنه غير مبتغٍ لدين الله، فإنما يبتغي هواه مهما أظهرها بمظهر شريعة الله!.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ لله ولــديــن الله ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾ هــم

المؤمنون الحقيقيون، إسلاماً لطاعته في كلِّ قليل وجليل ﴿وَكَرْهًا﴾ حيث لا يستطيعون الخروج عن سلطان علمه وقدرته مهما كفروا.

فالإسلام هنا يعمُّ تكوينيَّه إلى تشريعيه وتشريعيه إلى تكوينيه، فهُما يجتمعان في المؤمنين ويفترقان في الكافرين حيث هم مسلمون كَرهاً مهما تركوه طوعاً، ثم والكل ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وقد يعني الإسلام طوعاً بالنسبة للكفار أيضاً حيث أسلمت فِطَرهم بما فطر الله وعقولُهم إن كانوا يعقلون، مهما كفروا بما طغت أهواؤهم، ثم الطَّوع بالنسبة للمؤمنين فيه زيادة اتِّباع أهوائهم لفِطَرهم وعقولهم ووحي الله.

وبوجه عام قد يعني ذلك الإسلام أن القوا إليه السَّلَم - كلهم - بما يظهر من حاجتهم إلى إرفاقه وفقرهم إلى أرزاقه، ونقائصهم التي لا تتمّ إلّا بحسن تدبيره لهم، ونعمه السابغة عليهم، فقد دانوا له طوعاً وكرهاً وَوَلَهوا إليه فقراً وضعفاً.

فالذين أسلموا له هم الملائكة والنبيون، ثم المؤمنون، والذين أسلموا كَرهاً هم إبليس وأشباهه من الجن والإنس وكما قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1] فقد يدلُّ استنظاره على إقرارهِ بأنه مملوكٌ مدبَّر ومصرَّف مسخَّر، وأنه لا يعتصم من الله بمذهب ولا ينجو بمهرب ولا يبقى إلّا أن يُبقيه، ولا يأمن إلّا أن يؤمنه، فهو - إذاً - ممن أسلم في وجه مهما كان في آخر شارداً عن طاعته، ماردأً عن قيادته.

ف ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ هنا طليق يشمل كل مراحل الإسلام تكويناً وتشريعاً، طوعاً وكرهاً بحيث لا يفلت عنه قالت، ولا يفوت عنه فائت.

فكما الإسلام الإيمان هو باكتساب واختيار، كذلك الإسلام التسليم قبل الإيمان كما ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٦.

﴿ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[١] فإسلام التسليم ظاهراً عن جُبْنٍ يشمله ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ مع إمكانية المنعة والحياص، مهما كان سببه الخوف والفَرَق.

وإسلام التسليم طمعاً في الرغائب ومنًى في الفوائد أيضاً إسلام مهما كان سببه الرجاء، وإسلام التسليم حباً لله وفي الله إسلام ولا سبب له إلّا حب الله، وهذه ثلاث كلها الإسلام طوعاً.

ثم الإسلام كَرهاً كمن يسلم نفسه للموت إذا حان حينه ولم يكن له سبب للفرار عنه وما أشبه.

فابتغاءُ غير دين الله انعزال في زاوية بئيسة تعيسة تخالف الفطرة والعقلية السليمة وشرعةَ الحق، وتخلُّف عن موكب الكون ككل، فـ ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[٢] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤].

هذا إسلام لله على مدار الزمن، ومن ثم إسلام في دولة المهدي عليه السلام فإذا قام القائم عليه السلام لا يبقى أرض إلّا نودي فيها بشهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٥].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٩٣-٩٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٤) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٥) نور الثقلين ١: ٣٦٢ العياشي عن رفاعة بن موسى قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في الآية: إذا قام القائم عليه السلام.

وعنه عن ابن بكير قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن الآية قال: أنزلت في القائم عليه السلام إذا خرج باليهود والنصارى والصابئين والزنادقة وأهل الردة والكفار في شرق الأرض وغربها فعرض عليهم الإسلام فمن أسلم طوعاً أمره بالصلاة والزكاة وما يؤمر به المسلم ويجب لله عليه ومن لم يسلم ضرب عنقه حتى لا يبقى في المشارق والمغارب أحد إلّا وحد الله، قلت =

وهُنا طوعاً هو إسلام الإيمان وكرهاً هو إسلام الاستسلام، فلا يبقى - إذاً - مُلْحِدٌ في الله أو مشرِكٌ بالله، مهما بقيت بقية ضئيلة من أهل الكتاب، ولكن ليس لهم دور دائر، فإنهم في دولة المهدي عليه السلام يعيشون تحت ذمة الإسلام، مراعين شروط الذمة بتمامها.

ولأن دين الله بعد نزول القرآن منحصر فيه، منحسر عما سواه، فابتغاء ما سواه محظور حتى في دراسة كتابات الوحي اللهم إلّا مقارنة بينها وبين القرآن، تزييفاً لها بما حرفت وتثبيتاً للقرآن.

لذلك نرى الرسول ﷺ يتغيّر وجهه بما يكتب للخليفة عمر من جوامع التوراة قائلاً: «والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتم إنكم حظّي من الأمم وأنا حظُّكم من النبيين»[1].

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ كما هو خطاب للرسول ﷺ شخصياً كذلك هو خطاب لكلّ

= له: جعلت فداك إن الخلق أكثر من ذلك فقال: إن الله إذا أراد أمراً قلّل الكثير وكثر القليل.
أقول: الإسلام هنا التوحيد ويشهد له «إلّا وحد الله» وكذلك الآيتان في بقاء بقية من اليهود والنصارى إلى يوم القيامة ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ [المائدة: ٦٤] - وأغرينا ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾ [المائدة: ٦٤].

(١) الدر المنثور ٢: ٤٨ - أخرج أحمد عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً فسرى عن رسول الله ﷺ وقال: والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى...
وفيه أخرج أبو يعلى عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حيّاً بين أظهركم ما حلّ له إلّا أن يتبعني.

مكلف بدلياً كـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] وما أشبه، أنه رغم العصبيات الجاهلة والعنصريات والإقليميات القاحلة وتأريخية الشرعة الكتابية وجُغرافيتها الماحلة، يؤمر رسول الهدى أن يعلن حقيقة الإسلام والإيمان، وأنهما لا يُحدَّان بأية حدود إلّا ابتغاء دين الله، فيعلن - إذاً - إيمانه والذين معه بجميع الرسالات، واحترام جميع الرسل، معرفة بطليق دين الله الذي لا يقبل الله من المكلفين سواه، مهما أمر المسلمون الآخرون باتِّباع شرعة القرآن اتّباعاً لأصل الدين كما أمر سائر الأمم قبلها باتِّباع شرائعهم: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ قرآناً وسُنَّة ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كشريعة أصيلة ثانية ثم ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ كاتِّباع للشُرعة الإبراهيمية.

ومن ثم ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ كشريعتين أصيلتين بعد الأوّليين، كما وأن بعد الأربعة ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ - وما أوتي هامشياً - ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ على مدار الزمن الرسالي ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ وقد يعني ما أوتي نوح ضمن ما أوتي النبيون، وعلّ عدم اختصاصه بالذكر لانقطاع الخبر الصادق عما أوتي من صحف.

فذلك هو الإيمان المحلّق على كلِّ كتابات الوحي ورسالاتها ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في الإيمان بهم وأنهم رسل الله، لا يتفرقون في حمل رسالة الله واحدة موحدة في دين الله، لأنهم في موكبهم الرسالي صادرون من مصدر واحد وإلى أمة واحدة، لا يتفرقون في أصول الدين وفروعه، اللهم إلّا طقوساً ظاهرية من فروع أحكامية حسب الحكمة العالية الربانية ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2] ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

وهنا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ قد يعني أخص مما أنزل إليه، إنزالاً دون وسيط كما

(١) سورة الإخلاص، الآية: ١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

في «أنزل معه» فهما يعنيان في سائر القرآن الإنزال الرسالي مهما جاء يتيماً لغير الرسل ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وانزل إليه هو طليقه الشامل للأمة.

وذلك لأن النَّص هنا يعني الرسول كأصل لمكان ﴿قُلْ﴾ مهما شمل الأمة لمكان ﴿ءَامَنَّا﴾.

لذلك ترى في أخرى ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ حيث تعني الأمة مهما عنت الرسل فيما يتلوها: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

ثم «ما أوتي» أعم مما أنزل، حيث الإيتاء يشمل الآيات الكونية لتلك النبوات، المتوفرة لموسى وعيسى ومَن بينهما من النبيين، والإنزال قد يختص بالآيات الكتابية شرعة وآية رسالية، وهكذا تكون الآيات النازلة على محمد ﷺ ثم لا تذكر آية كونية لإبراهيم إلى الأسباط مهما كانت لهم آيات.

أو يُقال ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ والشاملة لهم كلّهم تجمع إلى الآيات النازلة عليهم، الآيات المؤتاة إياهم، فرسولنا العظيم هو الوحيد المنقطع النظير بينهم في أن ما أنزل عليه فيه الكفاية عما يؤتى أي نبي من آيات عينية ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾[2].

ذلك هو الإسلام في سعته لكلِّ الرسالات الإسلامية، وفي الإيمان لكافةِ الرُّسل وكتاباتهم، إذاً فـ:

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾:

فالشرائع الإلهية كلّها إسلام الله بدرجاتها، ولكن لا إسلام بعد الإسلام الأخير، فابتغاءُ ما سواه من شُرعة غابرة منسوخة أو شُرعة مدعاة بعده، إنه ابتغاء لغير الإسلام المرتَضى.

وكيف لا وقد «أرسله بحجَّة كافية وموعظة شافية ودعوة متلاقية، أظهر به الشرائع المجهولة، وقمع به البدع المدخولة، وبيَّن به الأحكام المفصولة، فمن يبتغِ غير الإسلام ديناً تحقق شقوته، وتنفصم عروته، وتعظم كبوته ويكون مآله إلى الحزن الطويل والعذاب الوبيل»[١].

فـ «الإسلام» هنا يخصُّ الإسلام الأخير مورداً وإن كان يعمُّ سائِر الإسلام وارداً، فالنص هنا ﴿وَمَن يَبۡتَغِ﴾ يشمل منذ ذلك الإسلام حتى يوم القيام، وأما سابق الإسلام فقد لا يشمله صيغة الاستقبال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ﴾ مهما كانت كافة الشرائع إسلاماً، اللهم إلّا أن تعني ضابطة ثابتة من القضايا الحقيقية التي تحلِّق على مثلث زمن التكليف، وذلك أشبه بحقِّ الإسلام والإسلام الحق.

ذلك هو الإسلام كما يُريده الله، دون الإسلام الذي تُريده الأهواء المتأرجفة المتفاوتة في أجيالٍ نكدةٍ من الناس النسناس الخناس، ولا كما تصوّره أغلبية أعدائه المتربصين به كل دوائر السوء ليجعلوه اسماً بلا معنى أو رسماً بلا مغزى أو شعاراً بلا شعور أم زاداً - فقط - لأهل القبور!.

بل هو إسلام الله، طليقاً في كافة الحقول الحيوية، فإن لله أحكاماً تحلِّق على كلِّ مُتطلبات الحياة ولزاماتها ورجاجاتها، دونما حاجة إلى أنظمة مختلفة مختلَقة للحياة.

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾

أترى أن الله ﴿يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾؟ أن يهديهم توفيقاً لهم رفيقاً ليتوبوا:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾:

لا تعني الهداية المنفية هنا التشريعية لأنها عامة غير مخصوصةٍ بفريقٍ دون آخرين، ولا التكوينية المسيِّرة لأنها منفية عن القبيلين، إنما هي هداية التوفيق للتوبة وقبولها، فإنها خاصة بالصالحين ثم الضالين المتحرين عن الهدى، فهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾(١).

أفبعد الإيمان بالبينات والشهادة بحق الرسول يكفرون؟ وفي ذلك عنادٌ للحق وتضليلٌ للمؤمنين، وهذا من أظلم الظلم في مثلثه: بأنفسهم وبالحق وبحق الآخرين المتزعزين بذلك الكيد المكين!.

مهما كانت هذه الشهادة أقوى والكفر بعدها أغوى - كما في كفرة أهل الكتاب بعد إيمانهم - كان الارتداد أظلم وأطغى، فالارتداد دركات كما الإيمان درجات.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

﴿لَعْنَةَ﴾ تلبسهم وتغمسهم في الدارين، من الله ألَّا يهديهم سبيل الرشاد، ومن ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ألّا يطلبوا لهم من الله هدى، بل لعناً ويبلاً.

وترى هؤلاء ملائكة الله يلعنونهم بسند إيمانهم وكفر هؤلاء، فكيف يلعنهم ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وفيهم كفار هم سناد وعتاد لهؤلاء الأنكاد؟.

علَّ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يعني جمع الناس إلى الملائكة والملائكة إلى الناس، مهما استُثني عن الناس نسناس، أم وهم كلّ الناس، فالمؤمنون منهم يلعنون بسند الإيمان، والكافرون منهم المتأثِّرون بارتدادهم يستلعنون حيث يُضاعف العذاب لهؤلاء المضلّلين بما ارتدوا عارفين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[1]، وسائر الكفار أيضاً يلعنونهم يوم الدين ويتلاعنون: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[2] ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا...﴾[3] بل ويوم الدنيا حيث يلعنون الضالين مهما حسبوهم أنهم المؤمنون، ولكن اللعنة تجد واقع موردها كما يشاء الله.

وحتى إذا عرفوا أنهم أنفسهم الضالون ولكنهم بتأييدهم الكفار يلعنونهم واقعياً حيث يزدادونهم عتواً ونفوراً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: في ثالوث اللعنة، في نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وكما لا يستزاد، وإنما هو جزاء العدل الوفاق قدر الكفر الواقع، خلوداً يضاهي خلود الكفر ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ حين الحكم بالعذاب فلات حين مناص وقد فات يوم خلاص.

ذلك للذين لم يتوبوا عما ارتدوا ولم يُصلحوا ما أفسدوا بما ارتدوا:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿تَابُواْ﴾ إلى الله ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الارتداد المضلِّل ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما فسد تحت وطأته، إصلاحاً لأنفسهم المارِدة ولأنفس الآخرين الشاردة عن الإيمان بما ارتدوا[4].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.
(٤) الدر المنثور ٢: ٤٩ - أخرج جماعة عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار فأسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين ثم ندم فأرسل إلى قومه أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لي من توبة فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٨٦] - إلى قوله - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩] فأرسل إليه قومه فأسلم.
=

والقدر المعلوم من عدم قبول التوبة هو الموت على الكفر:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾:

فازدياد الكفر بعد الارتداد عن إيمان دليل العناد في اللَّاإيمان فهم المضلِّلون - إذاً - لكتلة الإيمان و﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأكيد الكفر المعاند، المضلل للبسطاء.

وليس يعني ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ - فيما يعنيه - ازدياد الزمان إلى وقت الموت، حيث تتكفله الآية التالية لها.

فكما لا تقبل توبة الكافر حين يموت على كفره، كذلك حين يزداد كُفراً بعد ارتداده، ثم تُقبل توبات الآخرين على شروطها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾:

فاستحالة الملكية لـ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ واستحالة الافتداء به لو مُلك ضنّة بتلك الثروة الهائلة - وقد سُئلوا ما هو أيسر من ذلك فضنوا[1] - ثم وعدم قبولها منهم لو افتدوا، ذلك المثلث من الاستحالة يفسر قدر الإحالة في «لن» فـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ

= أقول: وأخرج جماعة مثله في أشخاص آخرين، وليس مورد النزول وهم كلهم من المرتدين ملياً، بالذي يخصص الآية بنفسه فإنما العبرة بعموم الآية دون خصوص المورد، ولو كان الحكم مختصاً بالمرتد ملياً لاختص به نصاً أو ظاهراً.

(١) المصدر - أخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس عن النبي ﷺ: قال يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم فيقال: لقد سُئلت ما هو أيسر من ذلك وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ [البَقَرَة: ١٦١].

﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

و﴿أُولَئِكَ﴾ الأنكاد البِعاد ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ شفعاء وسواهم - ينفعهم نصرُهم لو نصروهم.

وترى توبة المرتد الفطري كما الملي تقبل - إن تاب وأصلح - ظاهراً كما تقبل باطناً؟ طليق النص ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقتضي طليق القبول في بعدية، فتقبل توبة الفطري ظاهراً كما الباطن كقبول توبة المليّ.

فإنما الموت على الكفر هو الذي يقطع التوبة عن قبولها وتحقُّق مفعولها: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢].

فهناك ﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ لا تختص بالمليّ حيث الفطري قد يكفر بعد إيمانه كما المليّ، و«إيمانهم» هو واقعه قبل الكفر فطرياً وملياً.

وكذلك هنا «عن دينه» الكائن أياً كان، ملياً أو فطرياً.

أجل قد لا تقبل توبة المرتد وإن تاب بعد ارتداده ملياً أو فطرياً، وهو المكرِّر لارتداده المستزيد في كفره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[٣].

وذلك لضخامة كُفره ووخامته، حيث لا يجبرها شيءٌ، و«لم يكن» نفي مؤكد مؤبد لا يقبل أي استثناء أبداً[٤].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٧.

(٤) السيد الشريف الرضي في حقائق التأويل لمتشابه التنزيل ص ١٦١ وقد روي أن هذه الآيات نزلت في قوم ارتدوا مع الحارث بن سويد بن الصامت الأنصاري ولحقوا بمكة ثم راجع الحارث الإسلام ووفد إلى المدينة فتقبل النبي ﷺ توبته فقال من بقي من أصحابه على =

فكما لا تقبل توبة المرتد الذي يموت وهو كافر، كذلك الذي يزداد كفراً بارتداده مرتين، وهما يعمان الفطري والملي، ثم مَن سواهما تقبل توبته فطرياً أو ملياً شريطةَ الإصلاح لما أفسد بارتداده.

ولا يُنافي عدم قبول التوبة في الدنيا أو الآخرة وعده تعالى - طليقاً - أنه يقبلها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

إذ تعني خاصة التوبة بشروطها دون عامتها الفوضى، فهي غير مقبولة بعد الموت إطلاقاً، ولا قبل الموت إلّا إذا كانت نَصوحاً مصلحاً دون ازدياد الكفر بعد كرور الارتداد، كما تدل عليها آياتها الأخرى فإن القرآن يُفسّر بعضُه بعضاً وينطق بعضه على بعض.

تلحيقة بقول فصل حول الواو في ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾: لقد أشبعنا الكلام بطيّات الفرقان حول أن القول بالزائد في القرآن زائد من القول، رغم ما تورط فيه ضعفاء العقول.

فمن قيلهم أن الواو هنا زائدة لا تعني أي عناية، وآخر أنها مقحمة كما في ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾(٢) حيث تعني «فتحت أبوابها».

والجواب - ككلّ - تحليقاً على كلٍّ ما يزعم زيادته في القرآن - أنه لا شيء من كلمات وحروف جاءت في القرآن إلّا لمعنى مفيد، مهما كان تجويداً لظاهر البيان كما الباء في خبر «ليس» أما أشبه.

فالزيادات والنقائص في الكلام إنما يُضطر إليها للمضطرين فيها لضرورة قافية شعرية أماهيه، مدّاً للمقصور وقصراً للممدود، أو زيادة زائدة ونقيصة

= الردة: نقيم بمكة ما أردنا فإذا صرنا (عدنا) إلى أهلنا رجعنا إلى المدينة وأظهرنا التوبة فقبلت منا كما قبلت من الحارث قبلنا.

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

بائدة، فحين تهجم القافية ويغل الزمام عن يد الشاعر يضطر إلى زيادة أو نقيصة.

فأما إذا كان الكلام محلول العقال، مخلوع العذار، ممكَّناً من جري المضمار، غير محجور بينه وبين غاياته، فإن شاء صاحبه أرسل عنانه فخرج جامحاً، أو شاء قدع لجامه فوقف جانحاً، لا يحصره أمد دون أمد، ولا يقف به حدّ دون حدّ، فلا تكون الزيادة فيه إلّا عيّاً واستراحة ولغوباً وإلاحة.

ولكن كلام الله مترفِّع عن كل إلاحة ولغوب، فإنه المتعذر المعوز، والممتنع المعجز.

ذلك، بل قد يرتفع عن ذلك كلام الفصحاء فضلاً عما هو أعلى وهو في القمة العليا! . . . إننا نجد كلام الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وهو بعد النبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء، نجده على علوٍّ طبقته وحلو طريفته وانفراد طريقته، إذا حوّل ليلحق غاية من أداني غايات القرآن وجدناه ناكصاً متقاعساً، ومُقهقراً راجعاً، وواقفاً بليداً، وواقعاً بعيداً، على أنه كلام يسبق كلّ المجارين، عالياً على المسامين.

ذلك! فضلاً عن كلام من دونه فإذا قيس إليه وقرن به شال في ميزانه، وقصر عن رهانه، وصار بالإضافة إليه قالصاً بعد سبوغه، وقاصراً بعد بلوغه، وليصدّق قول أصدق الصادقين: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[١] [٢].

ثم الواو في ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ تعني - فيما تعنيه - عدم حصر «لن تقبل»

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٢) بين الهلالين ملتقطات من كلام السيد الشريف الرضي في كتابه حقائق التأويل في متشابه التنزيل، مع زيادات أو نقيصات منا.

على اللاافتداء، كأنه إن لم يفتد بملء الأرض ذهباً - لو ملكه هناك - «لن تقبل توبته» فيقول هنا ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ فالمفتدي وسواه سواء في ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾:

﴿لَن﴾ تحيل نيل البر أياً كان ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وأما غير المحبوب مبغوضاً كان أو عواناً بينهما فلا ينيل إنفاقه خيراً، وعلَّ العوان - أيضاً - داخل في نطاق «ما تحبون» مهما كان أدناه فإن قضية الملك حبّه مهما لم يكن مرغوباً والإنفاق هنا هو في سبيل الله إذ لا خير في غير سبيله تعالى.

و«ما تحبون» يعمُّ النفس والنفيس من النواميس الخمس: نفساً وعقلاً وديناً ومالاً وعِرضاً أن يُنفَق كلٌّ في سبيل الله، إما عن بكرته كالتضحية بالنفس والمال، أم مع الحفاظ على أصله كالقوات النفسية والفوائد المالية التي تُنفق في سبيل الله، وكذلك الإرشادات العقلية والعلمية، وتعريض العِرض - فيما يجوز - للحفاظ على عرضٍ أعرض كعِرض الدين والدِّينين، وكل ذلك تشمله ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

ذلك وكما ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ الشرعة التي تعودتموها أن تنفقوها في سبيل الله ومرضاته وتبدلوها بشرعة محكَّمة بعدها.

ولأن للمحبوب درجات كذلك لنيلِ الخير في إنفاق الدرجات درجات، كما والإنفاق في كمِّه وكيفه ومورده درجات.

ولقد أشار الرسول ﷺ الذي يُنفق مما يحبّ أن يجعله في قرابته الفقراء، فإنه أحب من غيرهم[1] وهذا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مورداً.

---

(١) الدر المنثور ٢: ٥٠ أخرج جماعة عن أنس قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاريّ بالمدينة نخلاً=

ومن الإنفاق الأحسن كيفية ما كان دون سؤال ولا سيّما بالنسبة للوالدين، فـ «الإحسان أن تحسن صحبتهما وأن لا تكلفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين...»[١].

ومما تنفقون مادةً طيبات المكاسب فإن «تحبون» هو الحبّ على ضوء الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[٢].

هنا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ دون «ما تحبون» تبعِّض الإنفاق كيلا تضلّوا حاسرين عمّا تحبون ككلّ، والرواية القائلة «ما تحبون»[٣] تُخالف النص هنا،

= وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت ﴿لَن تَنَالُواْ...﴾ قال أبو طلحة يا رسول الله ﷺ إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله ﷺ: بخ ذاك مال رابح ذاك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله ﷺ فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه، وفيه نقل آخر قال ﷺ: اجعله في فقراء أهلك.

وفيه أخرج جماعة عن محمد بن المنكدر قال لما نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ...﴾ جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها شبلة لم يكن له مال أحب إليه منها فقال: هي صدقة فقبلها رسول الله ﷺ وحمل عليه ابنه أسامة فرأى رسول الله ﷺ ذلك في وجه زيد فقال: إن الله قد قبلها منك، وفي نقل آخر فكان زيد أوجد في نفسه فلما رأى ذلك منه النبي ﷺ قال: أما إن الله قد قبلها.

(١) نور الثقلين ١: ٣٦٣ في أصول الكافي بسند متصل عن أبي ولاد الحناط قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البَقَرَة: ٨٣] ما هذا الإحسان؟ قال: الإحسان... أليس الله عز وجل يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ...﴾.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٣) المصدر في روضة الكافي بسند عن يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ هكذا فاقرأها.

وتخالف هنالك الآياتِ في الإنفاق العوان بين الإفراط والتفريط، ولم يكن إطعام الطعام من أهل بيت الرسالة القدسية مسكيناً ويتيماً وأسيراً، إطعاماً لكلِّ المحبوب إذ كان عندهم ما يبدّلوا به عنه وإن على صعوبة فأبدلهم الله بأحسن منه.

وترى ما هي رباط الآية بما قبلها، المندّدة بالمتصلبين على القومية الكتابية، والمتلونين في الإيمان والكفر؟

علّها لأن التجاهل والتنازل عما هم عليه من شرعة انتقالاً إلى شرعة أخرى ولا سيّما إلى نبي غير إسرائيلي، هو معدود في عداد الإنفاق مما تحبون، فإيثار حب الله على ما تحبون يقتضي الانتقال عن كلِّ شرعة سابقة - مهما كانت طُولها وطَولها - إلى الشرعة الأخيرة.

وذلك مما يوسِّع نطاق الإنفاق المحبوب في الآية، دون حصر في إنفاق المال حسراً عن سائر الإنفاق.

إن إنفاق المحبوب في حب الله يختص بما يمكن إنفاقه مشكوراً محبوراً، وأما غير الممكن أو المنكور والمحظور فلا، فإنفاق النفس في سبيل الله فيما يتوجب أو يرجح، وإنفاق المال كذلك عواناً بين الإفراط والتفريط، وإنفاق العقلية الصالحة والعلم النافع والعِظة الحسنة أماهيه من إنفاقات صالحة، إنها كلها مشمولة لطليق الآية دونما تحدُّد بحدٍّ إلّا ما حدَّده الله.

فالإنفاق مما تحب - ولا سيّما إذا كان من أحبّ ما تحب - ذلك رمز إلى أنك تؤثر حب الله على كلّ حب، مهما كان ما تحب شيئاً قليلاً ضئيلاً، كما أن الإنفاق ممّا لا تحب رمز إلى عدم الإيثار وإنك لا تفضِّل حب الله على حبِّك مهما كان ما لا تحب شيئاً كثيراً محبوباً لمن تنفق، اللهم إلّا ألّا تجد إلّا ما تنفقه، وأنك في طويتك تفضل محبوب ربك على محبوبك.

إذاً فإطعام علي وفاطمة والحسنين كسير خبزهم هو من أفضل الإنفاق : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(١) وفي نفس الوقت إطعامك طعاماً أفضل منه وأنت لا تحبه ليس من أفضله ولا فضيله، اللّهم إلّا أن يحبه المنفق عليه ولذلك ينفقه عليه المنفق.

فالإنفاق الصالح يرتكن أولاً على الحب الأفضل، ثم الإنفاق من الأفضل أو الفضيل دون الرذيل ثم الكيفية الفضلى.

ذلك، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ في حبِّه وكيفه وكمِّه ومورده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ لا عليكم أن تبدوه إلّا إذا لزم الأمر بعيداً عن الرئاء والسمعة.

ذلك، فهل ترى الذي يُنفق مما لا يحبه ولا يبغضه لا ينال خيراً وقد أنفق؟ إنه يُنال خيراً إذا تمت أركان السماحة والرجاحة في الإنفاق، ولكنه لن ينال البر ككل حتى ينفق مما يحب، والبر هو واسع الخير من البَرّ لا أصل الخير، وهنا برّ بديل برّ، حيث الإنفاق مما تحب برّ تنال به البرّ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٢).

فالمنفق في سبيل الله إذا لم يأت بمحظور في إنفاقه مأجورٌ قدر إنفاقه، ولكنه لن ينال البر حتى ينفق مما يحب.

وفي الإنفاق في سبيل الله مما تحبون تحرُّر من شح النفس على النفس والنفيس، فالمنفقون مما يحبون يصعدون في ذلك المرتقى الراقي السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء، لا يرتبطون بشيءٍ إلّا الله والحب في سبيل الله، وهم ينالون البرَّ والخيرَ الواسع حسب السعة في إنفاقهم مما يحبون فطوبى لهم وحسن مآب.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

وترى حين تحب شيئاً يكرهه الله، أو تكره شيئاً يُحبه الله، فهل تنال البرَّ في إنفاق ما تكرهه في حب الله أو ما تحبه في كره الله؟.

للمحبوب هنا بُعدان اثنان ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ويحبه الله، وكون الإنفاق في سبيل الله هو قضيةُ الإيمان بالله يجعل محبوب الله محبوباً لنفسه، ومحبوبه ليس إلّا محبوباً لله، وهنا زاوية ثالثة للمحبوب أن يحبه المنفق عليه حتى يتم مثلث الحب فيتم نيل البرِّ من الله.

فمن يُنفق في الله ما يكرهه ويكرهه الله يكرهه الله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾[١].

فالمحور الأصيل في نيل البرَّ «ما تحبون» كمؤمنين، وقد تشمل الزاوية الثالثة للمنفق عليه كما المنفَق في سبيله، فحين تحب شيئاً يحبه الله ولا يحبه المنفق عليه فعليك ألا تحب إنفاقه، فليست مادة الحب ما تحبه - فقط - لنفسك، بل ولمن تنفق عليه.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[٢] قد تعني مثلثة الجهات، «على حبِّه لهم - على حبِّه للمطعَم - وعلى حبِّه لله وحبِّ الله» وذلك أحسن الإنفاق.

ويتلوه أن تنفق ما لا تحبه ويحبه الله إنفاقاً ويحبه المنفق عليه سؤلاً.

والمحور الأصيل في ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ هو حبُّ الله وله درجات أعلاها مثلث الحب كما في ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

فما لم يكن الإنفاق على حب الله ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ فيه وليس المؤمن ليحب ما لا يحبه الله.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٨.

إذاً فـ ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ تعني ما تحبون في محبة الله وتُحبونه - كذلك - لأهل الله، وكلما كان الإنفاق أحب إليكم كمؤمنين بالله كان البر أبرّ لكم من الله.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

أترى ما هي الرباط بين هذه الآية وما قبلها، ولا دور للطعام هنا سلباً وإيجاباً على الإطلاق؟.

علّها - بمناسبة الحوار الإسلامي الكتابي حول الشرعة الجديدة - وجه إلى الرسول ﷺ اعتراض على حلية لحوم الإبل والبقر والغنم بكلّ أجزائها، ناقمين عليه ذلك التحليل الطليق والتوراة يحرمها، فأجاب ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾.

وهنا ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ وليس «كل الطعام» لتعني الطعام المعروف حلّه في شرعة الإسلام - وطليق الحل هو مصب اعتراضهم على الرسول ﷺ - أو والطعام الحل في الشرعة الإبراهيمية فإن بني إسرائيل كسائر المكلفين - هم وأنبياؤهم - كانوا أتباع الشرعة الابراهيمية ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ و﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ الحل في شرعة إبراهيم هو الحل في شرعتنا، إذ لا تناسخ شرعياً في حلِّ الطعام إلّا عقوبياً كما حرّم قسم منه في شُرعة التوراة.

وهنا يتهدم صرح زعمهم أن النسخ مستحيل، حيث خيِّل إلى أهل التوراة أنها هي الشرعة الإلهية منذ البداية إلى النهاية، فلا شرعة - إذاً - بعدها كما لم تكن قبلها، إلّا إعدادات لها، وتخيل ثان أن ما حرم عليهم من الطيبات لم تكن عقوبة.

وقد يروى أن إسرائيل حرّم على نفسه لحم الإبل - أماذا - مما فيه

عروق إذ كان يهيج عليه وجعُ الخاصرة أو نذر إن عافاه الله من وجعه ألّا يأكل ما فيه عرق حيث تأذى به[١].

وأيًّا كان التحريم ودوره لم يكن تشريعاً يخص الله تعالى، ولا حُكماً ناسخاً لشرعة إبراهيم إذ لم يكن إسرائيل من أولي العزم، فإنما كان تحريماً شخصياً لمصلحة ملزمة كما حرم الرسول ﷺ ما أحلّه الله في شرعته على نفسه من زوجة قضية الفضيحة الدعائية من بعض نسائه حتى كفل الله أمره فرجع إلى الحل.

وقد حرمت التوراة عقوبياً على أهلها - طيبات أحلت لهم: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[٢] - ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾[٣] ثم

---

(١) الدر المنثور ٢: ٥١ عن ابن عباس ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ...﴾ قال: العرق أخذه عرق النساء فكان يبيت له زقاء - يعني صياح - فجعل لله عليه إن شفاه أن لا يأكل لحماً فيه عروق فحرمته اليهود، وفيه عن ابن عباس قال: جاء اليهود فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء فلم يجد شيئاً يداويه إلّا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرّمها، قالوا: صدقت وعنه قال: حرّم على نفسه العروق ولحوم الإبل كان به عرق النساء فأكل من لحومها فبات ليلة يزقو فحلف أن لا يأكله أبداً، وفيه عن ابن عباس قال قالت اليهود للنبي ﷺ نزلت التوراة بتحريم الذي حرم إسرائيل فقال الله لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وكذبوا، ليس في التوراة وإنما لم يحرم ذلك إلّا تغليظاً لمعصية بني إسرائيل بعد نزول التوراة ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وقالت اليهود لمحمد ﷺ: كان موسى يهودياً على ديننا وجاءنا في التوراة تحريم الشحوم وذي الظفر والسبت فقال محمد ﷺ: لم يكن موسى يهودياً وليس في التوراة إلّا الإسلام يقول الله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أفيه ذلك وما جاءهم بها أنبياءهم بعد موسى فنزلت في الألواح جملة.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٠.

نراها أن المسيح عليه السلام أحلها: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . . وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. . .﴾[1].

فالطعام الذي حرَّمه إسرائيل على نفسه لمصلحة شخصية وقائية ليس ليحرم على أحدٍ فضلاً عن أن تحرمه التوراة اتباعاً لما حرّم ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ألا نسخ ولا جديد في حكم التوراة تحريماً وسواه، كما وترون ليس فيه تحريم ما حرم إسرائيل على نفسه اتِّباعاً لما حرّم بل فيها حل كلّ الطعام الحلّ على المسلمين، إلّا ما حرمت على بني إسرائيل عقوبة لبغيهم.

وهنا ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ تلمح بقيلتهم الكذب أن إسرائيل حرّم في التوراة ما حرّمه عليه نفسه، كقيلتهم أن إبراهيم كان يهودياً، والقرآن يذبُّ هذا التحريم الخاص عن التوراة، لأنه كان ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾، وذلك القبل يعمُّ «حلاً. . وحرم» فكلا الحلّ العام والتحريم الخاص كان من قبل أن تنزل التوراة.

ثم ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ فيه قضاء حاسم على استحالة النسخ، حيث تنسخ التوراة حلية بعض الطيبات، وعلى مزعمة عدم التحريم عقوبة لأنهم شعب الله الخصوص.

فقد تصرّح التوراة أن للإبل منافع كثيرة ووهب إسرائيل ثلاثين إبلاً ذات لبن أخاه عيص (التكوين ٣٢: ١٥) ولكنها محرمة في شرعة التوراة (اللاويين ١١: ٤ والتثنية ١٤: ٧).

ثم في اللاويين ١١: هذه هي الحيوانات التي تأكلونها من جميع البهائم التي على الأرض ٣ - كلّ ما شق ظلفاً وقسمه ظلفين ويجترّ من البهائم فإياه

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

تأكلون، ٤ - إلّا هذه فلا تأكلوها مما يجترّ ومما يشق الظلف: الجمل لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم والدب والأرنب والخنزير... وجميع البهائم التي لها ظلف ولكن لا تشقه شقاً أو لا تجتر فهي نجسة لكم وكلّ ما يمشي على كفوفه من جميع الحيوانات الماشية على أربع فهو نجس لكم.

ذلك وكما حرمت عليهم الشحوم (اللاويين ٣: ١٦ و١٧ و٧: ٢٤ - ٢٧).

فقد اعترضوا على الرسول ﷺ فيما اعترضوا كيف يأكل لحم الإبل وقد حرمه إسرائيل، فيجيب القرآن إنه من إسرائيل كان تحريماً خاصاً على نفسه وقائياً، من قبل أن تنزل التوراة، ثم التوراة حرمه عقوبياً ومن ثم أحلّه فيما أحلّه المسيح عليه السلام واستمر الحلّ في الإسلام.

وفي نظرة ثانية إلى الآية نقول: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ استثناء منقطع لأن إسرائيل ليس داخلاً في بنيه، ولا ما حرّمه على نفسه داخلاً في عموم التحريم، فقد يلمح انقطاع الاستثناء باستغراق الحلّ في ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾.

ثم ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ يصحّ تعلقها بكلّ من ﴿كَانَ حِلًّا﴾ و﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾ والجمع أجمع والأول أوقع إذ ﴿كَانَ﴾ هو أصل الكلام والاستثناء - ولا سيما المنقطع كما هنا - فرع لا يأخذ زمام المتعلقات إلّا ضمنياً إذا صح المعنى.

إذاً فـ ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا ... مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ فليست المحرمات التوراتية أبدية، ومنها عقوبية يدل عليه حلّها قبل نزول التوراة وبعد نزول الإنجيل وكما في متى: ٣: ٤ إنه يحل لحم الجمل ولبس وبره وجلده.

كـمـا و﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ . . . إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ حسماً لزعم أن التوراة حرمت ما حرمه إسرائيل.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في زعم استحالة النسخ وأبدية التوراة، وأن محرمات فيها عقوبية لبغيهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾[1] وهم كاذبون في رغم الحرمة الأبدية لما حرم فيها ومنها لحم الإبل حيث كانوا يندِّدون بالرسول ﷺ كيف يأكل ما حرمته التوراة كشرعة أبدية دائمة.

و«إسرائيل» هي في أصلها العبراني «ييسرائل»: عبد الله، ولكن التوراة فسّرتها في قصة فنوئيل: صارع الله فصرعه فأخذ منه بركة النبوة!.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

افتراء الكذب على الله قبل ذلك البيان ظلم ولكنه ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كأنه الظلم لا سواه ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأنهم على بيّنة من القرآن بحجته بعد التوراة، وعلى بينة من صدق هذه الرسالة القرآنية.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ﴾ في كل قال وأنتم كاذبون، فإن كنتم صادقين أنكم على ملة إبراهيم ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ﴾ فلا تُشركوا بالله فإنه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله في أي شأن من شؤون الربوبية.



(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

إعلانٌ صارخٌ في هذه الإذاعة القرآنية - العالمية - بأوّلية مُطلقة لبيت الله الحرام، ردّاً على شطحات يهودية أن القدس أقدس منه[١] فليكن هو المطاف والقِبْلة وكما كان في فترة، والأصل على مدار الزمن الرسالي هو الكعبة المباركة قِبْلَةً ومطافاً للعالمين! : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ...﴾[٢].

يُذكر البيت الحرام في سائر القرآن عشراً مجرداً كما هنا، وثلاثاً منسوباً فيها إلى الله، وثلاثاً أخرى إلى الناس، مما يدل على أنه ليس لله بيتاً كما للناس، فهو للناس بيت قبلة ومطاف ومعتكّف، ولله بيتٌ يُعبد فيه، فهو بيت الله وبيت الناس[٣].

---

(١) الدر المنثور ٢ : ٥٣ - أخرج ابن المنذر والأزرقي عن ابن جريج قال بلغنا أن اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ولأنه في الأرض المقدسة فقال المسلمون: بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك النبي ﷺ فنزلت ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ - إلى قوله -: فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ وليس ذلك في بيت المقدس ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ وليس ذلك في بيت المقدس.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) الثلاث الأولى هي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج: ٢٦] ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ [البقرة: ١٢٥] ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] والثانية هنا ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ و﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وهُنالك مواصفات لهذا البيت العتيق في عدة آيات، منها هنا سبع، عدد السماوات السبع والأرضين السبع والأسبوع السبع والطواف بالبيت وبالصفاء والمروة السبع، والجمرات السبع، كما وإن عدد أبواب الجحيم سبع تسكّر بسبعي الطواف وسبعات الجمرات.

١ - ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ....﴾:

علَّ الصلة القريبة لهاتين الآيتين بما قبلهما - ولا سيّما واتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً - أن من أهل الكتاب معترضين على الرسول ﷺ إذا تأمر باتِّباع ملة إبراهيم فكيف تستقبل الكعبة وتطوف حولها ونحن نقدِّس القدس وهو كعبتها وشُرعتها من شُرعة إبراهيم؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ...﴾ وكذلك الآيات التي تقول إن إبراهيم هو الذي رفع القواعد من البيت.

الأوّل هو السابق الذي لا يسبقهُ أو يقارنهُ مثيلٌ له في المُمكنات، أم ولا يتأخر هو عنه كما الله تعالى، حيث هو الأوّل لا ثاني له والآخر لا أوّل قبله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[١] والأوّل هنا هو من الأوّل إذ له أمثالٌ بعده مهما كانت درجات، كما هو في الدرجة القمّة العليا، لا يُساوى أو يُسامى.

و﴿بَيْتٍ﴾ كمطلقه هو مكان البيتوتة والرياحة، بدنياً أو روحياً أو هما معاً، فسواءٍ أكانت أرضاً ملساء، أم وعليها بناية، فليشمل أرض الكعبة وهي مكان البيت كما يشملها بعد عمارتها.

والأوّلية هُنا مطلقة تطمُّ الزمنية والمكانية[٢] وفي المكانة، . . . . . .

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.

(٢) هنا روايات متواترة بشأن هاتين الأوليين ففي الدر المنثور ٢: ٥٢ - أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مهدت منها الأرض.. =

. . . .

= وعن أبي جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: إن الله بعث ملائكته فقال: ابنوا لي في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور (رواه بلفظه الرازي في تفسيره ٨: ١٥٢ والتبيان بتفاوت يسير ١: ١٥٧ وبوجه أبسط الخازن ١: ٢٥٢ عن علي بن الحسين عليهما السلام والأزرقي في أخبار مكة عن أبي جعفر عليه السلام عن أبيه عن علي بن الحسين عليهم السلام ١: ٣٥ وحسين بن عبد الله بإسلامه في تاريخ الكعبة ٤٠).

وروى الكليني في الصحيح عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أراد الله عزوجل أن يخلق الأرض أمر الرياح فضرب متن الماء حتى صار موجاً ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلاً من زبد ثم دحى الأرض من تحته وهو قول الله عزوجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ. . .﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النَّازعَات: ٣٠] ورواه سيف بن عميرة عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام
(انظر الكافي (: ١٦) والفقيه ٢: ١٥٤ والأخبار الدالة على دحو الأرض من موضع الكعبة كثيرة انظر العياشي ١: ١٨٦ والبرهان ١: ٢٩٧ ونور الثقلين ١: ٣٠٣ والوسائل الباب ١٨ من أبواب مقدمات الطواف ٢٩٧ و٢٩٨ والدر المنثور ١: ١٤٥ - ١٤٧ والطبري ٤: ٨ وأخبار مكة الأزرقي ١: ٣١).

والبيت في هذه الأحاديث هو مكان البيت، فله الأوّلية المطلقة على كلّ بيت كما روى العياشي عن عبد الصمد بن سعد قال أراد أبو جعفر أن يشتري من أهل مكة بيوتهم أن يزيد في المسجد فأبوا عليه فأرغبهم فامتنعوا فضاق بذلك فأتى أبا عبد الله عليه السلام فقال له: إني سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم وأفنيتهم لنزيد في المسجد وقد منعوا ذلك قد غمّني غماً شديداً فقال أبو عبد الله عليه السلام لِمَ يغمك ذلك وحجتك عليهم فيه ظاهرة، قال: وبِمَ احتج عليهم؟ فقال: بكتاب الله، فقال: في أي موضع؟ فقال: قول الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ قد أخبرك الله أن أوّل بيت وضع هو الذي ببكة فإن كانوا هم نزلوا قبل البيت فلهم أفنيتهم وإن كان البيت قديماً قبلهم فله فناءه فدعاهم أبو جعفر عليه السلام فاحتج عليهم بهذا فقالوا له: اصنع ما أحببت.

وفيه عن الحسن بن علي النعمان قال: لما بنى المهدي في المسجد الحرام بقيت دار في تربيع المسجد فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكل قال له: إنه لا ينبغي أن تدخل شيئاً في المسجد الحرام غصباً فقال له علي بن يقطين: يا أمير المؤمنين إني أكتب إلى موسى ابن جعفر عليه السلام لأخبرك بوحي الأمر في ذلك فكتب إلى والي المدينة أن يسأل موسى بن جعفر عليه السلام عن دار أردنا أن ندخلها في المسجد الحرام فامتنع علينا صاحبها فكيف المخرج من ذلك؟ فقال ذلك لأبي الحسن عليه السلام فقال أبو الحسن عليه السلام: فلا بُدَّ من الجواب في =

مهما كان القصد من ﴿بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ بيوت العبادة[1] فالواضع هو الله، والموضوع لهم هم كلّ الناس، فلا بيت يضعه الناس، بالإمكان أن يوضع لكلِّ الناس دونما اختصاص.

إلّا أنه يشمل بيوت الناس بجنب بيوت الله، فهو الأول زماناً إذ وضعه الله للناس قبل كلِّ وضع وموضوع له، حين دحى الأرض من تحتها.

إن مكان البيت هو الأم لسائر الأمكنة الأرضية، كما مكة هي أم القرى من الناحية الرسالية، فللبيت بمكانه أمومتان اثنتان، فهو «أم القرى» في كافة الجهات، حيث دُحيت كلّ شرعة إلهية - كأصل - منها، كما دُحيت الأرض كلها من تحتها.

والوضع هنا تكويني وتشريعي، و«للناس» تعمُّ جميع الناس طول الزمن الرسالي، مَطافاً للطائفين وقِبْلَةً للمصلين، وكما نرى قبور النبيين وسائر الصالحين قبل الإسلام تجاه الكعبة المباركة دونما استثناء، في القدس نفسه

= هذا؟ فقال له: الأمر لا بُدَّ منه فقال له اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها وإن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها، فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب فقبله ثم أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السلام فسألوه أن يكتب إلى المهدي كتاباً في ثمن دارهم فكتب إليه أن أرضخ لهم شيئاً فأرضاهم.

وأما ما يروى عن علي عليه السلام أن رجلاً قال له: أهو أوّل بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت ولكنه أوّل بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة وأوّل من بناه إبراهيم عليه السلام ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبناه قريش فقد يعني من المتأخر عن بيوت عمارة البيت لإمكانه (رواه في البرهان ١: ٣٠١ عن ابن شهرآشوب عنه عليه السلام وأخرجه السيوطي عن ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عنه عليه السلام والرازي في تفسيره ٨: ١٥٤ والأزرقي في أخبار مكة ١: ٦١ و٦٢ عنه عليه السلام بوجه أبسط).

(١) الدر المنثور ٢: ٥٣ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي مسجد وضع أوّل؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى..

وفي الخليل ودمشق ولبنان وإيران أم أياً كان من بلاد تضم قبور هؤلاء الكرام، وكما حجه النبيون أجمع[١] فهذا أقدس بيت على الإطلاق، فإن واضعها هو الله الجليل، والمهندس هو جبرئيل، والباني هو الخليل والتلميذ إسماعيل، لذلك ف «المقام بمكة سعادة والخروج منها شقوة»[٢] وهي «دعامة الإسلام...»[٣] والصلاة فيه تُسوى ألف ألف صلاة[٤] والطواف به صلاة، والمقام عنده فيه الفضيلة الكبرى، كما الصوم في رمضانه مائة ألف[٥].

---

(١) في روضة المتقين ٤ : ٩٧ قال أبو جعفر عليه السلام : أتى آدم عليه السلام هذا البيت ألف أتية على قدميه منها سبعمائة حجة وثلاثمائة عمرة وكان يأتيه من ناحية الشام والمكان الذي يبيت فيه الحطيم... وفيه ١١٤ في الموثق كالصحيح عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: مر موسى بن عمران عليه السلام في سبعين نبياً على فجاج الروحاء عليهم العباء القطوانية يقول: لبيك عبدك وابن عبديك..

وفيه في الحسن كالصحيح عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مر موسى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصفاح الروحاء على جمل أحمر خطامه من ليف عليه عباءتان قطوانيتان وهو يقول: لبيك يا كريم لبيك - قال: مر يونس بن متى بصفاح الروحاء وهو يقول: لبيك كشاف الكرب العظام - قال: ومر عيسى ابن مريم بصفاح الروحاء وهو يقول: لبيك عبدك ابن أمتك ومر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصفاح الروحاء يقول: لبيك ذا المعارج لبيك.

وفيه ١١٦ روى زرارة في الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام أن سليمان عليه السلام قد حج البيت في الجن والإنس والطير والرياح وكسى البيت القباطي.

(٢) الدر المنثور ٢ : ٥٣ - أخرج الأزرقي عن عطاء بن كثير رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم : المقام...

(٣) المصدر - أخرج الأزرقي والطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: هذا البيت دعامة الإسلام من خرج يؤم هذا البيت من حاجٍ أو معتمرٍ كان مضموناً على الله إن قبضه أن يُدخله الجنة وإن رده أن يردّهُ بأجرٍ أو غنيمة.

(٤) كما في الوافي عن الفقيه ٨ : ١٠ قال صلى الله عليه وآله وسلم : الصلاة في مسجدي كألف صلاة إلّا في المسجد الحرام فإنه كألف صلاة في مسجدي.

(٥) الدر المنثور ٢ : ٥٣ - أخرج الأزرقي والجندي والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أدرك شهر رمضان بمكة فصامه كله وقام منه ما تيسّر كتب الله له مائة ألف رمضان بغير مكة وكتب له كل يوم حسنة وكل ليلة حسنة وكل يوم عتق رقبة وكلّ ليلة عتق رقبة وكلّ يوم حملان فرس في سبيل الله وكلّ ليلة حملان فرس في سبيل الله وله بكلّ يوم دعوة مستجابة.

لقد رسم الخط حول مكان البيت وبناه آدم الصفيّ[1] ورفع القواعد منه الخليل الوفيُّ، ووضع الحجر الأسود في مكانه الآن بعد خرابه هذا النبي ﷺ ويظهر عنده متكئاً ظهره على جداره القائم المهدي عليه السلام فأُمُّ القرى هي العاصمة الإسلامية الكبرى كما كانت لرسول الهدى ﷺ وهي على طول خطّ الرسالات أم القرى لا تُساوى أو تُسامى.

ولماذا ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وهو ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أجمعين، من الجنة والناس ومن سواهما من المكلفين أجمعين؟.

علّه لأنهم هو المحور الأساس في التكوين والتشريع، والجنة هم على هامش الناس ثم لا خبر لنا عن سائر العالمين.

﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ...﴾:

ولماذا ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ دون ﴿ٱلْكَعْبَةِ﴾ وهي أخصر، أو ﴿مَكَّةَ﴾ وعلّها أظهر؟ علّه إذ قد تسمى غيره «كعبة» مهما أصبحت بعدُ علماً له! وأن ﴿ٱلْكَعْبَةِ﴾ تختص بالمبني عليه تلك البناية، و﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ تشملها قبل البناية وبعدها، والأولية الزمنية بالنسبة لبيوت العبادة المبنية ليست للكعبة المشرفة، وإنما لمكان البيت وبالنسبة لكافة البيوت عبادة وسواها، مبنية وسواها.

---

(١) روضة المتقين ٤: ١١٦ روى أبو بصير في الموثق عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن آدم هو الذي بنى البيت ووضع أساسه وأوّل من كساه الشعر وأوّل من حج إليه ثم كساه تبع بعد آدم الأنطاع ثم كساه إبراهيم الخصف وأوّل من كساه الثياب سليمان بن داود عليه السلام، أقول: فالبيت الحرام هو قبل القدس بقرون فإن أوّل من خطَّ بيت المقدس واتخذه مسجداً داود عليه السلام وبناه سليمان من بعده فشاد بنيانه وفسح أعطانه وجاء في الخبر أنه أصاب بني إسرائيل على عهد داود طاعون أسرع فيهم وذهب بعامتهم فخرج داود بالناس إلى موضع بيت المقدس فدعى الله سبحانه أن يرفع عنهم ذلك الموتان فاستجيب له فاتّخذ ذلك الموضع مسجداً تبركاً به وتعظيماً له وبدأ ببنائه فنودي قبل أن يستتمه فأوصى إلى سليمان عليه السلام باستتمامه فعامته من بناء سليمان (حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي).

ثم «بكة» من البَكِّ وهو الدفع حيث يدفع عنها من يقصد تهديمها هتكاً من الطغاة اللئام لم يقصدها جبار بسوء إلّا اندقت عنقه[١].

وهو الزحام لأنه مزدحَم الحجاج والمعتمرين، والأوّل يخصُّ البيت والثاني محطُّه البيت مهما عمّ الزحام كل البلّد الحرام، فـ«إنما سميت مكة بكَّة لأن الناس يتباكون فيها»[٢] و«لأنها يبتكُّ بها الرجال والنساء والمرأة تُصلِّي بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومعك ولا بأس بذلك إنما يكره في سائر البلدان»[٣] و«لأن الناس يبكُّ بعضهم بعضاً فيها بالأيدي»[٤] لا «لبكاء الناس حولها وفيها»[٥] لاختلاف «بكّ» عن «بكى» في أصل اللغة والمعنى.

وأما «مكة» فهي من الملكّ: الدَّحو والتحريك، حيث ملكَّ الله الأرض من تحتها، وعلّ اختصاص «بكّة» بالذكر هنا دون «مكّة» وهما تعنيان البلد الحرام، للتأشير إلى أن مظهر البركة والهدى فيها للعالمين باديء من أذان الحج من بانيها الخليل، مهما كانت قبلة ومطافاً قبله.

وقد تعني «مكّة» البلد الحرام كله، أو الحرم كله، و«بكّة» هي موضع البيت، أو موضع الحجر الذي يبكُّ الناس بعضهم بعضاً.

٢ - ٣ - ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾:

علّهما حالان لمربع المتعلقات: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾: مباركاً وهدىً - وضع:

---

(١) في الموثق عن أبي جعفر عليه السلام كانت تسمى بكّة لأنها تبكُّ أعناق الباغين إذا بغوا فيها.

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٦٧ في كتاب العلل بإسناده إلى العرزمي عن أبي عبد الله عليه السلام...

(٣) المصدر ٣٦٧ عن العلل بسند متصل عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال:..

(٤) المصدر ٣٦٧ عن العلل بإسناده إلى عبيد الله بن علي الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام لِمَ سُميت مكة بكَّة؟ قال:..

(٥) المصدر ٣٦٦ عن العلل وبإسناده إلى عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام لِمَ سُميت الكعبة بكَّة؟ فقال: لبكاء الناس حولها وفيها أقول: وهذا من المختلقات.

مباركاً وهدى - للناس: مُباركاً وهُدىً - للذي ببكة: مُباركاً وهُدىً، بركات بعضها فوق بعض وهدايات منذ وضعه الله إلى يوم الدين.

ثم ﴿مُبَارَكًا﴾ اسم مفعول من بارك، والبرك هو في الأصل ثبات الشيء ويستعمل في كلِّ فضلٍ وفيضٍ مادياً أو معنوياً أو هما معاً فـ «إن للحق دولة وللباطل جولة» فهذا البيت مبارك ثابت النفع دون زوال، ومنه استقرار العبادة فيه وإليه والطواف حوله دونما نسخ وتحوير.

وفي الأصل العبراني ברך : بارَكْ ركع - سجد - أحنى الركبة، و: ברך : بِرَك بارَكَ - مجّد - رحّب - حنّاً - هنّاً، و: ברכה : بِراكاه مباركة - تهنئة - تحية - تسبيح.

والبيت الذي ببكة فيه كافة البركات مادية ومعنوية: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ...﴾[2].

ومن أهمّها البركات الجماعية ثقافية وعقيدية وسياسية واقتصادية أماهيه، فإنه: «قياماً للناس - ومثابة وأمناً...» و﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ...﴾[3].

وتراه كيف يكون ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وحتى المسلمين لم يتبركوا به ويهتدوا كما يحق فضلاً عن سائر العالمين؟.

إن بركته وهُداه للعالمين فرضٌ وواقعٌ، فرضٌ لمن استطاع إليه سبيلاً، وواقعٌ لغير المستطيعين من المسلمين، لو أن الأوّلين حجُّوه كما يجب

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.
(٣) سورة الحج، الآية: ٢٨.

شاهدين فيه منافع لهم وللكتلة المؤمنة، ثم واقع بصورة أوسع حيث تؤسس الدولة الإسلامية العالمية على كاهلِ الكون أيام المهدي القائم عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

ذلك! ولأن ﴿لِلنَّاسِ﴾ هُنا طليقة غير محدودة بناسٍ دون ناس، نتأكد أنه ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ كلهم دون طائفية أو إقليمية أو عنصرية لناس البيت كما في سائر البيوت.

ثم ﴿وُضِعَ﴾ دون «بُني» للتدليل على كلِّ وضعٍ فيه تكوينياً وتشريعياً وبركة وقِبلَةً ومطافاً وعبادات أخرى، وسائر البيوت لا أولية لها في هذه الأوضاع ولا تُسامى أو تُساوى الكعبة المُباركة على الإطلاق.

كما وأن صيغة المجهول مع «الناس» نائباً للفاعل دليل أن الفاعل الواضع ليس من الناس، إذاً فذلك وضع تكويني وتشريعي من الله تعالى في أولية طليقة حقيقة بالأولوية الطليقة تشريعاً وتكويناً.

٤ - ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ...﴾:

وتراها فقط ﴿ءَايَٰتُۢ﴾ تخرق العادات، دالة على الله بوحدانيته، فماهيه؟

ولم يُذكر هنا إلّا ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهي آية واحدة!.

أم هي علامات مُؤشرات إلى الأفضلية القمة المرموقة لهذا البيت بالنسبة لأي بيت؟ وقد لا تُسمَّى العلامات - فقط - آيات، ولم تأت بمعنى العلامة إلّا التي في الشعراء ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾[1].

أم هي آيات تشريعية تخصُّه، وتكوينية خارقة، وسواها علماً لاختصاصه بين سائر البيوت بكلِّ هذه الآيات؟ كأنها هيه جمعاً بين المحتملات.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٢٨.

ونجد في مُثَّلث الآيات المذكورات: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ - وَمَن دَخَلَهُۥ . . . - وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ تأشيراً عشيراً إلى كلها، فـ ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تكوينية، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ تعمُّها والتشريعية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تشريعية، والتكوينية منها تعمُّ الخارق للعادة ومطلق العلامة.

فآية تشريعية منقطعة النظير تدل على أوّليته التشريفية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يضع الله بيتاً على مدار الزمن الرسالي، يفرض حجَّهُ لمن استطاع إليه سبيلاً إلّا الكعبة المشرفة.

وأخرى هي فرض الأمن لمن دخلها زائداً على ما سواها من بيوت الله وسواها.

وثالثة تحريم الصيد وقطع الشجر في حرمها دون سواها، وما إلى ذلك من مُحرمات وواجبات فيها وفي إحرام حجِّها وعمرتها.

وآية تكوينية خارقة العادة هي الرابعة من آياته البينات بكُّ من قصده بسوءٍ كما حصل في أصحاب الفيل: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾[1]؟! وما هُدِمَ حينما هُدِم توهيناً كأصحاب الفيل[2].

---

(١) سورة الفيل، الآيات: ٢-٥.
(٢) فما زالت الكعبة على بناء إبراهيم عليه السلام حتى جدّدها بنو جُرهم ثم العمالقة ثم قريش، ثم هُدمت الكعبة بالسيل رابعة قبل البعثة بخمس.
وكان البناء على هذه الحال حتى تسلط عبد الله بن الزبير على الحجاز في عهد يزيد بن معاوية فحاربه الحصين قائد يزيد بمكة وأصاب الكعبة بالمنجنيق فانهدت وأحرقت كسوتها وبعض أخشابها ثم انكشف عنها لموت يزيد فرأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويعيد بناءها فأتى لها بالجص النقي من اليمن وبناها به وكان فراغه من بنائها ١٧ رجب ٦٤ هجرية.
وهذه الإصابة لم تكن قاصدة إلى هدم البيت وهتك حرمته، وإنما هي من مخلفات هذه الحرب الظالمة، ولو كانت قاصدة ما قصده أصحاب الفيل لأصابهم ما أصابهم. =

وخامسة هي موضع قدم إبراهيم من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن، إذ أثَّرت قدمه المباركة حين بنى البيت وحين أذّن في الناس بالحج(١).

وسادسة أن الطيور المحلقة على فضاء المسجد الحرام، تكسّر عند وصولها إلى فضاء الكعبة، اللّهم إلّا شاردة ماردة، فقد تراها - ككلٍّ - ممتنعة من العلّو على البيت الحرام، فلا يطير طائر إلّا حوله من غير أن يعلو فوقه وقد تناصر الخبر وتواتر الأثر بذكره.

ولقد شاهدتُ أنا عند مقامي بمكّة المكّرمة في سنتين من سني هجرتي من شرِّ الطاغوت الشاه عليه لعنة الله، شاهدتُ مُتقصِّداً تلك الآية البينة، فرأيتُ امتناع الطير من التحليق فوق البيت، حتى لقد كنتُ أرى الطائر يدنو

= ثم هنا روايات صحيحة أن البيت لم يغرق في طوفان نوح عليه السلام كما في الصحيح عن سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنما سُمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق وأعتق الحرم معه كف عنه الماء (روضة المتقين ٤ : ٤).

ثم لما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعث الحجاج بن يوسف قائده فحارب ابن الزبير حتى غلبه فقتله ودخل البيت فأخبر عبد الملك بما أحدثه ابن الزبير في الكعبة فأمره بإرجاعها إلى شكلها الأول فهدم الحجاج من جانبها الشمالي ستة أذرع وشبراً وبنى ذلك الجدار على أساس قريش، وهذه خامسة.

ولما تولى السلطان سليمان العثماني سنة (٩٠٦) غير سقفها، ولما تولى السلطان أحمد العثماني سنة (١٠٢١) أحدث فيها ترميماً، ولما حدث السيل العظيم سنة (١٠٣٩) هدم بعض حوائطها الشمالية والشرقية والغربية فأمر السلطان مراد الرابع من ملوك آل عثمان بترميمها، ولم يزل على ذلك حتى اليوم (١٤٠٥) هجرية، ولم تعمر إلّا داخلياً سنة (١٤٠٠) زمن الملك خالد.

فلا نجد في تاريخ الكعبة تهديماً قاصداً هتكاً لحرمتها إلّا من أصحاب الفيل، وقد جعل كيدهم في تضليل!.

(١) في حسنة ابن سنان أو صحيحه على الأصح قال سألت أبا عبد الله عليه السلام : ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧] ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، والحجر الأسود ومنزل إسماعيل.

من مكانٍ سحيقٍ ومنزعٍ عميق في أحدِّ طيرانه وأمدِّ خفقان جناحه حتى أظن أنه قد قطع البيت عالياً عليه وجَائزاً به، فما هو إلّا أن يقرُبَ منه حتى ينكسر مُنحرفاً ويرجع مُتيامناً أو مُتياسراً فيمر عن يمين البيت أو شماله، كأن لافتاً يلفته أو عاكساً يعكُسه، وذلك من أطراف ما شاهدته هناك وجرّبته، اللهم عُد بي إلى بيتك واجعلني فيه من أنصار مهديك القائم عجَّل الله تعالى فرجه، وكما رجوته حين أقمتُ فيه ولكن الله قضى أمراً كان مفعولاً.

وسابعة هي بئر زمزم حيث نبع فواراً أرتزياً منذ مسّ إسماعيل عقبه على أرضه، ولا يزال نابعاً يزيد ولا ينقص، ثم وماؤه لا يتسنّه على طول المكوث مكشوفاً على أية حال.

وثامنة هي قصة الخليل عليه السلام لما أُمِرَ في المَنْحَرِ بذبح ابنه إسماعيل، فأخذ يضغط على المدية ولكنها لا تقطع حيث «الخليل يأمُرني والجليل ينهاني».

وتاسعة هي ترك الذُّباب والبراغيث في مُنى يوم الأضحى ويومين بعدها، وأرضها مليئَة بالأشلاء العفنة والنتنة، فلا تجد أية مؤذية فيها!.

وعاشرة هي حصى الجمار التي تؤخذ من المشعر الحرام بالملايين الملايين سنوياً، وليس سبيل ماءٍ ولا مهب رياح شديدة! ثم ترى ذهاب تلك الحصى وخلوّ مواضعه منه على كثرة الرامين به واجتماعه في مواضعه.

وحادي عشرها أنها تُجبى إليها ثمرات كلّ شيءٍ، والبلد الحرام نفسه كان قاحلاً لا ماءَ فيه ولا كلاء، وحتى الآن وهما فيه قدر الحاجة لا ثمرات فيه من نفسه إلّا من كلِّ أكناف العالم.

وثاني عشرها الأمن النسبي فيه - مهما شذ فيه اللّاأمن - حيث الحروب وإراقة الدماء بعيدة عنه أكثر من غيره بكثير، ولحدٍّ لا تجد فيه افتراس السباع فضلاً عن غيرها، كما وهو من أحكامه تشريعياً.

فترى الوحش والسباع إذا دخلته وصارت في حدوده لا تقتل بعضها بعضاً، ولا يؤذي بعضها بعضاً، ولا تصطاد فيه الكلاب والسباع سوانح الوحوش التي جرت عادتها بالاصطياد لها، ولا تعدو عليها في أرض الحرم كما تعدو عليها إذا صادفتها خارج الحرم.

فهذه آية عظيمة من آيات الله البينات في هذا البيت المبارك تدل دلالةً عظيمةً على أنَّ الله تعالى هو الذي أبان هذا البيت بذلك من سائر بقاع الأرض، حيث حال بين السِّباع فيها وبين مجاري عاداتها وحوافز طباعها وعمل النفوس السليطة التي ركبت فيها حتى تمنع من مواقعة الفرائس وقد اكتبت لها وصارت أخذ أيديها، بل وتأنس بأضدادها وتأنس الأضداد بها!.

وقد تعني ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كلّ هذه الآيات لأنها في مقامه الكعبة حيث رفع قواعدها، ومقامه الواضع قدمه عليه حيث موضع قدمه، ومقامه الزمزم حيث مقام اسماعيله بأُمِّه، ومقامه المَنحر ومُنى، فكلٌّ هذه يصدق عليها مقام إبراهيم، زمان قيامه ومكانه وأصل قيامه بما قام، وإنما خصَّ بالذكر أمن المقام وفرض حجّ البيت، كنموذَجَيْنِ من الآيات التكوينية والتشريعية.

كما وأن مقام إبراهيم أياً كان لهذا البيت المبارك هو من الآيات البينات لفضله على القدس وما سواه من البيوت المقدّسة طول الرسالات، حيث ترى موضع قدم الخليل في الصخرة حيث ألان الله سبحانه له أصلادها بعد الصلابة وخلخل أجزاءها بعد الكثافة حتى أثَّرت قدمه فيها راسخة وتغلغلت سانحة كما يُتغلغل في الأشياء الرخوة والأرض الخوارة.

فلذلك البيت فضله المنقطع النظير، لا يخلو قريباً من طائفٍ أو مصلٍّ، ولا بعيداً من مستقبِلٍ له في صلاة وسواها، آناء الليل وأطراف النهار، فإن قضية كروية الأرض دوران الآفاق فتداوُم أوقات الصلوات الخمس في كلّ الأوقات دونما استثناء.

و﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أدبياً قد يكون مبتدءً خبره المحذوف «منها» أو بدلاً من «آيات» مع «من دخله - ولله». . . أو عطف بيان.

٥ - ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا. . .﴾:

أتراه أمناً شرعياً؟ ولا يخصُّ البيت! فكلٌّ داخل في بيت وسواه وخارج عنه آمن في شرعة الله إذا لم يستحق خلاف الأمن كالجاني!.

أم أمناً واقعياً؟ ولم يأمن فيه سيّد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام وكثير مثله تقتيلاً أو نفياً وتشريداً! فكيف يكون الأمن من ميّزاته بين البيوت وسواها من مدخل أو مخرج؟!.

وقد سأل إبراهيم أمنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا. . .﴾[1] فاستُجيب له: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[2]!.

قد يعني ﴿ءَامِنًا﴾ أمناً زائداً على سواه شرعياً وواقعياً كما هو الواقع طول تاريخه المجيد، ولم يختص به أصل الأمِن بنوعيه، وإنما أصبح أمنه الخاص فيهما من ميزاته.

فالكعبة آمنة كما هنا، والحرم الحاوي لها ولمكة كلها آمن: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾[3] ولكن أين أمن من أمن.

فالداخل في الكعبة أو المسجد الحرام آمن مهما كان مجرماً، ولكن يضيَّق عليه في المأكل والمشرب حتى يخرج فيقام عليه الحدّ، إلّا إذا جنى في نفس المسجد الحرام أو الكعبة المُباركة فيقام عليه الحدّ فيما جنى[4] والكعبة المباركة هي منقطعة النظير في ذلك الأمن كما في سواه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٤) الدر المنثور ٢: ٥٥ - أخرج البيهقي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من دخل =

ثم ﴿ءَامِنًاۗ﴾ يعمُّ بأس الآخرة إلى الدنيا وبأحرى، إلّا إذا دخل غير تائب عما اقترف، غير خارج عن معصية الله وهو في حرم الله، فإنه ناقضٌ أمنَه، لأنه ناقص في دخوله[1].

وأمن الداخل في الكعبة أو المسجد الحرام أأمن من الداخل في مكة أو الحرم، ولم يأت ﴿ءَامِنًاۗ﴾ لداخل إلّا هنا، ثم «بلداً - أو - حرماً آمناً».

= البيت دخل في حسنة وخرج من سيئة مغفوراً له وفيه أخرج البيهقي في الشعب عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: من مات في أحد الحرمين بعث آمناً - وفيه عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي وجاء يوم القيامة من الآمنين.

وفي نور الثقلين ١ : ٣٦٨ عن علي بن عبد العزيز قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك قول الله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ فقد يدخله المرجىء والقدري والحروري والزنديق الذي لا يؤمن بالله؟ قال: لا ولا كرامة! قلت: فمه جعلت فداك؟ قال: من دخله وهو عارف بحقنا كما هو عارف به خرج من ذنوبه وكفى هم الدنيا والآخرة.

وفيه عن أمالي الصدوق بإسناده إلى النبي ﷺ عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن الله جلّ جلاله حديث طويل وفيه يقول في حق علي عليه السلام: وجعلته العلم الهادي من الضلالة وبابي الذي أوتى به منه وبيتي الذي من دخله كان آمناً من ناري.

وفيه في الكافي بسند متصل عن عبد الخالق الصيقل قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية فقال: لقد سألني عن شيء ما سألني أحد إلّا من شاء الله، قال: من أمّ هذا البيت وهو يعلم أنه البيت الذي أمره الله عزّ وجلّ به وعرفنا أهل البيت حق معرفتنا كان آمناً في الدنيا والآخرة.

وفيه عن القمي بسند متصل عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أردت دخول الكعبة فاغتسل قبل أن تدخلها ولا تدخلها بحذاء وتقول إذا دخلت: اللّهم إنك قلت: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ فآمني من عذاب النار...

وبإسناده إلى سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا بدَّ للصرورة أن يدخل البيت قبل أن يرجع، فإذا دخلته فادخله بسكينةٍ ووقارٍ ثم ائت كلَّ زاوية من زاوياه ثم قل: اللّهم إنك قلت: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ فآمني من عذاب يوم القيامة.

(١) روى الحلبي في الحسن عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧] قال: إذا أحدث العبد جناية في غير الحرم ثم فرّ إلى الحرم لم يسع لأحد أن يأخذه في الحرم ولكن يمنع من السوق فلا يبايع ولا يطعم ولا يكلّم فإنه إذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤخذ وإذا جنى في الحرم جناية أُقيم عليه الحدّ في الحرم لأنه لم يرع للحرم حرمته، أقول وبمضمونه أخبار متظافرة قد يصح دعوى التواتر فيها معنوياً.

وقد يقال إن ضمير الغائب في ﴿دَخَلَهُۥ﴾ راجع - فقط - إلى البيت، فلا أمن إذاً إلّا للداخل في نفس البيت، دون المسجد الحرام فضلاً عن الحرم كله؟.

لكن المرجع الأقرب الصالح لرجوعه إليه هو ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ويسع الحرم كلَّه، إضافة إلى آيات أَمْنِ مكة، والحرم كلّه وتظافر الروايات أن المأمن هو الحرم كلّه[1].

والقول إن «فيه» راجع إلى البيت، فمقام إبراهيم لا بدّ وأن يكون - فقط - في نفس البيت فـ «من دخله» يعني مقام إبراهيم وهو نفسه في البيت فلا يعني الحرم كله؟.

قد يُجاب عنه إضافة إلى ما قدمناه أن «فيه» تعني في البيت بما يتعلّق به وهو الحرم كلّه، كما ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[2] لا يعني أنه نفسه محلّ الذبح.

ثم وليس من المتعوّد دخول نفس البيت إلّا للخصوص من الزائرين، دون العامة فضلاً عن المجرمين.

وكذلك ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ليس داخل البيت نفسه، حتى القدر المتيقن منه وهو الحجر المقام فضلاً عن سواه من مقامه الواسع.

ثم ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ دون «أمن» وهي أَخْصَر، قد تلمح لعمق الأمن وثباته إلى يوم الدين، فـ «كان» تضرب إلى عمق الماضي، و«آمناً» الشامل لمثلث

---

(١) كما في حسنة عبد الله بن سنان قال سألته عن الآية البيت عنى أو الحرم كله؟ قال: من دخل الحرم مستجيراً من الناس فهو آمن من سخط الله ومن دخله من الوحش والطير كان آمناً أن يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم (التهذيب ٥: ٤٤٩ والفقيه ٢: ١٦٣ والكافي ١: ٢٢٨ والوافي ٨: ١٧ والوسائل الباب ١٤ من أبواب مقدمات الطواف ح ١٢).

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٣.

الزمان يستجرُّ الأمن إلى عُمق المستقبل، فقد يأمن داخله عمّا مضى من ذنوبه وما يأتي إلّا أن يحدث حدثاً يبطل دخوله في البيت.

وترى ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ يخص الناس دون الحيوان؟ وأَمْنَ الإنسان - بطبيعة الحال وبأحرى - أَمْن للحيوان، فـ «من هنا» يشمل كلّ ذي روح إنساناً وحيواناً[1] ثم وسائر آيات أمن الحرم لا تخص الإنسان: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا. . .﴾.

أو يصح أن يكون حرم الله آمناً للإنسان وليس آمناً للحيوان وهي أحوج إلى الأمن!؟ ثم الأمن مطلق يعم النفس والعرض والمال، فلا يُطالب المديون في الحرم ولا يُروَّع[2].

٦ - ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ. . .﴾:

اللّام في «لله» ليست للانتفاع إذ لا ينتفع الله من حج العباد وسواه من فعالهم، وإنما لاختصاص العهدة على الناس لله، فـ «على الناس» ليست لتثبت - فقط - فرض الحج على الناس، بل هو مع العهدة الثابتة عليهم، فلا تسقط بتركه ولا بالموت إذا استطاع إليه سبيلاً لوقتٍ مّا وتركه دون عذر.

و﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا كلّ الناس من مختلف المِلَل والنحل دونما تمييز، وكما أمر إبراهيم الخليل بأذانه العام: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٧٠ عن العلل بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سُئِل عن طير أهلي أقبل فدخل الحرم؟ قال: لا يمس لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].
وفيه عن الفقيه وسأل محمد بن مسلم أحدهما عليهما السلام عن الظبي يدخل الحرام؟ فقال: لا يؤخذ ولا يمس لأن الله يقول: ومن دخله كان آمناً.

(٢) المصدر في الكافي بسند متصل عن سماعة بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل لي عليه مال فغاب عني زماناً فرأيته يطوف حول الكعبة أفأتقاضاه مالي؟ قال: لا - لا تسلم عليه ولا تروعه حتى يخرج من الحرم.

كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ...﴾[(١)] وآية ثالثة مدنية ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ...﴾[(٢)] ولكنها لا تخاطب إلّا من يحج، أم هو شاغل بأداء مناسكه، حيث الإتمام لا يصح إلّا فيما اشتغلت به.

ولقد أذَّن النبي كما أمر في أُخريات العهد المدني قُبَيْل الفتح، مرة للمسلمين حيث أمر المؤذنين أن يؤذنوا...[(٣)] وأخرى للمِلَل الست.

فلما نزلت آية الحج هذه جمع الرسول ﷺ أهل الأديان الستة المسلمين والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركين فخطبهم وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فآمن به المسلمون وكفرت به المِلَل الخمس وقالوا لا نؤمن به ولا نصلّي إليه ولا نحجه فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[(٤)].

وترى كيف تُفرض فريضة على الناس كلهم من استطاع... وأصل الشروط في صحتها الإيمان بالله واليوم الآخر والإسلام، فكيف تُفرض على

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) فروع الكافي ١: ٢٣٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ أقام بالمدينة عشر سنين لم يحجّ ثم أنزل الله سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ...﴾ [الحَجّ: ٢٧] فأمر المؤذنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتهم بأن رسول الله ﷺ يحجّ في عامه هذا فعلم من حضر المدينة وأهل العوالي والأعراب.
أقول: وآية الأذان والاستطاعة مدنيتان، فلم يكن تأخير للحج عن فرضه، وحتى لو كان فلجهات أمنية أماهيه، والرسول أعرف بتكليفه من كل عارف!.

(٤) الدر المنثور ٢: ٥٧ - أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك قال: وفي الدر المنثور ٢: ٥٧ أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا...﴾ [آل عِمرَان: ٨٥] قالت اليهود فنحن مسلمون فقال لهم النبي ﷺ إن الله فرض على المسلمين حج البيت فقالوا: لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا قال الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].

المشركين وسواهم من غير المؤمنين؟ إنها فريضة جماهيرية يستطيعها كلّ من استطاع إليه سبيلاً، ومن السبيل إليها تحصيل شرطها الأصيل وهو الإسلام، وليس الحج فقط فرضاً على كافة المستطيعين من المكلفين بل هو في كلّ فرائض الدين كما الصلاة والزكاة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وهنا الأساس في فرض الحج هم كافة الناس وعلى هامشهم الجن وسائر المكلفين: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وأما الكفار القُصَّر المستضعفون الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً إلى الإيمان غير مقصرين فلا، كما المسلمون غير البالغين أو المجانين أو المرضى والفقراء أو المحجوزين عن الحج، أم أياً كانوا ممن لا يستطيع إليه سبيلاً لا يشملهم فرضه كما في سائر الفرائض.

إلّا أن الحج فيها تأكيدات أكثر من غيرها إلّا الصلاة، فـ «لله» تأكيد لفرضه أنه من حقوق الألوهية، و«على الناس» تأكيد ثانٍ، وثالث إذ قدم عامة الناس كأنه فرض عليهم دونما شروط، ثم استثنى بـ ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ظروف الحرج والعسر عن أدائه، وفي الإبدال تثنيةٌ للمراد فتأكيد له حيث يلمح المبدل عنه كأنه فرض مطلق، ثم البدل بيان لحدّه، وذلك تأكيدٌ أكيد لفرض الحج على المستطيعين، ثم ﴿وَمَن كَفَرَ...﴾ تهديد شديد بالكافر بفرضه، ثم التارك له على فرضه وهو مؤمنٌ به وهو الكفر عملياً قرناً بكفر عقائدي!.

﴿...حِجُّ الْبَيْتِ﴾:

لقد ذكرت هذه الفريضة مرات عَشْر في القرآن كله، تسعاً «الحج»

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٢-٤٦.

فتحاً، ومرة يتيمة كما هنا ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ كسراً، وليس بين التسع آية تحمل فرض الحج كهذه إلّا آية الأذان، فما هو الحِج هنا والحَج في غيرها؟.

«الحَج» في الأصل هو القصد، ثم اصطلاحاً في شرعة الله هي القصد الأصل من الزيارات، فهو القصد إلى زيارة بيت الله، وهو كثرة القصد إلى من يُراد تعظيمه، وهو الكف، والغلبة بالحجة، والقدوم، وكثرة التردد، وقد يضمها كلّها حَج البيت، فإنه القصد إلى من تعظمه زيارة لبيته الحرام بديلاً عن زيارته نفسه المستحيلة، ومن شروطه الأصيلة الكفّ عن غير الله، والكف في هذه السبيل عن محارم الله، وقد يتمثل الكفّ في تلبيات الإحرام، وهو الغلبة بدليل على هواك والغلبة بمؤتمره على النسناس، أو أن الناس حضروه كما يجب، وشهدوا منافع لهم كما يجب، وقاموا قومتهم الجماهيرية على النسناس المعارضين شرعة الناس، إذاً فالحج حجة وغلبة بالحجة!، وهو القدوم إلى بيت الله، وكثرة التردد اليه، ويجمعها كلها القصد القاطع لزيارة بيت الله.

وأما «الحِجّ» فهو اسم لذلك المصدر، فهو حاصل الحج، زيارة مقصودة، فليس لله على الناس - فقط - حَجُّ البيت وهو قصده - دون واقعه، بل حِجُّ البيت، وهو الزيارة المقصودة بكلِّ مناسكها، والمقصودة بكافة جنباتها السياسية العبادية الجماهيرية.

و﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ تعمُّ الحج والعمرة[1] فهما كالظرف والمجرور إذا

(١) جامع الأحاديث ١٠ : ٢٢١ حسنة عمر بن أذينة قال كتبت إلى أبي عبد الله عليه السلام بمسائل بعضها مع ابن بكير وبعضها مع أبي العباس فجاء الجواب بإملائه: سألت عن قول الله عز وجل : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]، يعني به الحج والعمرة جميعاً لأنهما مفروضان وسألته عن قول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦] قال يعني بتمامهما أداءهما واتقاء ما يتقي المحرم فيهما، وسألته عن الحج الأكبر قال: الحج الأكبر الوقوف بعرفة ورمي الحجار والحج الأصغر العمرة. =

اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فـ ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾(١) تفصل بينهما، والحج بمفردها تشملهما، فالعمرة واجبة كما الحج، سواء أكانت مع الحج، أم مفردة لمن يستطيع الحج معها أو لا يستطيعه.

فـ ﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾ هو زيارة البيت، عمرة مفردة، أم تمتعاً مع حجها، ومن آياتها ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾(٢) فيقابله الحج الأصغر وهو العمرة مفردة وتمتعاً، إذاً فهي حج كما هو حج.

ومما يفرض العمرة كما الحج ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ...﴾(٣).

﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾:

﴿مَنِ﴾ هنا بدلٌ عن «الناس» إذاً فالناس المستطيعون إليه سبيلاً هم المعنيُّون بفرض الحج، وهل إنه أمرٌ بفوره فَوْرَ استطاعته لوقته فلا يجوز

= وفيه ٢٢٢ عن دعائم الإسلام عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه سُئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].. يعني به الحج دون العمرة؟ قال: لا ولكن يعني به الحج والعمرة جميعاً لأنهما مفروضان وتلا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦] وقال: تمامهما أداؤهما.

أقول: وفيه أحاديث جمّة كلها تفرض العمرة كالحج بسناد آية الاستطاعة وآية العمرة دون فصل بين أقسام العمرة.

وفيه ص ٢٢٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: العمرة واجبة على الخلق بمنزلة الحج على من استطاع لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦] وإنما نزلت العمرة بالمدينة، قال قلت له: فمن تمتع بالعمرة إلى الحج أيجزي ذلك عنه؟ قال: نعم - أقول إجزاء عمرة التمتع عن العمرة لا يصلح إلّا أن تكون المجزى عنه العمرة المفردة، ومثله موثقة يعقوب بن شعيب عنه عليه السلام.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

تسويفه دون عذر؟ طبعاً نعم! فإنه قضية أصل الأمر، ولا سيما المحدّد بالاستطاعة الحاصلة، فليؤدَّ فورها لموسمه.

وهل تكفي حجة الإسلام مرة واحدة طول عمر التكليف؟ طبعاً نعم! فلو كانت فرضاً أكثر منها أم كلّ سنة ما دامت الاستطاعة لصرّحت بها الآية، والآتي بها مرة مستطاعة لم يكفر بها عملياً إذ حققها، فلا تندِّد به ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ و﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ ليست لتدلّ على أكثر من مرة واحدة، إلّا إذا صرّحت الآية أو صرّحت به السنَّة، والرسول ﷺ يقول جواباً عن سؤال: «أفي كلِّ عام يا رسول الله؟ لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة فمن زاد فتطوَّع»[1].

والاستطاعة هي طلب الطَّوْعِ عقلياً وعقلائياً ومالياً وأمنياً من صحة وحفاظ عرض ونفس وسواهما من النواميس الخمس، وأمن طريق، أمّا ذا من طوع دون عسر ولا حرج، لا في طريق الحج قبله ولا في مناسكه ولا في رجوعه، بحيث لا يتعسّر أو يتحرّج بسبب الحج.

فمادة الوجوب هنا هي استطاعة سبيل إلى حِجِّ البيت، وطبعاً دون عُسْرٍ

---

(١) الدر المنثور ٢: ٥٥ - أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام...؟

وأخرج مثله باختلاف يسير أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن أبي حاتم والحاكم عن علي عليه السلام قال: لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾ [آل عِمرَان: ٩٧] قالوا يا رسول الله ﷺ... - بزيادة - فأنزل الله: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المَائدة: ١٠١].

وفيه أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ...﴾ قال رجل يا رسول الله أفي كلِّ عام؟

قال: والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما قمتم بها ولو تركتموها لكفرتم فذروني ما وذرتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبيائهم واختلافهم عليهم فإذا أمرتكم بأمرٍ فأتمروه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن أمرٍ فاجتنبوه.

ولا حرج، وليس تفسيرها بالزاد والراحلة في المستفيضة المروية عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام، إلّا تفسيراً بالأكثرية الساحقة من مصاديق الاستطاعة حيث القلة القليلة هم المستطيعون دون زاد حاضرٍ وراحلة، بل المُشاة هم السابقون في آية الحج على الرُّكْب: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ...﴾[1] [2].

إذاً فـ «حجة الإسلام واجبة على من أطاق المشي من المسلمين ولقد كان أكثر من حجَّ مع النبي ﷺ مُشاة»[3] وليس من عنده زاد وراحلة إلّا ممن يستطيع الحج، لا أنه المستطيع لا سواه[4].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) الدر المنثور ٢: ٥٦ أخرج تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة عن الرسول ﷺ الدارقطني والحاكم وصححه عن أنس عنه ﷺ ومثله عن الحسن وعائشة وابن مسعود عنه وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه عنه ﷺ وجابر بن عبد الله عنه ﷺ وعن علي عليه السلام عنه ﷺ في الآية قال: تجد ظهر بعير.

وقد روى أصحابنا بطرق عدة عن أئمة أهل البيت تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة وكذلك تخلية السرب وصحة البدن، ودور الراحلة هو الأكثرية الساحقة من استطاعة السبيل إلى الحج فلا تستغرق كل المستطيعين.

(٣) المصدر السابق.

(٤) جامع أحاديث الشيعة ١٠: ٢٥١ صحيحة معاوية بن عمار قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل عليه دين أعليه أن يحج؟ قال: نعم إن حجة الإسلام واجبة... ولقد مرَّ رسول الله ﷺ بكراع الغميم فشكوا إليه الجهد فقال: شدوا أزركم واستبطنوا ففعلوا ذلك فذهب عنهم.

وفيه صحيحة عبد الرحمن بن الحجاج قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الحج على الغني والفقير؟ فقال: الحج على الناس جميعاً كبارهم وصغارهم فمن كان له عذر عذره الله.

وصحيحة حفص عن أبي عبد الله عليه السلام عن آية الاستطاعة ما يعني بذلك؟ قال: من كان صحيحاً في بدنه مخلى سربه له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج.

وفي الدر المنثور ٢: ٥٦ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد في كتاب الإيمان وأبو يعلى والبيهقي عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً.

وفي جامع الأحاديث ١٠: ٢٢٩ صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في آية الاستطاعة ما=

ثم المُحتاج إلى زادٍ حاضرٍ وراحلة، إن استطاع الحصول عليها دون عُسْرٍ ولا حَرَجٍ، فهو ممن استطاع إليه سبيلاً، وليس تحصيلهما تحصيلاً للاستطاعة، إلّا إذا كانا هما - فقط - الاستطاعة، كيف لا وقد أُمر الفقير أن يخدم القوم ويخرج معهم(١).

كيف لا! وآية الأذان تُقدِّم المشاة على الركْب: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ...﴾(٢).

هنا ﴿يَأْتُوكَ﴾ دون «يأتونك» جواب لأمر الأذان، والأمر بالأمر يخلف واجب الأمر، ثم ﴿رِجَالًا﴾ جمع راجل ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: هزيل ﴿يَأْتِينَ﴾:

كلّ ضامر بركبها، و﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يعم ﴿رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾:

يأتوك - يأتين: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

ولأن ﴿سَبِيلًا﴾ هي الطريق المنحدرة، فإذا كانت السبيل إليه حاصلة فقد

= السبيل؟ قال: أن يكون له ما يحج به، قال: قلت من عرض عليه ما يحج به فاستحيى من ذلك أهو ممن يستطيع إليه سبيلاً؟ قال: نعم ما شأنه يستحي ولو يحج على حمار أبتر فإن كان يطيق أن يمشي بعضاً ويركب بعضاً فليحج.

أقول وروى مثله العياشي في تفسيره عنه عليه السلام ودعائم الإسلام عنه عليه السلام والتهذيب في الصحيح عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام والصحيح عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام والتوحيد في الصحيح عنه عليه السلام فالروايات في ذلك قد تبلغ حدّ التواتر والأصل هنا هو نص آية الأذان والإطلاق كالنص في آية الاستطاعة، فلا مجال للقول أن فاقد الزاد والراحلة، المستطيع للحج دون عسر ولا حرج ليس مستطيعاً للحج.

(١) جامع أحاديث الشيعة ١٠: ٢٥١ صحيحة أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾ [آل عِمرَان: ٩٧] قال: يمشي إن لم يكن عنده، قلت: لا يقدر على المشي؟ قال: يمشي ويركب، قلت: لا يقدر على ذلك؟ قال: يخدم القوم ويخرج معهم، ورواه مثله العياشي في تفسيره عن أبي بصير عنه عليه السلام.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٧.

استطاع إليه سبيلاً، وإذا استطاع الحصول على هذه السبيل، إزالة لعُسْرِها أو حرجها، دونما عُسْرٍ أو حرجٍ فيها فقد استطاع إليه سبيلاً، حيث السبيل المستطاعة هي الميسورة وإن بوسائط قريبة أم غريبة.

إذاً فالملحد له إليه سبيل بالإيمان بالله فإنه مَيْسورٌ ببراهينه، والمشرك له إليه سبيل بتوحيد الله، والكتابي له إليه سبيل بالإسلام، والمسلم الفقير المريض الذي ليس له أمن الطريق أمّاذا من السبل غير الحاصلة بالفعل، إنه له إليه سبيل ما استطاع الحصول على المال والصحة وأمن الطريق أما هي من السبل دون حرجٍ ولا عُسْرٍ، فالمستطيعون إلى الحج سبيلاً - إذاً - هم الأكثرية المطلقة من الناس، فلذلك ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾.

وما اشتراط الزاد والراحلة إلَّا اشتراطاً لكونهما مَيْسورَيْنِ حاضراً وسواه، فربَّ زاد وراحلة غير مَيْسورَيْنِ وهما حاضران، أم هما مَيْسوران وليسا بحاضِرَيْنِ، فالأصل هو استطاعة السبيل إلى الحج بمقدمات قريبة أم بعيدة ما دامت غير حرجة ولا معسورة.

والاستطاعة المشروط بها فرض الحج تعم العقلية والعقلائية والشرعية والبدنية والأمنية والمالية والعرضية أمَّاهيه مما تجعل الحج بطوع الحاج دونما عسر ولا حرج.

فما أمكن منها الحصول عليها بمحاولات مستطاعة كتحصيل الزاد والراحلة والصحة البدنية والحالة الأمنية أماهيه، وجب الحصول عليها، فإن هذه الإمكانية هي من استطاعة السبيل إلى الحج، حيث السبل إليه مختلفة، وما لم يمكن أو كان في عسر أو حرج فلا يجب، فالمدار هو استطاعة السبيل إليه أياً كان وأيّان، دونما حصر بزاد وراحلة أم وصحة وأمنية فعلية ما أمكن الحصول عليه واستطاع السبيل إليه.

ثم الاستطاعة قد تكون فردية كما بيناها، وأخرى اجتماعية، فلئن حجَّ عامة المكلفين بقي وجوب الحج على جمع من الجماهير المؤمنة ثابتة إذ يُحرّم تعطيل هذا المؤتمر السنوي الإسلامي العالمي، كما تلمح له الآية ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وتصرح مستفيضة الروايات[١].

٧ - ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

والكُفْرُ هنا راجع إلى نُكران فرض الحج فإنه المحور الأصيل في الآية[٢] ومن ثم عمل الحج[٣] بفارق أن الأوَّل كُفْرٌ عقيدي والثاني عملي، ثم الكفر

(١) جامع أحاديث الشيعة ١٠ : ٢١٧ - ٢٢١ باب حرمة تعطيل البيت عن الحج في كل عام وأن الناس لو عطلوه لوجب على الوالي أن يجبرهم عليه وإن لم يكن لهم مال ينفق عليهم من بيت المال فإن الدين قائم ما قامت الكعبة. .

ومن هذه الأحاديث (٦٣٧) عن الكافي والفقيه عن حفص بن البختري وهشام بن سالم ومعاوية بن عمار وغيرهم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو أن الناس تركوا الحج لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده ولو تركوا زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين.

(٢) جامع الأحاديث ١٠: ٢٢٩ القطب الراوندي في لبِّ الألباب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال رجل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ترك الحج فقد كفر؟ قال: لا ولكن من جحد الحق فقد كفر.

وفيه ٢٣٠ علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام في حديث حول الآية قلت فمن لم يحج فقد كفر؟

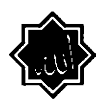
قال: لا ولكن من قال: هذا ليس هكذا فقد كفر.

وفي الدر المنثور ٢: ٥٧ لما نزلت آية الحج جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل الملل فقال: إن الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت فلم يقبله إلّا المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نستقبله فأنزل الله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: ١٢٦]. .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي داود نفيع قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧]. . . ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: ١٢٦]. . فقام رجل من هزيل فقال يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من تركه كفر؟ قال: من تركه لا يخاف عقوبته ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك.

(٣) فيه ٢٣٠ عن الاحتجاج في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على الخوارج: ولقد قال الله جل=

بثواب الحج إن أتى به وعدم العقاب على تركه سواء أتى به في هذه الحالة أم ترك، وهذه الأربع كلها معنيّة بـ ﴿وَمَن كَفَرَ...﴾ حيث الآية تشمل هذه الزوايا: فرضه - تطبيقه - ثوابه، وعقاب تركه - ثم وتركه، كما والأحاديث تدلنا على هذا الإطلاق.



= ذكره ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧]... فلو ترك الناس الحج لم يكن البيت ليكفر بتركهم إياه ولكن كانوا يكفرون بتركهم إياه لأن الله قد نصبه لهم علماً وكذلك نصبني علماً حيث قال رسول الله ﷺ: يا علي أنت مني بمنزلة الكعبة تؤتى ولا تأتي، وفيه عن فقه الرضا عليه السلام وسُمي تارك الحج كافراً وتوعد على تاركه من النار فنعوذ بالله.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

استفهام إنكاري بتعريض عريض أنْ كيف يكفرُ الكتابي بآيات الله وهو عشيرها لكونه من أهل الكتاب، وذلك النكران هو أضل سبيلاً لهم أولاء الأنكاد وللذين آمنوا ببساطة ولمَّا يقع إيمانهم موقعه الصامد، حاسبين أن لو كان القرآن ورسوله حقاً من الله لآمن به أهل الكتاب قبلنا، إلّا مَن هداه الله ونجاه بما جاهد في سبيل الله وكرَّس حياته لله فـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾(١).

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ رسالية ورسولية، النازلة بعد ما أنزل إليكم من كتاب ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ في كُفرِكُم وبمختلف أساليب التضليل، لا تُخفى عليه منكم خافية، وقد كانوا يظنون أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾(٢).

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٧٦، ٧٧.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾:

ليس فحسب أنكم ﴿تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم، بل و﴿تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ صداً بكفركم، وآخر بإيمانكم ثم كفركم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] وثالث بدعاياتكم الباطلة الخواء، عائشين ثالوث الصد عن سبيل الله مَن آمن، حال أنكم ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تطلّباً للسبيل العوجاء ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ سبيلِ الله لمكان الكتاب، و﴿شُهَدَآءُ﴾ الحق بما شهد لكم الكتاب ورسول الكتاب، ﴿وَأَنتُمْ﴾ يجب عليكم أن تكونوا ﴿شُهَدَآءُ﴾ الحق لمن لم يشهده ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ على ماذا تعملون بكفرهم وصدِّكم عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً!.

فشهادةُ الحق والشهادة بالحق والشهادة على الحق وشهادة نُكران الحق هي زوايا أربع من ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ مما يضخِّم مسؤولية الكافرين الصادّين عن سبيل الله.

ذلك كَيْدٌ لعين لئيم من أهل الكتاب الكافرين، فحِذار حِذار للذين آمنوا أن يتخذوا فريقاً منهم أولياء لأنهم أهل الكتاب:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ (١٠٠)﴾:

وإنما حذروا عن طاعة فريق منهم وطاعة غير المؤمن محظور أياً كان؟ لأن أهل الكتاب فرق ثلاث، منهم الصادون عن سبيل الله وهم الذين حُذرٌ عن طاعتهم، ومنهم المؤمنون بهذا الرسول وكتابه وهم آهلون للطاعة في سبيل الله وهم قادة الإيمان بسند الكتاب، ومنهم عوان لأنهم ﴿أُمِّيُّونَ لَا

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.

يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[١] لا يدعون إلى شيء حتى يُطاعوا وهم حائرون في أمرهم أنفسهم، مهما افترقوا إلى متحرٍّ عن الحق ليتبعه، ومُهمل يعيش حائراً مائراً، والجامع بينهما ألا دور لهما في دعوة حتى يأتي دور الطاعة سلباً وإيجاباً، ثم ولماذا يُطاع أهل الكتاب؟ ألكي يهدوكم سبيل الرشاد؟ وأنتم راشدون بكتاب الله ورسوله!:

ذلك وكما قال رسول الله ﷺ حينما دسَّ يهودي بين الأوس والخزرج فأخذا يتقاتلان: «يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوّهم فألقوا السلاح وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله...»[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(٢) الدر المنثور ٢: ٥٧ - اخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مرّ شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملا بني قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار فأمر فتى شاباً معه من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار وكان يوم بعاث اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظي أحد بني حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه إن شئتم والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها الى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: ...

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ بعد إيمانكم - بطاعتهم ثم كفركم - مهما دخِلت فيكم الدعايات الكتابية الكافرة وأنتم أقوى منهم حجة، ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ خالصة عن كلّ دسٍّ وتجديفٍ، آيات هي دلالات ذات بُعْدَيْنِ على الحق، إذ تدل بنفسها على أنها من الله، ثم تدل على حظائر القدس، وهي أَتْقَنُ الآيات الرسالية على مدارِ الزمن الرسالي.

ثم ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ وليس فيهم رسولهم، فأنتم مزوّدون بالحجتّيْنِ البالغتين الإلهيتّيْنِ وهم خواء عنهما، لا يعيشون إلّا خليطاً من وحي السماء بوحي الأرض ف ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾؟!

ثم ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ بالله كأصل في كافة الحالات ولا سيّما في أجواء التضليل والتجديل، وبكتاب الله ورسوله دلالة صادقة معصومة على الله لأنه اعتصام بالله، حيث يذكر بعد «آيات الله ورسوله» بل هو الأصل والسبيل الوحيد في الاعتصام بالله، ثم زيادة الهدى من الله تتبنّاه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[(١)].

فمن يزعم أنه معتصمٌ بالله، تاركاً لكتاب الله ورسوله، فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً، ف ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ . . .﴾[(٢)].

أجل هُناك اعتصام بالله دون وسيط وهو أن تدعو لله أن يهديك ويغفر لك ذنوبك، ولكنه لا يفيد ما لم تعتصم بالله بوسيط كتابه ورسوله وهما العاصِمان بالله عن ورطات الجهل والطغوى إلى درجات العلم والتقوى[(٣)]

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٣) الدر المنثور ٢: ٥٩ - أخرج تمام في فوائده عن كعب بن مالك قال قال رسول الله ﷺ :=

ف«من جعل الهموم همًّا واحداً كفاه الله ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة ومن تشاعبت به الهموم لم يبال الله في أيِّ أوديةٍ هلك»[1].

و«أيما عبد أقبل قِبَل ما يحبُّ الله عز وجل أقبل الله قِبَل ما يحبُّ ومن اعتصم بالله عصمهُ الله ومن أَقْبَل الله قِبَله وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض...»[2] و«المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله»[3].

فمُثلَّث الاعتصام بالله ينجي أهل الله عن ثالوث الصدِّ عن سبيل الله ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾[4] ﴿... فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5].

وهنا ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ﴾ مما يثبِّت أن الكتاب والسنة يَكْفيان في التدليل على الحق المطلق في أجواء التضليلات فضلاً

= أوحى الله الى داود يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات بمن فيها إلّا جعلت له من بين ذلك مخرجاً وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف منه نيته إلّا قطعت أسباب السماء من بين يديه وأسخت الهواء من تحت قدميه.

(١) المصدر أخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ...

(٢) نور الثقلين ١: ٢٧٦ عن أصول الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ...

(٣) المصدر عن معاني الأخبار بإسناده الى حسين الأشقر قال قلت لهاشم بن الحكم: ما معنى قولكم إن الإمام لا يكون إلا معصوماً؟ فقال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: ...

(٤) سورة الحج، الآيات: ٥٢-٥٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

عما سواها، فما دام الرسول فينا فهو الذي يهدينا إلى ما خفي عنا من دلالات الكتاب وتأويلاته وإذا ارتحل عنا فسُنَّتُه الثابتة المعروفة بموافقة الكتاب هي الحجة بعد الكتاب، ثم لا حجة بعدهما لأي سلبٍ أو إيجابٍ، في أي قليل أو جليل.

ولأن العترة الطاهرة المعصومة هم حملة السُّنة الصالحة نسمع الرسول ﷺ يقول فيما تواتر عنه: «إني تارك فيكم الثقلَيْنِ كتاب الله وعترتي» فمهما صدقنا ما يروى عنه: «وسُنّتي» بدلاً عن عترتي ما كنا نصدق حاملاً للسنة إلّا الأمناء المعصومين وهم عترته.

فـ«سُنّتي» لأنها سُنّتي، ثم «عِتْرتي» لأنهم المأمونون على سُنّتي، كما وهم الذين يفسرون الكتاب حقه كما أنا الرسول.

ولو أن هناك غير الكتاب والسُّنة هادياً إلى الصراط المستقيم - من إجماعات وشهرات ونظرات واجتهادات بقياسات واستحسانات واستصلاحات وأشباهها من غير الكتاب والسُّنة - لجاء ذكره - وإن مرة يتيمة أو إشارة - في الذكر الحكيم.

فإنما هو الاعتصام بالله في خِضَّمِ الضلالات والتضليلات مهما قويت فإن الله أقوى والمضلّون هم أضعف وأغوى.

وماذا بعد الهدي إلى صراط مستقيم، فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تُحّركه العواصف ولا تزيله القواصف... وهنا اعتصام فرديٌّ للحفاظ على الإيمان الفردي، دفعاً لمكائد الصادين عن سبيل الله، ثم اعتصام جمعي جماهيري للمؤمنين بالله يعصمهم عن المكائد الجماهيرية الكافرة، ويُحافظ على دولة الإيمان عالية خفاقة، تبيِّن الآيات التالية شروطاً متأصلة لذلك الاعتصام.

هذه الآيات تبيّن لنا الشروط الإيجابية الأربعة والسلبية الثلاثة والنتائج المنتوجة على ضوء تطبيقها ومنها ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى...﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾:

ركيزة أولى بعد الإيمان تقوم عليها الجماعة المسلمة تحقيقاً لكيانها وتأدية لدورها، صموداً في وجه أعدائها الألداء، هي تقوى الله حق تُقاته والموت مسلماً، فبدون هذه الركيزة تكون الأمة فالتة في تجمُّع جاهلٍ قاحلٍ مهما ملكت من ادعاءات وحملت من أسماء براقة مشرقة كـ: «المؤمنون».

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولكن كيف وكم وإلى أين؟ ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ كمّاً وكيفاً ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مدى وغاية، أن تُصبح حياة الإيمان تقوى حقة حقيقية بحذافيرها في كلِّ صغيرة وكبيرة.

وليس لـ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حدٌّ يتصور، فكلّما أوغل القلب في هذه السبيل تكشفت له آماد وآفاق وجدت له أشواق، في تيقظ من شوقه إلى درجات فوق ما ارتقى.

وقد يُروى عن أحق الأتقياء في ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ - «أن يُطاع فلا يُعصى ويذكر فلا يُنسى»[1] و«لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يعلم أن ما أصابه لم

(١) نور الثقلين ١: ٢٧٦ عن معاني الأخبار بإسناده إلى أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية قال: «يُطاع ولا يُعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر».
وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع عن عبد خير قال سألت علي بن أبي طالب عليه السلام عن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ...﴾ قال: والله ما عمل بها غير بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحن ذكرناه فلا ننساه ونحن شكرناه فلا نكفره ونحن أطعناه فلم نعصه فلما نزلت هذه الآية قال الصحابة لا نطيق ذلك فأنزل الله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].
أقول: لا نطيق - إن صح - يعني تلك الدرجة المعصومة من التقوى، فالآية الثانية بيان لـ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢] أنه على قدر الاستطاعة فلا يكلف غير المعصوم بتقوى المعصوم.

يكُن ليُخطئه وما أخطأه لم يكن ليُصيبه»[١].

إذاً «فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل فإنه لا يُرجى من رجعة العمر ما يُرجى من رجعة الرزق ما فات اليوم من الرزق رجي غداً زيادته وما فات أمس من العمر لم تُرج اليوم رجعته الرجاء مع الجائي واليأس مع الماضي فـ ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾»[٢].

والتُّقى الحقة هي المحلِّقة على ظاهر التقي وباطنه عِلماً واعتقاداً وعملاً صالحاً إسراراً وإعلاناً فـ: «الدنيا كلها جهل إلّا مواضع العلم والعلم كلّه حجة إلّا ما عُمل به والعمل كله رياء إلّا ما كان مخلصاً والإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختم له»[٣].

وترى كيف يؤمر المؤمنون أن يتقوا الله حق تُقاته وهو غير مُستطاعٍ لأحد أو مستحيل على كلِّ أحد حتى أوّل العابدين محمد ﷺ فضلاً عمن دونه من المؤمنين؟.

فهل إنها منسوخة بآية الاستطاعة ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[٤]؟ و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٥] و﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[٦]! فكيف يُكلّفهم بغير ما يستطيعون، وما لم يؤتهم من الطاقة حتى يتقون ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؟.

فرواية النسخ[٧] منسوخة - لأن فيها نسخاً للمحال بالممكن - أو مأوّلة

---

(١) المصدر أخرج الخطيب عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: . . .

(٢) نور الثقلين ١: ٢٧٦ عن نهج البلاغة قال عليه السلام: . . .

(٣) المصدر في عيون الأخبار بإسناده إلى داود بن سليمان القاري عن أبي الحسن الرضا عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: . . .

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٦) سورة الطلاق، الآية: ٧.

(٧) الدر المنثور ٢: ٥٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية اشتد=

بمعنى التخصيص، أنها خصت بآية الاستطاعة بقدر المستطاع فحق تُقاتهِ من الرعيل الأعلى، غير المُستطاع ممن دونهم، أنه لا يكلف به من لا يستطيعه، فلـ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ درجات، لا يكلف منها أحد إلّا قدر استطاعته، فقد تحلّق ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ على كلِّ مدارج ﴿تُقَاتِهِۦ﴾ حسب المُستطاع، و﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ بيان لـ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أنه ليس الحق الأوّل للسابقين في ﴿تُقَاتِهِۦ﴾ فأين النسخ أو التخصيص اللهم إلّا التفسير والتوضيح.

ذلك، فلـ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ درجة مستحيلة على الكلِّ وهي كما يحق لساحته تعالى، وأخرى مستطاعة للرعيل الأعلى غير مستطاعة لمن دونهم، وثالثة مستطاعة لمن دونهم، ولا تعني ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إلّا الأخيرين كلًّا في درجته حسب المستطاع.

فلا يعني ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إلّا الحق المطلوب منهم، المُستطاع لهم، كلٌّ على قَدَره وقدْرِه، فكما الإيمان درجات كذلك تقوى الإيمان درجات من أعلاها كما لأوّل العابدين إلى أدناها كما لآخر العابدين وبينهما عوان من المتقين.

وعلَّ الخطاب هنا في أعلاه موجه إلى المعصومين عليهم السلام كما في ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ... مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾[1].

ثم المستحيل على العباد هو معرفة الله حق معرفته وعبادته حق عبادته، وأما تقواه حق تُقاته فكما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «أن يُطاع فلا يعصى وأن يُذكر

= على القوم فقاموا حتى وردت عراقيبهم وتقرّحت جباههم فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وفيه عن ابن عباس قال: لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

فلا يُنسى» وهذا يطِم في خضِمِّه كلّ مراتب التقوى الحقة حسب مختلف القابليات والفاعليات، شاملة لحق العدالة والعصمة، ثم العاصي المقصر خارج عن نطاق الآية، والمعصومون هم في قمّتها العالية.

ولا يعني «يذكر فلا ينسى» أن المؤمن مأخوذ بذكره تعالى أبداً فإنه غير مُستطاع إلّا للمعصومين حيث الغفلات المُتاهة تخلّله، والشهوات المُباحة تتوسطه، والنوم والإغماء والتقية والمرض تحول دونه.

فإنما أُمروا أن يتقوا الله حق تُقاته كما يستطيعون، وليهابوا بلوغ أدنى حدود المعصية، ويقفوا عن أولى مراتب السيئة، فلا يقتربوها كيلا يقترفوها، فالمعاصي حمّى الله ومن حام حوم الحمّى أوشك أن يوقع فيها، فاجعل بينك وبين الحرام حاجزاً من الحلال، فإنك متى استوفيت جميع الحلال تاقت نفسك إلى فعل الحرام، وكلما كثرت الزواجر كانت على المعاصي أردع، والى فعل الطاعات أحوش وأجذب.

ذلك - فمن جانَب جميع ما نهاه الله عنه دون مقارفة ولا مقاربة، وأتى بجميع ما أمره الله به، وكل ذلك قدر المستطاع دون إهمال ولا تقصير، فقد اتقى الله حق تقاته.

وترى بعدُ كيف ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ والموت مسيَّر لا مخير؟ وكما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

هنا النهي مُوّجه إلى الموت دون إسلام، ناظراً إلى عاقبة الأمر لمن اتَّقى الله حق تُقاته، فلا تكفي هذه التقوى الحقة لفترة من حياة التكليف، بل والاستمرار فيها تكليف فوق تكليف، ومهما كان الموت مسيراً، فالموت حالة الإسلام مخيّر، أن يستمر التقي في تقواه، أو تكون كلّ لاحقة منه خيراً

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

من أولاه، تقدماً على طول خط الحياة في تقوى الله، دون تنازلٍ عن حدِّها المستطاعة ولا وقفة عليه.

وفي صيغة أخرى إن الإنسان مكتومٌ عنه أجله أياً كان لما في كتمانه من مصلحة تربوية، فلا يعرف متى تكون منيَّته، وعلى أي جنبٍ صرعته، فحين ينهاه الله أن يموت إلّا مسلماً فقد ألزمه في كلِّ حال على ذلك الإسلام، إذ لا يأمن على أية حال أن يموت عبطة أو هرماً.

ذلك ومن جملة كمال إسلام المؤمن التوبة واستدراك الذنوب الفارطة، فقد ألزمه سبحانه بما أمره ونهاه - مع التمسك بفرائض الأوقات وطاعاتها واجتناب محارمه ومقبحاته - أن يستدرك ماضيه بتوبته لكيلا يموت إلّا وهو مقطوع بإسلامه السليم.

ثم هنا خطاب المؤمنين أن يتقوا الله حق تقاته مما يشي بأن التقوى أخص من الإيمان، ومن ثم ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ غاية لتقوى المؤمنين ممّا يوضع أنه الإسلام بعد الإيمان بوسيط التقوى، فليس هو الإسلام قبل الإيمان ولا مع الإيمان وتقواه، بل هو الإسلام لله خالصاً مخلصاً نتيجة لتقوى الإيمان، إذاً فالإسلام الأول وهو الإقرار ذريعةُ الإيمان والإيمان ذريعة التقوى والتقوى ذريعة للإسلام الثاني فهو ذروة الإيمان والتقوى ونتيجة لهما.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

إن ذلك الإيمان والتقوى والإسلام لا تصح إلّا أن تتبنّى اعتصاماً بحبل الله جميعاً، فبدونه ليست هي عاصمة لحامليها ولا معصومة عن الأخطاء الموجهة إليها الهاجمة عليها.

والحبل حَبْلان مادي ومعنوي، سُمّي به لأن المتعلق به ينجو مما يخافه كالمتشبث بالحبل إذا وقع في غمرة أو ارتكس في هُوَّة، وكذلك الحبل العهد وثيقاً حيث يُستأنس بها من المخاوف، والحبال يستنقذ بها من المتالف وهذا هو التشابه بينهما.

فكلما كان صاحب الحبل أعلم وأقوى فحبله أعصم وأنجى، فَحَبْل الله ينجي المتمسك به من كلِّ عَطْبٍ وهوّة ويعصمه عن كلِّ خوفة.

لقد أمر الله المؤمنين - ككل - أن يتقوا الله حق تقاته ولا يموتن إلّا وهم مسلمون، فلا بدّ - إذاً - من حبل رباني يعتصمون به في حق تُقاته، فالتقوى دون حَبْلٍ هي قد تكون طغوى فإن الله يحب أن يُعبد كما يحب.

والاعتصام هو طلب العصمة وهي درجات ثلاث، عصمة بشرية دون حبل الله، وعصمة غير المعصومين بحبل الله، وعصمة المعصومين بحبل الله.

فلأن العصمة البشرية بالفطرة والعقلية والفكرة لا تكفي لها هدياً إلى صراط مستقيم، ثم العصمة المطلقة خاصة بالمعصومين، لذلك يؤمر المؤمنون أن يعتصموا بحبل الله جميعاً حتى يحصلوا على عصمة دون الطليقة، فكما المعصومون يُعصمون علمياً بحبل الله، كذلك من دونهم، كلّ على قدَره.

الاعتصام بحبل الله جميعاً يعصم المعتصمين فطرياً وعقلياً وفكرياً، علمياً وعقيدياً وخلقياً، سياسياً وحربياً واقتصادياً وسلطوياً، فهذه العشرة الكاملة من العصمة فردية وجماعية مضمونة للمعتصمين بحبل الله على أقدارهم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

وذلك الاعتصام يعتمد على أركان: المعتصم - المعتصم به - المعتصم عنه - المعتصم لأجله.

فالمعتصِم هم المؤمنون على درجاتهم من أعلى الإيمان كما المحمديون ﷺ، وإلى أدناه وبينهما متوسطون في الإيمان، حيث الكل مأمورون بتقوى الله حق تقاته، ومن حقها التقوى الجماعية بعد الفردية.

والمعتصَم به هو حبل الله، وهو وحي الله الأصيل غير الدخيل.

والمعتصم عنه هو كافة المزالق في الحياة الفردية والجماعية.

والمعتصم لأجله الحصول على كامل مرضاة الله في معرفته وطاعته وعبادته.

وعلى هذه الأركان الأربعة يتبنّى عرش الإيمان الصالح الصامد.

وللاعتصام بحبل الله شروط ثلاثة هي الاعتصام جميعاً - للمعتصمين جميعاً - بحبل الله جميعاً، فإن ﴿جَمِيعًا﴾ تتعلق بهذه الثلاثة جميعاً.

و﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ على وحدته تعمُّ الحبل الرسولي إلى الحبل الرسالي، وحدة ثنوية وثنوية ووحدوية، فإن محمداً هو القرآن والقرآن هو محمد، طالما كان القرآن بنفسه أطول وأدوم وأكمل وأعظم من محمد ﷺ فهُما وحدة متماسكة متجاوبة في كافة الحقول دونما أي أفول إلّا شخص الرسول ﷺ ولكن سنته باقية كما القرآن، مهما لم تتبيّن إلّا بالقرآن كما القرآن يتبيّن بها تفسيراً باطنياً وتأويلاً.

وكما المعصوم بالروح القدسي والعصمة الربانية يُعتصم علمياً بالقرآن، كذلك سائر المعتصمين بالقرآن يُعتصمون به على درجاتهم في العصمة البشرية وفرقان من الله ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[١].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

فلأن القرآن هو طليق النور من نور السماوات والأرض، فالاستنارة به للمعتصمين به تَعْصِمُهم على أقدار أنوارهم البهية المرضية.

ليس القرآن كتاب العلوم الرسمية التي تفتح أبوابها لكلِّ شاردٍ ومارِدٍ، إنما ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ فلا تفتح أبوابه المعنية في عناية الله إلّا لأهل الله.

وخيرُ المخارج عن المضايق هي مخارج الآيات ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ... قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[1].

فإتقان اللغة والأدب وإتقان التدبر والتفكير في استفسار الآيات بعضها ببعض، إن ذلك كله راحلة لسَفْر القرآن والزاد هو التقوى التي بها توصل إلى مرادات الله جل وعلا.

ثم وجميعاً في جمعية الاعتصام نفسه تعني جميع الطاقات والإمكانيات التي تصلح لذلك الاعتصام حيث تُصلحه.

فعلى كلّ مؤمن بالرسالة الإسلامية تجميع كل طاقاته في مهام أوقاته وأحسنها وأنضرها وأنظرها، تكريساً لها كلها للاعتصام بحبل الله، تقديماً له على سائر الحبال وكما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2].

ذلك وإلى تدبر واسع حول آية الاعتصام بحول الله الملك العلام.

ولنعرف «حبل الله» جيداً جاداً لكي نتمكن من الاعتصام به جميعاً ولا نتفرق عنه أو فيه؟ «حبل الله» لا تحمله إلّا هذه الآية اليتيمة، اللهم إلّا ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[3] وقد تعني ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حبل الله هنا مهما اختلفا محتداً في شريعتي القرآن والتوراة.

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

فقد يُخيّل إلى البُسطاء أنه غير مفسَّر في القرآن، والقرآن هو ككلٍّ حبلُ الله، إذ لا وسيط - منذ بزوغ الإسلام حتى القيامة الكبرى - بين الله وبين المرسل إليهم إلّا القرآن كأصل ثابت لا عوج له ولا حول عنه ولا أُفول لشمسه، ومن ثمَّ الرسول وذووه المعصومون عليهم السلام تفسيراً له وتأويلاً، وحبل القرآن أتم وأدوم وأكمل وأعظم، والحبل الظاهر الدائم هو المحور الأصيل لواجب الاعتصام على مدار زمن التكليف، كما إنه الحبل للرسول والأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

فهو الصراط المستقيم والنور المبين وحجة الله على الخلق أجمعين والشهيد لرب العالمين، فمواصفات القرآن في نفسه بأسمائه وفي آيات منه تؤكد لنا أنه حبل الله المتين وسببه الأمين لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستعتب، وكما يُروى عن ثاني الحبلين رسول القرآن صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»[1] و«إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تضلوا بعده أبداً»[2].

و«إني تارك فيكم كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة»[3].

ذلك حبل الله الأصيل، ومن ثم الرسول البديل الدليل على الله الجليل، ثم الذين يحملون ذلك الروح الرسالي المعصوم، الذين يُقال عنهم: «أوّلنا محمد - أوسطُنا محمد - آخِرُنا محمد وكُلُّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم» فإنهم هم

(١) الدر المنثور ٢: ٦٠ - اخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .

(٢) المصدر اخرج ابن أبي شيبة عن أبي شريح الخزاعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .
وفي معاني الأخبار عن السجاد عليه السلام في حديث: وحبل الله هو القرآن.

(٣) المصدر اخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن زيد بن أرقم قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إني . . .

الصادرون عن محمد كما محمد صادر عن الله في كتاب الله وسُنَّته الشارحة لكتاب الله.

صحيح أن ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ بإفراده يعني حبلاً واحداً لا ثاني له، وإلّا لقال حبلي الله أو حباله، ولكن محمداً ﷺ هو القرآن كما القرآن هو محمد ﷺ فرقدان لا يفترقان[1] وقد أشير إليها قبلُ بعدَ ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ مما يبرهن ثنوية الحبل حال وحدويته، وكذلك الآيات الآمرة باتباع الرسول ﷺ مصرحة بهذه التثنية الموحَدة الموحِدة.

لذلك لا يُصدّق أي حديث يُروى عن الرسول ﷺ أو حملة علم الرسول ﷺ إلّا إذا وافق كتاب الله - أم لأقل تقدير - لم يُخالفه، شريطة اطمئنان بصدوره عنهم بوجه صالح دونما تقية.

فلذلك نجد في الحديث المتواتر عن الرسول ﷺ أن حبل الله هما الثقلان، أحدهما أَطْوَل - أَكْبرَ - أَفْضلَ - أوّل - أَعْظَم - وهو كتاب الله والآخر الأصغر هم عترة رسول الله ﷺ رواه بمخمّس الأفضلية للكتاب الفريقان في قمة التواتر من أحاديث الإسلام عن زهاءِ ثلاثين من أصحاب الرسول ﷺ ونفر من الصحابيات عنه ﷺ[2].

---

(١) نور الثقلين ١ : ٢٧٧ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام قال: الإمام منا لا يكون إلّا معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها ولذلك لا يكون إلّا منصوصاً، فقيل له: يا بن رسول الله ﷺ فما معنى المعصوم؟ فقال: هو معتصم بحبل الله وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة والإمام يهدي الى القرآن والقرآن يهدي الى الإمام وذلك قول الله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

(٢) ففي الدر المنثور ٢ : ٦٠ - اخرج أحمد عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله عزّ وجلّ حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، وفيه أخرج الطبراني عن زيد بن أرقم قال قال رسول الله ﷺ: إني فرطٌ لكم وإنكم واردون علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين قيل=

. . . .

= وما الثقلان يا رسول الله ﷺ؟ قال: الأكبر كتاب الله عزوجل سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم وفتمسكوا به ولا تضلوا والأصغر عترتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض وسألت لهما ذاك ربي فلا تقدموهما لتهلكوا ولا تعلموهما فإنهما أعلم منكم، وفيه مثله أخرجه ابن سعد وأحمد والطبراني عن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ.
وفي جامع أحاديث الشيعة لأستاذنا الأقدم الأعلم المغفور له آية الله العظمى السيد البروجردي نقلاً عن العقبات أنه روى حديث الثقلين نفر كبير من الصحابة ثم ذكر اسماء كلٍّ واحد منهم من المائة الأولى إلى الثالثة عشرة، في كل مائة نحواً من عشرين الى ثلاثين رجلاً من كبار أحبار الحديث وإليكم نماذج من أسمائهم: منهم علي بن أبي طالب عليه السلام أخرجه عنه خمسة من الأعاظم مثل الطبري والسيوطي، ومنهم الحسن بن علي عليه السلام وسلمان وأبو ذر رواه عنهم ثمانية، ومنهم ابن عباس وأبو سعيد الخدري رواه عنهما تسعة وأربعون رجلاً، ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري رواه عنه ثلاثون رجلاً، ومنهم أبو الهيثم بن التيهان رواه عنه خمسة وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ وحذيفة بن اليمان وحذيفة بن السيد أخرجه عنه إحدى وعشرون رجلاً وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين روى عنه خمسة وزيد بن ثابت روى عنه ستة وعشرون رجلاً، وأبو هريرة روى عنه ستة وعبد الله بن حنطب ثلاثة، وجبير بن مطعم ثلاثة، وبراء بن عازب وأنس بن مالك وطلحة بن عبيد الله التميمي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وسهل بن سعد الأنصاري خمسة، وعدي بن حاتم وعقبة بن عامر وأبو أيوب الأنصاري وأبو شريح الخزاعي وأبو قدامة الانصاري وضميرة الأسلمي، روى حديثهم الأجلة والأكابر من أحبار الحديث من إخواننا السنة وعامر بن ليلى بن حمزة تسعة، ومن هؤلاء الرواة صحابيات مثل الصديقة الطاهرة سلام الله عليها وأم سلمة رواه عنهما ستة وأم هاني أخت الإمام علي عليه السلام رواه عنها أربعة.
أقول: وقد ذكر المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في سفره العظيم «ملحقات إحقاق الحق»، أسماء ممن أخرج عن هؤلاء في ج ٩ ص ٣٠٩ - ٢٧٦ ونختصرهم كالتالي:
١ - حديث أبو سعيد الخدري: روى عنه جماعة منهم ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ١٩٤) وأحمد بن حنبل في المناقب والطبراني في المعجم الصغير (٧٢) والمعجم الكبير (١٢٧) وابن المغازلي في المناقب والنيسابوري في الرسالة القوامية في مناقب الصحابة (مخطوط) وموفق بن أحمد في مقتل الحسين (١٠٤) ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى (١٥) والحمويني في فرائد السمطين (المخطوط) والزرندي في نظم درر السمطين (٢٣٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٩: ١٦٢) والسيوطي في إحياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف (١١١) وفي الدر المنثور - كما نقلناه - والمتقي الهندي في كنز العمال (١: ٣٤٢) =

. . . .

= والعسقلاني في المواهب اللدنية (٧: ٧) والبدخشي في مفتاح النجا (المخطوط) ومحمد الصبان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار (١٢٢) والقندوزي في ينابيع المودة (٢١) وزيني دحلان في السيرة النبوية المطبوع بهامش السيرة الحلبية (٣: ٢٢٠) والنقشبندي في راموز الأحاديث (١٤٤) والأمر يسري في أرجح المطالب (٢٢٦) والنبهاني في الأنوار المحمدية (٤٢٥).

٢ - حديث زيد بن أرقم رواه عنه جماعة منهم الدارمي في سننه (٢: ٤٣١) ومسلم في صحيحه (٧: ١٢٢) والبيهقي في الاعتقاد (١٦٤) والترمذي في صحيحه (١٣: ٢٠٠) والنيشابوري في مستدركه (٣: ١٤٨) وأحمد بن حنبل في مناقبه (مخطوط) والطبراني في المعجم الكبير (١٢٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠: ١١٢) وابن المغازلي في مناقبه (مخطوط) والأندلسي في الجمع بين الصحيحين (المخطوط) والبغوي في مصابيح السنة (٢٠٥) والصغاني في مشارق الأنوار والجزري في جامع الأصول (١: ١٨٧) وابن الأثير في أسد الغابة (٢: ١٢) ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى (١٥) وابن حبان في المقتبس في أحوال الأندلس (١٦٧) والحمويني في فرائد السمطين (المخطوط) وابن مسعود الشافعي في المنتقى في سيرة المصطفى (١٩٨) والخازن في تفسيره (١: ٤) وابن تيميّة في منهاج السنة (٤: ١٠٤) والسيد خواجه الهندي: درر في علم الكتاب (٢٥٤) والزرزي في نظم درر السمطين (٢٣١) والذهبي في تلخيص المستدرك (٣: ١٤٨) وعبد القادر في منتخب تاريخ ابن عساكر (٥: ٤٢٦) والأزدي في تفسير التبيان (١٧٧) وابن كثير في تفسيره المطبوع بهامش فتح البيان (٩: ١١٤) والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٦٨) والميبدي في شرح ديوان أمير المؤمنين (١٨٨ المخطوط) والسيوطي في إحياء الميت المطبوع بهامش الإتحاف (١١٠) وفي الخصائص الكبرى (٢: ٢٦٦) والدر المنثور (٢: ٦٠) والجامع الصغير (١١٢) والإكليل (١٩٠) ومحمد بن طولون في الشذورات الذهبية (٦٦) والكركي في نفحات اللاهوت (٥٥) وابن حجر في الصواعق المحرقة (٢٢٦) والشيباني في تيسير الوصول (١: ١٦) والمتقي الهندي في كنز العمال (١: ١٥٢) وفي منتخب كنز العمال المطبوع بهامش المسند (٥: ٥٩) والشيخ سعدي الآبي الشافعي في أرجوزته (٢٠٧) والمفسر البغوي في معالم التنزيل (٥: ١٠١) والكشفي في المناقب المرتضوية (٩٧) والشيخ منصور بن علي المصري في التاج الجامع للأصول (٢: ٣٠٨) وابن حمزة الحنفي في البيان والتعريف (١: ١٦٤) والبدخشي في مفتاح النجا (٨) والنابلسي في ذخائر المواريث (١: ٢١٥) والشبراوي المصري في الإتحاف بحب الأشراف (٦) وشاه ولي الله الحنفي في إزالة الخفاء (٢: ٤٤٥) والصبان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار (١٢١) والسهودي المصري في جواهر العقدين على ما في ينابيع المودة (٢٦) والبلخي في ينابيع المودة (٣٠ و٢٥ و١٩١) =

. . . .

= والقدوسي الحنفي في سنن الهدى (٥٦٥) والدهلوي في تجهيز الجيش (المخطوط ١٤١ و٣٠٤) وزيني دحلان الشافعي في السيرة النبوية المطبوع بهامش السيرة الحلبية (٣: ٢٢٠) والبهوبالي في حسن الأسوة (٢٩٢) والإدريسي في رفع اللبس والشبهات (٥٢) والنبهاني في الفتح الكبير (١ : ٢٥٢) وفي الأنوار المحمدية (٤٢٥) وفي الشرف المؤبد (١٧) وفي جواهر البحار في فضائل النبي المختار (١ : ٢٦١) والحضرمي في رشفة الصادي (٧٠) والحداد في القول الفصل (٤٦٢) والأمر تسري في أرجح الطالب (٢٢٥) والقلندر في الروض الأزهر (٢٥٨) والفهري القاسي في رياض الجنة (١ : ٢) والتونسي في السيف اليماني (١٠).

٣ - حديث حذيفة - ذكر ثمانية من المؤلفين أخرج عنه.

٤ - حديث زيد بن ثابت - عن عشرة منهم.

٥ - حديث جابر عن عشرين منهم.

٦ - حديث علي عليه السلام عن سبعة منهم.

٧ - حديث فاطمة عليها السلام وممن أخرجه عنها القندوزي في ينابيع المودة (٤٠).

٨ - حديث ابن عباس وممن أخرجه عنه ابن المغازلي في المناقب (١٥) والقندوزي في ينابيع المودة.

٩ - حديث الحسن بن علي عليهما السلام وممن أخرجه عنه القندوزي في ينابيع المودة (٢٠).

١٠ - حديث أنس، أخرجه عنه في الينابيع (١٩١).

١١ - حديث أبي رافع وممن أخرجه عنه الأمر تسري في أرجح المطالب (٢٢٧).

١٢ - حديث ابن أبي الدنيا، وممن أخرجه عنه ابن المغازلي في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام.

١٣ - حديث جبير بن مطعم وممن أخرجه عنه القندوزي في الينابيع (٣١ و٢٤٦).

١٤ - حديث عبد الله بن حنطب وممن أخرجه عنه ابن الأثير في أسد الغابة (٣: ١٤٧) والسيوطي في إحياء الميت وابن أبي بكر في مجمع الزوائد (٥ : ١٩٥).

١٥ - حديث حمزة الأسلمي وممن أخرجه عنه القندوزي في ينابيعه (٢٨) والأمر تسري في أرجح المطالب (٥٦٢).

١٦ - حديث عبد بن حميد وممن أخرجه عنه القندوزي (٢٨).

١٧ - حديث أبي ذر وممن أخرجه عنه الأمر تسري في أرجح المطالب (٢٢٧).

١٨ - حديث أبي هريرة وممن أخرجه عنه علي بن أبي بكر في مجمع الزوائد (٩: ١٦٢) والسيوطي في إحياء الميت المطبوع بهامش الإتحاف (١٢٢) والقندوزي في ينابيع المودة (٢٩) والأمر تسري في أرجح المطالب (٢٢٧).

١٩ - حديث أم هاني وممن أخرجه عنها القندوزي في الينابيع (٤٠) والأمر تسري في الأرجح (٢٢٧).
=

وقد يُروى أن الخليفة عمر سأل الرسول ﷺ بعد ما يقول كتاب الله وعترتي - أما كتاب الله فقد عرفناه فمن عترتك يا رسول الله ﷺ؟ فقال: عترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[1].

ولا ريب أن أهل بيته هم المعنيون معه في آية التطهير والمباهلة وأولي الأمر وأشباهها، فهم الأئمة الاثنا عشر المعصومون والصديقة الطاهرة سلام الله عليهم أجمعين.

وعدم افتراقهم عن كتاب الله يعني أنهم ليسوا حجة مضادة مفترقة عن كتاب الله فإنهم صادرون عنه، فما يُروى عنهم من خلاف للكتاب نصاً أو ظاهراً مستقراً ليس ليصدَّق عليهم.

وعدم افتراق كتاب الله عنهم عام في تأويله، خاصّ في تفسيره، فإنهم معلمو الكتاب بعد الله ورسوله.

والثقل الأصغر حسب ما يُروى عن والدِهم الأكبر علي أمير

= ٢٠ - حديث أم سلمة وممن أخرجه عنه الأمر تسري في الأرجح (٢٢٨).
٢١ - حديث محمد بن فلاد... (٢٤١).
وإلى عشرات ممن أخرجوه عن أصحاب الرسول ﷺ بمختلف الألفاظ والمذكور في الجميع الثقلين كتاب الله وعترتي، وفي أكثرها أحدهما أكبر أو أطول أو أعظم أو أتم وهو كتاب الله.
ومما أخرجوه في تفسير حبل الله بالعترة ما ذكره الثعلبي كما في العمدة لابن بطريق (١٥٠) بسند متصل عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: نحن حبل الله الذي قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].
وأخرج مثله الهيثمي في الصواعق المحرقة (١٤٩) والحضرمي في رشفة الصادي (١٥) والثعالبي وقال الإمام الشافعي:

ولما رأيت الناس قد ذهب بهم ... مذاهبهم في أَبْحُرِ الغيّ والجهلِ
ركبتُ على اسم الله في سفن النجا ... و هم أهل بيت المصطفى خاتم الرسلِ
وأمسكتُ حبل الله وهو ولاءهم ... كما قد أمرنا بالتمسُّكِ بالحبلِ

(١) رواه عنه ابن بابويه في كتاب النصوص على الأئمة الاثني عشر.

المؤمنين عليه السلام «هم الدُّعاة وهم النجاة، وهم أركان الأرض، وهم النجوم بهم يستضاء، من شجرة طاب فرعها وزيتونة طاب أصلها، نبتت من حرم وسقيت من كرم، من خير مستقر إلى خير مستودع، من مبارك إلى مبارك، صفت من الأقذار والأدناس، ومن قبيح ما يأتيه شرار الناس، لها فروع لا تُنال، حصرت عن صفاتها الألسن، وقصُرت عن بلوغها الأعناق، وهم الدعاة وهم النجاة، وبالناس إليهم الحاجة، فأخلفوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم بأحسن الخلافة فقد أخبركم أيها الثقلان أنهما لن يفترقا هم والقرآن حتى يردا علي الحوض فألزموهم تهتدوا وترشدوا ولا تتفرقوا عنهم ولا تتركوهم فتفرقوا أو تمرقوا»[1].

وإذا كان الثقل الأصغر هكذا فالأكبر - إذاً - أَنْبَل وأَعْلَى، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو رأس الزاوية في الثقل الأصغر وهم خليفته في تعليم الثقل الأكبر وتطبيقه.

ولأن الاعتصام لا بدّ وأن يكون بمعتصمٍ حاضرٍ على مدار الزمن فهو القرآن أولاً وأخيراً وليس الثقل الأصغر له دور إلّا دور البيان المعصوم

(١) شرف النبي لأبي اليقظان أبي الحسن الكازروني ص ٢٨٨ قال: بلغنا عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصية للمسلمين الذين حضروا حين ثقل من الضربة ومن جملة ما قال: وفيكم من تخلف من بينكم صلى الله عليه وآله وسلم ما تمسكتم به لن تضلوا، هم الدعاة...

ومن ملحقات إحقاق الحق (١٤: ٥٢١ - ٥٢٢) عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (١: ١٢٠) بسند متصل عن علي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أحب أن يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوالِ علياً ولياً ثم بالهداة من ولده.

وفي لفظ آخر روي عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: نحن حبل الله قال الله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا...﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣] فالمستمسك بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام المستمسك بالبرِّ فمن تمسك به كان مؤمناً ومن تركه كان خارجاً عن الايمان.

وروي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي جبرئيل: قال الله تعالى: ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام حصني فمن دخل حصني أمِنَ من عذابي.

والتطبيق المعصوم، ولا سبيل للوصول إليهم بعدما قضوا نحبهم إلّا أحاديثهم المروية عنهم، ولا سبيل للتأكد من صدورها عنهم إلّا موافقتها للثقل الأكبر.

ثم الاعتصام - وهو طلب العصمة - بحبل الله طليق في كافة الحقول الحيوية الإيمانية والتقى والإسلامية فردية وجماعية، فطرية - عقلية - فكرية - ثقافية - عقيدية - خُلقية - عملية - سياسية - حربية واقتصادية.

فلا تكفي العقلية الإنسانية أن تعصم الإنسان حتى في نفسها فضلاً عن سائر الحقول العشرة العشيرة للإنسان في حياته الفردية والجماعية.

والعصمة الطليقة لا تحصل إلّا بعصمة المعصوم بالحبل المعصوم، ثم دونها بعصمة معصومة بالشورى مع تفكير صالح وتطبيق صالح لمرادات الله تعالى.

فلا عصمة في مثلث الإيمان التقوى الإسلام إلّا بالاعتصام بحبل الله، وليس فحسب اعتصاماً شخصياً، أن يتقبَّع كلٌّ في زاويته الخاصة في اعتصامه بالقرآن، بل ﴿جَمِيعًا﴾ في كلِّ حقوله فإن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

صحيح أن حَبْلَ الله - في بُعديه - معصوم، والاعتصام بالمعصوم عاصم، ولكنَّ الأخطاء العارضة في ذلك الاعتصام لا تجبر في الأكثر إلّا بشورى الاعتصام، فهنالك العصمة الكاملة الكافلة لحياة إسلامية سامية، اللهم إلّا أخطاء قليلة لا محيد عنها للمعتصمين غير المعصومين، مهما جبرت الشورى الصالحة فيه قسماً عظيماً من تلكم الأخطاء.

وذلك دواء لأواء الفتن المقبلة علينا وكما في خطبة للرسول ﷺ: «فإذا أقبلت عليكم الفتن كقِطَعِ الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه حبل الله

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

المتين وسببه الأمين لا يعوجُّ فيقام ولا يزيغ فيستعتب» «واعتصموا.. ولا تفرقوا» في ثالوثه المنحوس: تفرقاً عن حبل الله، تفرقاً فيه، وتفرقاً فيما بينكم في ذلك الاعتصام عن حبل الله أو فيه.

فالمتفرقون عن كتاب الله إلى روايات أو نظرات أو إجماعات وشهرات، أو قياسات واستحسانات أو استصلاحات أمّاذا من مصادر، هم متفرّقون عن شرعة الله المتمثلة ككلٍّ في حبل الله.

كما المتفرقون عن الحبل الثاني زعماً منهم أنه حسبنا كتاب الله - والسنة المباركة لزامه تبييناً وتفسيراً وتأويلاً - هم - كذلك - متفرّقون عن شرعة الله.

فالاعتصام الوحدوي بالحبلين هو العاصم، فَتَرْكُ أحد الحَبْلَيْنِ إلى الآخر تفرق عنهما جميعاً فإنهما لا يفترقان و«حسبنا كتاب الله» هي كلمة حق أُريد بها الباطل، حق كما قال الله ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(١) وباطل حين يُراد بها تنحية السنة الرسالية عن الكتاب، حيث الكتاب الذي هو حسبنا يأمرنا باتِّباع الرسول، فالتارك لسُنَّة الرسول ﷺ الآخذ بكتاب الله، كما التارك له الآخذ بسُنَّة الرسول ﷺ هما من المقتسمين ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾(٢)، بفارق أن الآخذ بالسُّنة أضل سبيلاً فإنها لا تُعرف إلّا بكتاب الله، مهما لم يعرف تأويل الكتاب إلّا بالسنة.

فالذي يصدق بالمتن، هو - بطبيعة الحال - يصدق بالهامش الذي كتبه الماتن نفسه، وليست السنة الإسلامية إلّا هامشاً بيانياً من الماتن نفسه.

وإن اختلاف الهوامش عن المتون في الكتابات غير الإلهية، هو قضية

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩١.

اختلاف الماتن والمحشي في النظرات العلمية، وأما متن الوحي وهامشه فلا فرق بينهما إلّا جملة وتفصيلاً.

لذلك ليست السُّنة لتخالف الكتاب أو تنسخه، كما التبصرة القانونية لا تنسخ القانون، وإنما تشرحه وتوضِّحه، مهما كان من غير المقنن، فضلاً عن السُّنة الإسلامية التي هي عبارة ثانية شارحة للمقنن!.

ذلك وكما المتفرقون عن حبل الله اعتصاماً لطائفة وتركاً له لأخرى، والمتفرقون في حبل الله بشطحات الآراء في تفاسير شاردة ماردة، والمتفرقون فيما بينهم في مادة الاعتصام وكمه وكيفه، كل أولئك شرع سواء في تركهم الاعتصام بحبل الله جميعاً دون طليق التفرق عنه وفيه وبين، مهما اختلفت دركاته.

فكما الله واحد في كافة شؤون الربوبية وكلّ تفرق بشأنه مارد عن توحيده، كذلك كتابه الكريم واحد في كافة الشؤون التربوية، فكل إلحاد فيه أو إشراك به أو تفرق فيه أو عنه، كل ذلك مارد شارد.

فالذلة هي لزام المتفرقين في حقل ذلك الحبل ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فربانية الاعتصام هي التمسُّك الصالح بكتاب الله، ثم ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ هو ذو بعدين: الثقل الأصغر(١) وهم الناس المعلمون لكتاب الله،

(١) تفسير البرهان ١: ٢٠٥ محمد بن ابراهيم النعماني المعروف بابن زينب بسند متصل عن جابر ابن عبد الله الأنصاري قال وفد على رسول الله ﷺ أهل اليمن فقال النبي ﷺ: جاءكم أهل اليمن يبسون بسيساً فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال قوم رقيقة لهم راسخ إيمانهم منهم المنصور يخرج في سبعين ألفاً ينصر خلفي وخلف وصيي حمايل سيوفهم المسك فقالوا: يا رسول الله ﷺ ومن وصيك؟ فقال: هو الذي أمركم الله بالاعتصام به فقال عزّوجلّ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣] فقالوا: يا رسول الله ﷺ بين لنا ما هذا الحبل؟ فقال هو قول الله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] فالحبل من الله كتابه والحبل من الناس وصيي فقالوا يا رسول الله ﷺ ومن وصيك؟ فقال: هو الذي أنزل الله فيه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] فقالوا: يا رسول الله وما جنب الله=

والكتلة المؤمنة ككلّ وهم الناس المتعلمون من الحَبْلَيْنِ بجمعية المحاولات والشوراءات في ذلك الاعتصام.

فالعصمة الإسلامية عن كلّ بأس وبؤس فردي وجماهيري مكفولة على ضوءِ الاعتصام بحبل الله جميعاً دون تفرق، حيث الحبل في بعدية معصوم، وجمعية الاعتصام بحبل الله عاصمة، مهما لم تبلغ هذه العصمة مبلغ العصمة المطلقة للمعصومين ولكنها تبلغ إلى أشرافها حيث تقلّ الأخطاء في ذلك الاعتصام المشرّف.

ذلـــــك ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ و﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ هنا الوحيدة غير الوهيدة هي الوحدة الإيمانية بألفة القلوب، فقد تألف العقول والعلوم، والقلوب شتّى، والنص القرآني هنا يعمد إلى مكمن المشاعر - الأصيل - وهو القلب، تصويراً للقلوب كحزمة مؤلفة متآلفة.

فقد كانوا أعداءً متناحرين لا يأمنون لحياة فألف الله بين قلوبهم بنعمة الوحدة الإيمانية المترابطة فـ : ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾(١).

وعامل التأليف بين قلوبهم بالله هو حبل الله: قرآن محمد ومحمد القرآن، فإنهما يؤلّفان بالله بين القلوب الداعية لذكر الله، الداعية إلى الله، ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ في الله، تاركين كافة المفارقات والمنازعات(٢).

= هذا؟ فقال: هو الذي يقول الله فيه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: ٢٧] هو وصيي والسبيل إليّ من بعدي...

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٢، ٦٣.

(٢) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسندٍ متصلٍ عن علي عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم=

فكلٌّ وحدة وهيدةٌ زهيدةٌ إلّا ما كانت بين القلوب في اعتصام جماهيري بحبل الله، فلا تنفصم بأي فاصم، ولا تنقصم أو تنقسم بأي قاصم أو قاسم.

﴿وَٱذۡكُرُواْ... إِذۡ كُنتُمۡ... عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ...﴾ وشفا حفرة هو أشرافها، فإن شفى الشيء حرفه وطرفه المائل إليه وقد كانوا على شفا حفر النيران، في جهالات وشهوات ولهوات وكل رذالات الحياة، فليست هذه النار - إذاً - نار الدنيا، بل هي الأخرى(١)، فشفاها هي الحياة الدنيا الكافرة، و﴿حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ هي النار البرزخية ومن وراءها الأخرى، وليس بين شفاها وحفرتها إلّا فاصل الموت، وقد شبه هنا المشفي - بسوء عمله - على دخول النار، بالمشفي - لزلة قدمه - على الوقوع في النار، استعارة لطيفة ما ألطفها:

أفـــمـــن ﴿أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾(٢) وضمير التأنيث في «منها» راجع إلى ثالوث: شفا - حفرة - من النار - إذ نجّاهم الله منها كلها، أو أن ﴿حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ تعم النارين، فالأولى هي العقبات السوء إلى الأسوأ فالأسوأ، حيث المجتمع المبني على شتات القلوب والأهواء ليس - على أية حال - إلّا في نار هي شفا حفرة من نار هي أحرّ وأشجى، حتى يسقطوا في هوات النار الأخرى.

= أمِنّا الهُداة أم غيرنا؟ قال: بل مِنّا الهُداة الى الله إلى يوم القيامة، بنا استنقذهم الله عزّوجلّ من ضلالة الشرك، وبنا استنقذهم الله من ضلالة الفتنة، وبنا يُصبحون إخواناً بعد ضلالة الفتنة كما بنا أصبحوا إخواناً بعد ضلالة الشرك وبنا يختمُ الله كما بنا يفتحُ الله.

(١) نور الثقلين ١: ٢٧٩ في كتاب ثواب الأعمال عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: أصبح عدُونا على شفا حفرة من النار قد انهارت به نار جهنم فتعساً لأهل النار مثواهم.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

فالحياة اللّاإيمانية، بل والإيمانية غير المعتصمة جميعاً بحبل الله، إنها حياة رذيلة على أشراف سقطات في حفَر النيران، اللهم إلّا اعتصاماً بحبل الله جميعاً ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فيا لها نعمة ما أعظمها أن يخرجوا منها إلى غيرها ويا لها مصيبة إن لم يؤمنوا بها فيرغبوا عنها(١)، ولقد أنقذنا الله تعالى من نار الدنيا والآخرة بحبله المتين القرآن المبين والرسول الأمين، ولعمر محمد ﷺ لم تنزل «محمد» في لفظ التنزيل(٢) مهما كان وارداً في واقع التأويل.

فحياة التكليف غير المعتصمة بحبل الله جميعاً هي ﴿شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ و﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾(٣) في شطري البرزخ والقيامة.

قول فصل حول حديث الثقلين:

أولية الثقل الأكبر وكونه أفضل وأكبر وأعظم من الثقل الأصغر هي في الكيان، وأطوليته في الزمان، والأخيرة باهرة حيث لا أفول للقرآن والثقل الأصغر ميتون ف ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(٤).

وأما التفاضل في الكيان فقد يُعنى منه معنيان:

١ - محمد ﷺ وهو رأس الزاوية في الثقل الأصغر، هو قبل هذه

(١) المصدر عن كشف المهجة لابن طاوس عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وأما الآية التي عم بها العرب فهو قوله: واذكروا نعمة الله عليكم... فيا لها...

(٢) المصدر في روضة الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية... فأنقذكم منها محمد هكذا والله نزل بها جبرئيل عليه السلام على محمد ﷺ!.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

العصمة الإلهية عُصِم بعصمة بشرية، مزودة بهدي رباني من روح القدس، ثم عِصِمَ بعصمة ربانية قمة متصلة بقلبه ومنفصلة بحامل الوحي، ومن ثم بعصمة وحي القرآن والسُّنة، ووحي القرآن دون ريب هو أثقل من كلّ العِصَم التي تزوّد بها فإنها كمقدمات وتهيئات والعصمة القرآنية هي الغاية القصوى.

إذاً فالقرآن هو الثقل الأكبر ومحمد ﷺ الأصغر، طالما الرسول ﷺ بما حوى قلبه القرآن بكل حلقاته وحقوله، هو أكبر من أحد الثقلين، إلّا أن حديث الثقلين يعني المقارنة بين الكيانين.

٢ - إن العصمة الإلهية هي أثقل من العصمة البشرية في كلّ دور من أدوارها، فضلاً عن مثلثها، فهي - إذاً - أكبر منها على أية حال، ومهما كان مجمع الثقلين أفضل من كلٍّ منهما ولكن الثقل الأكبر لا ريب أنه أطول وأدوم.

فلا ملجأ زمن غيبة الثقل الأصغر إلّا الثقل الأكبر، ثم الأصغر يعرف بموافقة الأكبر، «وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

فالأصغر لن يفترق عن الأكبر فإن عصمته العلمية ليست إلّا بالأكبر، وبلاغه الرسالي ليس - في الأصل - إلّا عن الأكبر، وسناده في كلّ قليل وجليل ليس إلّا إلى الأكبر، وهو يعيش الثقل الأكبر في النشآت الثلاث.

والأكبر لن يفترق عن الأصغر حيث يأمر بالرجوع إلى الأصغر ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] وأنه لا يعرف تأويلات ومآخذ أحكامه إلا الأصغر، ولا يحكم به عاصماً معصوماً إلّا الأصغر، ولا ينذر به ويذكر كأكمل ما يرام إلّا الأصغر.

فليس يعني عدم افتراق الأكبر عن الأصغر أنه - ككل - لا يفهم إلّا بتفسير الأصغر، لأنه بيان للناس، فإنما الأليق لتبيينه وتطبيقه والحكم به،

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

واللائق لتأويله هو الأصغر، وحين لا يكون الثقل الأصغر ثقلاً لو افترق عن الأكبر فماذا تكون أحوال سائر الأمة المفترقة عن الثقل الأكبر؟.

إن افتراق الحوزات الإسلامية عن الثقل الأكبر ملموس محسوس ككّل، ثم المدعوون اتصالهم بالثقل الأصغر خاوون فإنه لا يعرف إلّا بالعرض على الأكبر، إذاً فهم تاركو الحبلين، حبل من الله: القرآن، وحبل من الناس هم أهل بيت القرآن.

و«ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً» تحكم بضلالنا إذ تركنا التمسك بهما إلى مُستمسكات أخرى هي ويلات على الأمة الإسلامية السامية.

و«لن يفترقا» ليست لتعني افتراقاً في السلطة الروحية الزمنية حيث ينتقص بزمن الغيبة، إنما هو افتراق وحي الكتاب عن وحي السُّنة، فالسُّنة لا تفترق عن الكتاب فإنها الوحي الفرع الهامش المفسر والمُأوّل للوحي الأصل، وهي مستفادة من القرآن، فلا تنسخه أو تُخالفه.

والكتاب لا يفترق عن السنة لأنه الذي يأمر باتِّباع السنة وأن الرسول ﷺ هو المذكّر بالقرآن ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[1].

لقد كان الرسول ﷺ صاحب الحبلين، فخلّف عن الأصغر - وهو نفسه - عترتَه، وخلّف عن الأكبر - وهو القرآن - نفسَه، إذ لا بديل عنه، وإنما البديل في غير الأصيل الذي يعرضه الموت دون القرآن الذي يجري كجري الشمس.

وإن الذلة مضروبة على كلّ أمة رسالية ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فالحبل الأوّل هو الحبل الرسالي الذي يحمله وحي الله، والثاني هو الرسولي الذي يحمله رسول الله ﷺ ومن ثم عترته، ثم المؤمنون بالرسالة حيث كان ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

---

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

فلا حياة صالحة إيمانية إلّا بالاعتصام بالحَبْلَيْنِ الربانيَّين، ونحن تركناهما إلى حبال متفرقة متشتتة!.

فالاعتصام بغير المعصوم مأثوم، والاعتصام بالمعصوم بقسمة العضين مأثوم، والاعتصام بأحد الثقلين دون الآخر مأثوم، والاعتصام بالثقلين دون جمعية فيه وفي الجماعة المسلمة كما في جمعية حبل الله، مأثوم، فإنما الاعتصام العاصم المعصوم هو الاعتصام بحبل الله جميعاً دون أي تفرق عنه أو فيه أو بين المعتصمين، فإن حبل الله يجمع المعتصمين به ولا يفرق، إذا اعتصموا به كما يحق، تحرّياً عن مرادات الله، دون تحميل ولا تدجيل.

لقد روي حديث الثقلين عن الرسول ﷺ في ستة مواضع: يوم عرفة على ناقته القصوى وفي مسجد خيف وفي خطبة يوم الغدير في حجة الوداع ويوم قبض في خطبته على المنبر وفي بيته عند وفاته، وعند رجوعه عن سفر له، ويا لها من مواضع هامة عامة تضم الغفير من المسلمين![1].

---

(١) كما في المناقب في كتاب سليم بن قيس قال علي عليه السلام: إن الذي قال رسول الله ﷺ يوم عرفة على ناقته القصوى وفي مسجد خيف ويوم الغدير ويوم قبض في خطبته على المنبر أيها الناس إني تركت فيكم الثقلين لن تضلوا ما تمسكتم بهما الأكبر منهما كتاب الله والأصغر عترتي أهل بيتي وإن اللطيف الخبير عهد إليّ أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كهاتين وأشار بالسبابتين...

وفي ملحقات الإحقاق ٢٥٤ ومن ألفاظ الثقلين، رواه زيد بن أرقم قال: أقبل رسول الله ﷺ يوم حجة الوداع فقال: إني فرطكم على الحوض وإنكم تبعي وإنكم توشكون أن تَرِدوا عليّ الحوض فأسألكم عن ثقلي كيف خلفتموني فيها فقام رجل من المهاجرين فقال: ما الثقلان؟ قال: الأكبر منهما كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، والأصغر عترتي فمن استقبل قبلتي وأجاب دعوتي فليستوص لهم خيراً أو كما قال رسول الله ﷺ: «فلا تقتلوهم ولا تقهروهم ولا تقصروا عنهم وإني سألت لهم اللطيف الخبير فأعطاني أن يَرِدوا عليّ الحوض كهاتين وأشار بالمسبحتين، ناصرهما إليّ ناصر وخاذلهما إلي خاذل ووليهما إليّ والي وعدوّهما لي عدوّ». (ملحقات ٩: ٣٢٧).

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم قال قال رسول الله ﷺ: إني لكم فرط وإنكم واردون عليّ=

ومن ألفاظه «عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: إني أوشك أن أُدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»؟

ومنها ما رواه عنه ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه ونحن في صلاة الغداة فقال: إني تركت فيكم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسُنتي فاستنطقوا القرآن بسُنتي فإنه لن تعمى أبصاركم ولن تزل أقدامكم ولن تقصر أيديكم ما أخذتم بهما ثم قال: أوصيكم بهذين خيراً.

ولقد بلغت الأهمية الكبرى الرسالية في حديث الثقلين لحدٍّ يُكرِّره الرسول ﷺ في تلكم المجامع الستة أخيرتها في خطبته يوم وفاته ثم في بيته، ونحن نعلم أنه لم يكتب في شيء من مهام الدين إلّا بعض كتاباته إلى الأمراء والملوك دعوة إلى الإسلام، ثم نراه يطلب أن يكتب عند وفاته كما تواتر عنه ﷺ: «لما حضر رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي ﷺ: هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي ﷺ كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو

= الحوض فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين قيل: وما الثقلان يا رسول الله ﷺ؟ قال: الأكبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به لن تزالوا ولا تضلوا والأصغر عترتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض وسألت لهما ذلك ربي فلا تقدموهما لتهلكوا ولا تعلموهما فإنهما أعلم منكم.

وفي حديث جابر قال أخذ النبي ﷺ بيد علي والفضل بن عباس في مرض وفاته فاعتمد عليها حتى جلس على المنبر فقال: أيها الناس قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله.

والاختلاف عند النبي ﷺ قال لهم رسول الله ﷺ: «قوموا»[١].

ومن حديث أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «لما ثقل رسول الله ﷺ في مرضه والبيت غاص بمن فيه قال: ادعوا لي الحسن والحسين فجاؤوا فجعل يلثمهما حتى أُغمي عليه فجعل علي عليه السلام يرفعهما عن وجه رسول الله ﷺ ففتح عينيه وقال: دعهما يتمتعا مني وأتمتع منهما فستصيبهما بعدي أثرة ثم قال: أيها الناس قد خلفت فيكم كتاب الله وسنتي وعترتي أهل بيتي فالمضيّع لكتاب الله تعالى كالمضيّع لسنتي والمضيّع لسنتي كالمضيّع لعترتي أما إن ذلك لن يفترق حتى اللقاء على الحوض»[٢].

ومن حديث فاطمة الزهراء عليها السلام قالت سمعت أبي ﷺ في مرضه الذي قبض فيه يقول: - وقد امتلأت الحجرة من أصحابه - «أيها الناس يوشك أن أُقبض قبضاً سريعاً وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم ألا إني مُخلِّف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي ثم أخذ بيد علي فقال: هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض فأسألكم ما تخلفوني فيهما»[٣].

ومن حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ رجع من سفر له وهو متغير

---

(١) أخرجه البخاري في باب قول المريض: قوموا عني، كتاب المرضى (٤: ٥) وفي كتاب العلم (١: ٢٢) وبعض الأجزاء الأُخر من صحيحه وأخرجه مسلم في آخر الوصايا من صحيحه ورواه أحمد من حديث ابن عباس في مسنده وكذلك سائر أصحاب السنن وسند البخاري هكذا: إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، وروى البخاري في باب جوائز الوفد من كتاب الجهاد والسير من صحيحه (٢: ٧) قال حدثنا قبيصة بن عيينة عن سلمان الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتى خضب دمه الخصباء فقال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس فقال: ائتوني بكتاب أكتبُ لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيٍّ تنازع فقالوا: هجر رسول الله ﷺ قال ﷺ دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني اليه.

(٢) المصدر ٣٥٢.

(٣) المصدر ٣٥٤.

اللون فخطب خطبة بليغة وهو يبكي ثم قال: «أيها الناس قد خلّفتُ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي وأرومتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض ألا وإني أنتظرهما ألا وإني أسألكم يوم القيامة في ذلك عند الحوض ألا وإنه سترد علي يوم القيامة ثلاث رايات من هذه الأمة راية سوداء فأقول: من أنتم فينسون ذكري فيقولون نحن أهل التوحيد من العرب فأقول: أنا محمد نبي العرب والعجم فيقولون: نحن من أمتك فأقول: كيف خلّفتموني في عترتي وكتاب ربي؟ فيقولون: أما الكتاب فضيّعنا وأما عترتك فحرصنا على أن نبيدهم فأولّي عنهم فيصدرون عطاشاً قد اسوّدت وجوههم، ثم ترد راية أخرى أشد سواداً من الأولى فأقول لهم: من أنتم؟ فيقولون كالقول الأوّل نحن من أهل التوحيد فإذا ذكرت اسمي قالوا: نحن من أمتك فأقول: كيف خلفتموني في الثقلين كتاب الله وعترتي؟ فيقولون: أما الكتاب فخالفناه، وأما العترة فخذلنا ومزقناهم كلّ ممزق فأقول لهم: إليكم عني فيصدرون عطاشاً مسودة وجوههم، ثم ترد راية أخرى تلمع نوراً فأقول: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل كلمة التوحيد والتقوى نحن أمة محمد ﷺ ونحن بقية أهل الحق حملنا كتاب ربنا وأحللنا حلاله وحرمنا حرامه وأحببنا ذرية محمد ﷺ فنصرناهم من كلّ ما نصرنا به أنفسنا وقاتلنا معهم وقتلنا من ناواهم فأقول لهم: ابشروا فأنا نبيكم محمد ﷺ ولو كنتم كما وصفتم ثم اسقهم من حوض فيصدرون رواء ألا وإن جبرئيل أخبرني بأن أمتي تقتل ولدي الحسين بأرض كرب وبلاء ألّا ولعنة الله على ما قاتله وخاذله أبد الدهر.

ومن حديث الحسن بن علي عليه السلام في خطبة له قال: خطب جدّي ﷺ يوماً فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه: معاشر الناس إني أُدعى فأُجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن تمسكتم بهما لن تضلوا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فتعلّموا منهم ولا تعلّموهم

فإنهم أعلم منكم ولا تخلوا الأرض منهم ولو خلت لانساخت بأهلها ثم قال: اللّهم إنك لا تخلي الأرض من حجة على خلقك لئلا تبطل حجتك ولا تضل أولياءك بعد إذ هديتهم أولئك الأقلون عدداً والأعظمون قدراً عند الله عز وجل ولقد دعوت الله تبارك وتعالى أن يجعل العلم والحكمة في عقبي وعقب عقبي وفي زرعي وفي زرع زرعي إلى يوم القيامة فاستجيب لي»[(١)].

ولأن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول هم مَجْمَع الثقلين فهم - إذاً - أفضل من أحدهما وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعلي بن أبي طالب عليه السلام أفضل لكم من كتاب الله لأنه مترجم لكم عن كتاب الله»[(٢)].

ذلك ولكن الرسول وعترته دون القرآن هم دون القرآن كما القرآن دونهم هو فوقهم.

هذان الثقلان هما المثقلان المعتصمين بهما جميعاً عن كلّ خفة واستخفاف فكما «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف» كذلك - وبأحرى - الأمة المعتصمة بحبل الله جميعاً، وهو الثقلان، لا يستخفها مستخف.

وكلما كان الاعتصام أَقْوَم كان ثقل الأمة أَعْصَم، وإلى القمة العليا في زمن القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

فإنه من الثقلين، يحكِّم الثقل الأكبر وهو من الأصغر، فلا تبقى - إذاً - أرض إلّا نودي فيها بالتوحيد والرسالة الإسلامية.

إن آية الاعتصام هي القمة في محاور الأمر المؤكد في هذه الآيات التي

(١) المصدر ٣٥٧.
(٢) تفسير البرهان ١ : ٢٨.

تتبنّى قوة المؤمنين، فتقوى الله حق تقاته غير ميسورة إلَّا بذلك الاعتصام، وحين تتفلت أفراد من المؤمنين أو جماعات عن ذلك الاعتصام فهنا أمر وقائي للحفاظ على ذلك الاعتصام الذي يحتضن حق تقاة الله، وقد تكفلته هنا آيتان فرضاً لمثلث الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بفصل آيات خمس فيها تنديدات شديدة بالمسودَّة وجوههم المتخلفين عن حبل الله.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

﴿مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ في تكوين هذه الأمة دليل الكفائية في ذلك الفرض الجماهيري وقاية للأمة ككلّ عن كلّ تشرد وتخلف، وحماية لتحقيق الواجبات الفردية والجماعية، حيث التخلف هو طبيعة الحال في أية أمة من الأمم، فواجب الوقاية لهم يفرض عليهم تكوين أمة داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الأكارم داعين ومدعوين ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وخطاب ﴿وَلْتَكُن﴾ هو موَّجه إلى كافة المؤمنين، دون خصوص الداعين لمكان ﴿مِّنكُمْ﴾ فعلى المؤمنين ككل تكوين هذه الأمة من أنفسهم، انتخاباً لنخبة صالحة إن كانت كائنة، أم تكويناً لها - إن لم تكن - قدر الكفاية لواجب الدعوة والأمر والنهي.

وقد تعني «من» هنا التبيين إلى جانب التبعيض، تبعيضاً بالنسبة للمسلمين أنفسهم، وتبييناً بالنسبة لكافة المكلفين، أن يكون المؤمنون أنفسهم ككلٍّ دعاةَ الناس إلى الخير ثم أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

فواجب الدعوة والأمر والنهي في الوسط الإسلامي كفائي، وفي الوسط

العالمي عينيٌّ إذ لا كفاية في دعوة البعض، ولا أقل من أن يكونوا دعاة الناس بغير ألسنتهم، وأمثولات الحق بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

وواجب التكوين ذو بعدين اثنين أن يصنع كلٌّ نفسه لصالح الدعوة ويصنع آخرين لها أو يدعوهم لذلك الصالح الجماهيري، تواصياً بينهم بذلك الحق الحقيق بالتواصي كرأس الزاوية في التواصي الإيماني السامي.

و﴿ٱلْخَيْرِ﴾ المدعو إليه هنا هو خير الإيمان والتقوى والإسلام المتبنية خير الاعتصام بحبل الله جميعاً دون تفرق، والجامع لهما على حدِّ قول الرسول ﷺ: «اتِّباع القرآن وسُنتي»(١).

الذي يتوحد في الاعتصام بحبل الله جميعاً دون تفرق، فكما حبل الله واحد في أصله، كذلك الخير، فأصل الخير هو حبل الله كما أن حبل الله هو الخير.

ثم الخير هنا مبتدأٌ بالسلب وهو ترك ما يناحر الاعتصام بحبل الله، ومختتم بالإيجاب وهو نفس الاعتصام، وهكذا يكون كلّ خير كما ومبدأ كلّ خير هو المركب من السلب والإيجاب: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

إذاً فـ ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ تعم خيراً ثقافياً - عقيدياً - خلقياً وعملياً، إيجاباً للواجبات وسلباً للمحرمات، وهذا هو رأس الزاوية في «الحافظين لحدود الله» ثم يأتي دور الأمر والنهي بشروطهما المسرودة في الكتاب والسُّنة، فلا أمر ولا نهي قبل الدعوة الصالحة إلى الخير، فـ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(٢).

---

(١) الدر المنثور ٢: ٦٢ - اخرج ابن مردويه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ...﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤] ثم قال: الخير اتباع القرآن وسنتي.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

وايم الله أن هذه لآل محمد ﷺ ومن تابعهم يدعون إلى الخير ويأمرون وينهون عن المنكر[١] دون هؤلاء الذين يجب أن يدعوا إلى الخير ويؤمروا وينهوا.

ولقد أمضينا القول الفصل حول هذين العمادين الإسلاميين على ضوء قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾[٢] و﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٣] وأضرابهما فلا نعيد[٤].

والجدير بالذكر هنا ضرورة الطاقة القوية الصامدة في هذه الأمة الداعية الآمرة الناهية، ولا سيما الأخريان، حيث إن القضية الطبيعية للأمر والنهي هي السلطة الصالحة لتنفيذهما قدر المقدور.

لا أقول إنها هي السلطة الزمنية، فقليل هؤلاء المرسلون والذين معهم لهم تلك السلطة، وواجب الدعوة والأمر والنهي كان عليهم لزاماً أولياً.

إنما أقول، هي الطاقة النفسية والثقافية أماهيه من طاقات تسمح لتلك الدعوة الصارمة والأمر والنهي من وراءها.

فهذه الزوايا الثلاث المحمَّلة على تلك الأمة ليست باليسيرة الهينة، حيث تصطدم بطبيعة الحال بشهوات الناس ونزواتهم ومصلحياتهم، بغرورهم وكبريائهم ونخوتهم، وفيهم جبارون غاشمون، والهابطون الكارهون لكلّ صعود روحي أو عملي، وفيهم المسترخي المُهمِل الكاره لكلِّ جدٍّ واشتداد، فلتتزوّد تلك الأمة بكلٍّ قوةٍ وسدادٍ، وهزمٍ واجتهادٍ

(١) نور الثقلين في تفسير علي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: فهذه..

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الصف، الآية: ٢.

(٤) الفرقان ١: ٣٧٣ - ٣٨٥ و٢٨: ٢٩٨ - ٣٠١.

واستعدادٍ لمواجهة المكاره المُضْنِية والمعارك الدموية ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وتعقيبة الآية هذه الواصفة لهذه الأمة الداعية بالإفلاح، هي من عساكر الدلائل على اشتراط المعرفة بالخير وفعل المعروف وترك المنكر للداعي الآمر الناهي، فإن فاقدها أم فاقد أحدها ليس من المفلحين، بل هو من الفالجين المفلجين!.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ عن حبل الله، وعن الاجتماع في الاعتصام به ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ فيما بينهم عن جمعية الاعتصام، اعتصاماً بحبل وتركاً لآخر، أم تبعيضاً في كلّ حبل كتاباً وسنة، وذلك السقوط الجارف الخارف ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الداعية إلى الوحدة الإيمانية الجماهيرية، وأية بيّنة أَبْيَن من بينة الوحي الصارم وهو حبل الله المعتصم به لمن أراد الاعتصام.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الحماقى البعاد ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الأولى والأخرى، إذ يعيشون شفا حفرة من النار... أجل وإن الاختلاف في المذاهب هو نتيجة طبيعية للتفرق عن حبل الله، أن يتخذ كلٌّ لنفسه وذويه مذهباً يعتبره كأنه الإسلام كله وما سواه كفر، وكما ابتليت الأمة الإسلامية كالذين من قبلهم بذلك فاختلفوا بعدما تفرقوا أيادي سبا، وفصلت بينهم شتى المذاهب واستعبدتهم السلطات الاستعمارية، فأصبحت الأمة الإسلامية على سعتها وسيادتها شذر مذر أيادي سبا! وقد تواتر عن الرسول ﷺ إنباءه عن افتراق الأمة الإسلامية إلى ثلاث وسبعين فرقة واحدة منها ناجية وهي الجماعة[1]

---

(١) الدر المنثور ٢: ٦٢ - أخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية قال قال رسول الله ﷺ: =

تعني المعتصمين بحبل الله جميعاً، دون أية جماعة فإن كلّ فرقة جماعة لا محالة، فالفرقة المعتصمة بحبل الله في ثقليه هي الفرقة الناجية، وغيرها من الفرق غير ناجية! مهما كانت سنة أو شيعة، فـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

وفي أخرى إن الواحدة ما أنا عليه اليوم وأصحابي[2] وهم الذين معه في حمل هذه الرسالة السامية بحذافيرها.

= إن أهل الكتاب تفرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلّا واحدة وهي الجماعة ويخرج في أمتي أقوام تتجارى تلك الأهواء بهم كما يتجارى الطلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلّا دخله، وفيه عن أنس عنه ﷺ في لفظ آخر قال: الجماعة الجماعة.

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٢) المصدر أخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: يأتي على أمتي ما أتى على بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلّها في النار إلّا ملة واحدة فقيل له ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي.

في ملحقات إحقاق الحق (٧: ١٨٤) الشيخ حسين الصيمري في الإلزام قال روى الحافظ أحمد بن موسى الشيرازي - إلى أن قال -: رووا عن أنس بن مالك قالوا كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ . . . فقال: يا أبا الحسن إن أمة موسى افترقت على إحدى وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار وإن أمة عيسى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقون في النار فقلت يا رسول الله ﷺ: فما الناجية؟ قال: المُسْتَمسِك بما أنت وشيعتك وأصحابك. . .

وممن أخرجه علي بن عبد العال الكركي في نفحات اللاهوت (٨٦) والتونسي الشهير بالكافي في السيف اليماني المسلول (١٦٩).

وفيه (١٤: ٥٩٦) الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (١: ٦٨) أخبرنا محمد بن علي بن محمد المقري أن أبي قال: . . . عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال لي سلمان الفارسي ما طلعت على رسول الله ﷺ يا أبا الحسن وأنا معه إلّا ضرب بين كتفي وقال: يا سلمان هذا وحربه هم المفلحون.

وفي لفظ آخر عن سلمان الخبر فقال: يا أبا الحسن قلما أقبلت أنت وأنا عند رسول الله ﷺ إلّا قال: يا سلمان هذا وحزبه هم المفلحون يوم القيامة.

ورواه عن الحسن حسين بن الحكم الجري وأبو القاسم سهل بن محمد بن عبد الله مثله.

وترى التفرق والاختلاف في الفروع الأحكامية لاختلافٍ في تفهم البينات، ولأن المجتهدين ليسوا بمعصومين، هل هو داخل في تهديد العذاب الأليم؟.

كلّا، وإنما هو التفرق عن حبل الله والاختلاف فيه أو عنه بعد البينة علماً وعتواً وتقصيراً، وأما القصور بعد صالح الجُهْد والاجتهاد - جَمْعاً بين جمعية الاعتصام التي تضمن شورى بينهم - فلا، بل هو مشكور محبور مهما كان للمخطئ غير المقصر أجر واحد وللمصيب أجران.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)﴾:

هنا اسوداد خاص للوجوه الخصوص، هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم أهل كتاب أو مسلمين حيث تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البيِّنات، وهي ضمن سائر الوجوه الكافرة، ومن العُجاب أن كل مذهب يذهب إلى أن غيره من المسودة وجوههم باختلاق روايات وتكلف تأويلات[١] تفرقاً في ذلك واختلافاً بعدما جاءتهم البينات، وإن المسودة وجوههم هم المتخلفون عن

(١) الدر المنثور ٢ : ٦٢ - أخرج الخطيب في رواة مالك والديلمي عن ابن عمر عن النبي ﷺ في الآية قال: تبيّض وجوه أهل السنة وتسوَّد وجوه أهل البدع، وفيه اخرج أبو نصر السنجري في الأمانة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية قال: تبيّض وجوه أهل الجماعات والسنة وتسوّد وجود أهل البدع والأهواء.

أقول: إن كان هذا قول الرسول ﷺ فهو لا يقول إلّا عن الله، فالجماعة والجماعات هم المعتصمون بحبل الله جميعاً، وأهل السنة هم المعتصمون بسنة الرسول على هامش كتاب الله، ونرى قسماً ممن يسمون بأهل السنة تاركين للكتاب والسنة وكما نرى قسماً ممن يسمون بالشيعة أمثالهم، فالمعتصمون جميعاً بالكتاب والسنة جميعاً هم من الذين ابيضت وجوههم.

أترى القائل هذا كتاب الله حسبنا رفضاً لوصية رسول الله وهي أسنى السنة وأسنّها، هو من الذين ابيضت وجوههم، والمعتصمين بتلك الوصية وسائر السنة التي حملها العترة الطاهرة هم من الذين اسودت وجوههم؟!

الاعتصام بحبل الله جميعاً، ومن المجمع عليه ضرورياً بين كافة المسلمين أن علياً عليه السلام من المبيضة وجوههم، فالذين معه هم من هؤلاء الوجوه النيرة، فسواهم سواهم، وعلى الجملة فهذه الوجوه المسوَّدة هي من ضمن سائر الوجوه الكالحة: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[1] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾[2] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾[3].

ثم هنا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعم خالده وسواه، فإن الضالين من المسلمين ليسوا على سواء، فمنهم من يذوق العذاب ثم ينجو، وفي ذوق العذاب دون دخوله تلميح مليح أنهم لا يستحقون دخول النار ولا خلوده، إلّا من يستحقه بارتداد وسواه من شاكلة الكفر بعد الايمان.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾:

فالخلود في رحمة الله هو الأبدية اللانهائية فإنها عطاء غير مجذوذ قضية الفضل في واسعة الرحمة، وذوق عذاب الله مقدر بقدر الاستحقاق فإنه جزاء وفاق قضية العدل فإنه مضيق، واللّانهائية في العذاب ظلم فإنها جزاء غير وفاق.

هكذا ينبض المشهد بحوار مع المعتصمين بحبل الله والكفار في دار القرار، معروضة عليهم في دار الفرار، نبهة لهم عن غفوتهم، وإدراكاً بعد سهوتهم و:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾:

﴿تِلْكَ﴾ البعيدة المدى، القريبة الهدى ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ رسولية ورسالية

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٠.
(٢) سورة عبس، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٣) سورة القيامة، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ - آيات بالحق - نتلوها بالحق - عليك حال كونك بالحق، بسبب الحق ومصدره، مصاحبة للحق، لغاية الحق، بياناً للحق، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ بل هم أنفسهم يظلمون، وكما في حديث قدسي «خلقتهم ليربحوا علي لا لأربح عليهم»[1].

ف ﴿تِلْكَ﴾ المساير والمصاير، تلك الحقائق البينة الصادرة من رب العزة غير السادرة، ﴿تِلْكَ﴾ هي ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ دون مَن سواه، دالة بأنفسها أنها ربانية المصدر والصدور، ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا حامل الرسالة الأخيرة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الثابت الحقيق بالبقاء دون نسخ ولا تجديف أو تحريف ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو القوي العزيز، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف!.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾:

وتَرى ماذا يعني رجوع الأمور إلى الله، وهي في علمه وسلطانه، غير خارجة عنهما ما وجدت؟ إنه تعالى ملّكنا في دار التكليف والامتحان أموراً نحن فيها مستخلفون ليبلونا أينا أحسن عملاً، ثم عند تقضّي هذه الدار وانتقال هذه الحال ترجع أمورنا المخيرة لنا إلى الله مسيَّرة علينا، وكما كنا أجنة في بطون أمهاتنا دون حول ولا قوة إلّا بالله.

إن الأمور المسيَّرة هي راجعة إلى الله على أية حال حيث لا فاعل لها إلّا الله، فإنما الأمور المخيرة هي الراجعة إلى الله في يوم الله، حيث الله يُحاسبها ويُجازي عليها، وقد كان قبل يعلم مصادرها ومسايرها ومصائرها، وإلى ما ترجع أوائلها وأواخرها، فقد رجعت الآن إلى ما كان يعلم الله فاتقوه إن توافوه بمعاصيكم ومآسيكم.

كما وإن ناساً في هذه الأدنى ربما يُخيّل إليهم زوراً وغروراً أنهم

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨: ١٧٢ قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن رب العزة سبحانه: . . .

يملكون لأنفسهم أم ولسواهم نفعاً أو ضراً دون تخويل من الله أو تمويل، إضافة للمخصوص بالله إلى أنفسهم، خلعاً لبعض صفاته عنه إلى خلقه، فإذا انحسر قناع الشك، وانكشف غطاء الرأس، واضطر الناس إلى معارف وانقطع التكليف وتقوضت الدنيا بحذافيرها، علم الجميع ألَّا مؤثر في الكون إلَّا الله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ على أية حال في الأولى والأخرى مهما اختلفتا تخييراً وتسييراً.

فهنا الرجوع ليس إلَّا بالنسبة لمعرفة الغافلين، وليس حقيقةَ الرجوع لأنها كائنة على أية حال.

ذلك! وأصل الرجوع هو الانعطاف والانقلاب بشيءٍ، لا أنه كان عندك ففارقك تماماً أو بعضاً، وإنما الانعطاف بعد الانحراف، والانقلاب بعد الانغلاب، فالسابقون هم راجعون بأمورهم إلى الله إذ ما يشاؤون إلّا أن يشاء الله وكما يروى عن علي عليه السلام: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

أترى مَن هم المعنيون هنا بـ﴿كُنتُمْ﴾؟ أهم أمة الإسلام كلهم ومنهم - وهم أكثرهم - فسقة يُدعَون إلى الخير ويؤمَرون وينهون وقد لا يأتمرون أو ينتهون! ثم ولا تختص الفريضتان بهذه الأمة، بل تحلقان على كلّ الأمم الرسالية حفاظاً عليها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[1] أم هم الأمة الآمرة الناهية، وهم عدول الأمة الإسلامية وربانيُّوها، المتوفرة فيهم شروطات الأمر والنهي، حيث الخطاب يخص السابق ذكرهم في

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾[(١)]؟ فكذلك الأمر في ثاني الأمرين وهو أممية ذلك الفرض الرسالي دون اختصاص بالدعاة المسلمين!.

فهم الأمة الوسط بين الرسول والأمة، التي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السلام [(٢)]: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾[(٣)].

ذلك! مهما شملت هذه الأمة في ذيلها ربَّانيَّ الأمة الإسلامية، فهما - بين كلّ الأمم الداعية في التاريخ الرسالي - خير أمة أخرجت للناس وهم كلّ المرسل إليهم، أم هم المسلمون الأوّلون إذ كانوا خير أمة آمرة ناهية مؤمنة؟ ومتى كانوا هم كلهم كذلك ثم تحوَّلوا عن ذلك! أفي العهد المكي؟ ولم يكن هناك أي مجال لأمر أو نهي اللّهم إلّا أمن الحفاظ على أنفسهم وعقائدهم! أم في العهد المدني؟

والآية نازلة فيه! أم في بدايته؟ والنهاية كانت أحسن من البداية وقد تمركزت دولة الإسلام!.

ثم وهم بدايةً ونهايةً في ذلك العهد لم يكن الآمرون منهم والناهون إلّا الأقلين، وكما الحالة نفس الحالة في كلّ الأدوار الإسلامية!.

هنا ﴿أُمَّةٍ﴾ هم الأمة الآمرة الناهية، فالآمرون الناهون من المسلمين هم خير الدعاة في تاريخ الدعوات[(٤)] على مدار الزمن الرسالي، لا سيما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٨٢ في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال : يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السلام فهم الأمة التي بعث الله فيها ومنها وإليها وهم الأمة الوسطى، وفي تفسير البرهان (١ : ٢٠٧) القمي في: . . . .

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٤) الدر المنثور أخرج جماعة عن معاوية بن حيدة أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية قال: إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله.

بمن فيهم من السدة العليا الرسولية والرسالية محمد وعترته المعصومون عليهم السلام (١) صحيح أن الأمة الإسلامية هي خير الأمم رسولياً ورسالياً لإسلامها السليم، ولكنهم ليسوا - ككلٍّ - خير الأمم، وإنما هو مبدئياً بارز في دعاتهم إلى الله، وخيرهم - كما هم خير الدعاة - هم الدعاة المعصومون عليهم السلام.

فالخطاب هنا يشمل مثلث الدعاة إلى الله في هذه الأمة، والمعصومون منهم هم رأس الزاوية، ثم الربانيون، ومن ثم سائر الآمرين - من الأمة - والناهين.

إذاً فهو خطاب يحلِّق على كلّ الأدوار الرسالية الإسلامية منذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين، فهم أولاء الثلاثة هم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ آمرة ناهية على مدار الزمن الرسالي بكل خيوطه وخطوطه.

﴿أُخْرِجَتْ﴾ اصطفاءً بين الكل ﴿لِلنَّاسِ﴾ كلّ الناس، فهم كلّ من سواهم من سائر المكلفين مسلمين وكتابيين وسواهم.

وقد تلمح ﴿كُنتُمْ﴾ الماضية، دون «أنتم»(٢) الطليقة عن أي زمان خاص، أن الميزة البارزة في دعاة هذه الأمة ماضية في بشارات من كتابات الوحي، وكما نراها فيها(٣) كما هي ماضية في علم الله، فلا تخالفوه،

---

(١) نور الثقلين رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: فهذه الآية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وآله ومن تابعهم يدعون. . . وفي الدر المنثور اخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر عليه السلام: كنتم خير أمة. . . قال: أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٨٢ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وقرأ الباقر: «أنتم خير أمة» بالألف نزل بها وهم الأوصياء من ولده.

أقول: «أنتم» مرفوضة لمخالفتها نص الكتاب ﴿كُنتُمْ﴾.

(٣) ففي سفر التثنية ١٧ : ٢٠ يقول ما ترجمته الحرفية كالتالية: ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها أنا أباركه كثيراً وأنميه وأثمره كثيراً وأرفع مقامه كثيراً بمحمد واثني عشر إماماً يلدهم (إسماعيل) وأجعله أمة كبيرة.

=

وحقّقوه بأعمالكم ليكون آكد لحجتكم على أعدائكم تحقيقاً حقيقاً لتلكم البشارات، وإلّا فقد يجد الطاعن منهم فيكم مطعناً والغامز مغمزاً.

إذاً فلا تعني ﴿كُنتُمْ﴾ هنا إلّا العَليَّة من هذه الأمة دون الدنية أو الوسيطة البسيطة، أنهم كانوا قبلئذ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ثم غيّروا منذ الخطاب!.

إذاً فهي ماضية في الرسول ﷺ وعترته الطاهرة والذين معهم طول الزمن دعاةً إلى الله حتى القيامة الكبرى.

ومما يُبرهن بقاء هذه الكينونة المشرفة الماضية واقع الداعية الإسلامية من رباني الأمة مهما قلوا، كما و«تأمرون وتنهون» في مضارعتهما دليل استمرارية هذه الخيرية بالخيرين، فـ ﴿كُنتُمْ... تَأْمُرُونَ...﴾ ماض بعيد مستمر مع الزمن الرسالي الاسلامي دونما انقطاع مهما لم تكن فيهم الكفاءة بتقصير من قصّر.

وصحيح أن الدعاة المعصومين عليهم السلام هم خَيْرُ أئمة[1] ولكن لفظ الآية

= ويعبر داود عليه السلام عن دُعاة هذه الأمة بالأصفياء، كما في مزمور (١٤٩ : ١ و٦ - ٩) من الزبور هللويا. رنّموا للرب ترنيماً جديداً، أقيموا تسبيحه في مجمع الأصفياء، يبتهج الأصفياء في المجد يرتمون على أسرتهم. تعظيم الله في أفواههم وبأيديهم سيف ذو حدين. لإجراء الانتقام على الأمم والتأديب على الشعوب. لايثاق الملوك بالقيود وشرفائهم بكبول من حديد ليمضوا عليهم القضاء المكتوب. هذا فخرٌ يكون لجميع أصفيائه هللويا.

وفيه ٤٥ : ١٨ يكون بنوك عوضاً من آبائك تقيمهم رؤساء على جميع أهل الأرض، سأذكر اسمك في كلِّ جيل فجيل. لذلك يعترف لك الشعوب.

وفي «نبوئت هيلد»: وحي الطفل: ستأتي أمة تزعزع العالم وتحدث خرابات وإطفاءات بيد ابن الأمة (راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية).

(١) من مثلهم في التوراة ما أخرجناه من البشارات، ومن مثلهم في الإنجيل: «في أبناء الملكوت حبات الحنطة التي تعطي مئة ضعف وفيهم أولاد إبليس» (متى ١٣ : ٢٤ - ٣٠و٣: ٤٧ - ٥ و٢٢: ١٠) «أبناء الملكوت هم ملح الأرض ويقدر ما يحتاج الطعام الى الملح فكذلك كلّ العالم وجميع أقوام كرة الأرض يفتقرون الى أبناء ملكوت الله» (متى ٥: ١٤ - ١٦) راجع ص ١٢٦ - ١٢٧ رسول الإسلام).

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ تعني خير الأمم الداعية الآمرة الناهية، فهم في التنزيل ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وفي التأويل «خير أئمة» كقادة لهؤلاء الأكارم.

ولقد تكفي آية الفتح بياناً لهم وتعريفاً بهم: ﴿... وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[1] [2].

فاختلاق «أنتم خير أمة» دلالةٌ على ثبوت هذه المواصفة لهم دون تقضٍ قضيةَ المضي في ﴿كُنتُمْ﴾ ليس إلّا لسوء الفهم وقلة الحزم.

وما أجهله في تفهم معاني القرآن من يبتدر باختلاق أمثال هذه المختلقات الزور، تزييفاً لموقف القرآن ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3]!.

ف ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ هو الإخراج التصفوي من كلّ الناس المرسل إليهم على مدار الزمن الرسالي، أخرجهم الله إلى الوجود في آخر الزمن بين من من الدعاة على ضوء هذه الرسالة السامية الأخيرة، فعليهم - إذاً - دعوة

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) المصدر في تفسير القمي بسند متصل عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال قرأت على أبي عبد الله عليه السلام ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] فقال أبو عبد الله عليه السلام: خير أمة تقتلون أمير المؤمنين والحسن والحسين ابني علي عليه السلام؟ فقال القارئ: جعلت فداك كيف نزلت؟ فقال: كنتم خير أئمة أخرجت للناس، ألا ترى مدح الله لهم ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]؟.

وفيه عن تفسير العياشي أبو بصير عنه عليه السلام قال: إنما أنزلت هذه الآية على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيه وفي الأوصياء خاصة فقال: كنتم خير أئمة أخرجت للناس... هكذا والله نزل بها جبرئيل وما عنى بها إلّا محمداً وأوصياءه صلوات الله عليهم.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

الناس جميعاً إلى الخير، سواء ناس الإسلام ومن سواهم من الناس، حملاً لِحمل الرسالة الإسلامية بكل أعبائها الثقيلة إلى مشارق الأرض ومغاربها كأفضل ما يُرام، حيث الدعوة في مادتها ومدتها، في عدّتها وعدّتها شاملة كاملة.

وخَيْرُ أدوارها المحلقة على كافة المكلفين هو دور القائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلِئتَ ظلماً وجوراً، وعلى الأمة الإسلامية على مدار الزمن وقبل آخر الزمن تحقيق هذه الفضيلة الكبرى قدر المستطاع والإمكانية، تخليصاً لأنفسهم عن حُكْمِ الطواغيت وتعبيداً لطريق المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

والمواصفات الثلاث لهم: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ - وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ - وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ في كونهم خَيْرُ أمة، تقتضي أنهم في القمة المرموقة من هذه الثلاث، فإن أصولها مشتركة بين الأمم كلها، وكما إن ﴿كُنتُمْ. . . تَأْمُرُونَ﴾ تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي بشارة، كذلك استمرارية استقبالية واقعاً مهما تخلف عن واجبهم متخلفون، فإنهم لا يعنون من ﴿كُنتُمْ﴾ ولا ﴿تَأْمُرُونَ﴾.

وكما أن الدعاة المعصومين من هذه الأمة هم خَيْرُ أمة أُخرجت للناس، فليكن كذلك من يخلفهم من الربانيين المسلمين، ثم المسلمون ككلّ.

و﴿أُخْرِجَتْ﴾ مجهولة لتشمل الإخراج الرباني أمراً منه في «ولتكن» وانتصاباً للقمة العليا وهم المعصومون في الرسل والرسالات، وانتخاباً من الأمة هذه الأمة الصالحة للدعوة والأمر والنهي.

فما لا بُدَّ منه في كافة الأمم الرسالية إخراج أمة منهم لهذه المسؤولية

الكبرى التي هي استمرارية للرسالات حيث تعنيهم - فيما تعني - ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

فكما الرسل والأئمة المعصومون هم الأمة العليا في حمل مسؤوليات الرسالات كأصول فيها، والله هو المكوِّن لهم والمنتصب إياهم، كذلك سائر الدعاة إلى الله، الآمرين الناهين، يجب تكوينهم في كلّ أمة، وذلك على عواتق الأمم كلهم، أن يكونوا هؤلاء الدعاة الذين هم خلفاء الرسل وربانيو الأمم.

ف ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ تعني دعاة الإسلام الآمرين الناهين، إنهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ توحيداً للأمة الداعية الآمرة الناهية على مدار الرسالات كما الرسل واحدة وأُممهم أمة واحدة في أصل الدعوة مصدراً ومسيراً ومصيراً مهما اختلفت شكليات من فروع لهم شرعية.

فكما ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2] على وحدتهم، كذلك ﴿أُمَّةٍ﴾ الدعوة بعد الرسل، وكما أن خاتم الرسل هو خير الرسل، كذلك الدعاة - معه وبعده - إلى الله هو ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ في ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ حيث الدعوة درجات بمادتها وشكليتها وحملتها.

فقد أراد الله تعالى قمة القيادة لهذه الأمة البارعة، لتقود الناس ككلّ إلى كلّ مصالح الدين والدنيا على ضوء الاعتصام بحبل الله جميعاً وتقوى الله حق تقاته.

فلا مُجاملة هنا ولا مُحاباة أو مُصادفة، إنما هو أمر قاصد هادف أن

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

تكون الإمامة العليا لهذه الأمة، فكما أن رسولها هو رسول الرسل ووليهم، كذلك أئمتها وسائر الأمة.

ليس توزيع الاختصاصات والكرامات هنا كما كان ولا يزال يزعمه أهل الكتاب ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[1] فإنما هو العمل الإيجابي الجاد لحفظ الحياة الإيمانية الجماهيرية على رعاية الله، بكلٍّ ما تتطلبه هذه التكاليف من متاعب، قضية الأمر والنهي الصارم اللذين يتبناهما الإيمان الصارم مهما كلف الأمر الإمر في هذه السبيل الشائكة الملتوية المليئة بالأشواك والعقبات، فإن زادهم في هذه السبيل هو الإيمان بالله، اعتصاماً بحبل الله جميعاً دون تفرق، بتقوى الله حق تقاته، لكي يمضوا في طريقهم الشاقة الطويلة قُدُماً، احتمالاً لكلِّ تكاليفها وهم يواجهون الطُّغاة البُغاة بكلِّ عرامتها وشقوتها وشِدَّتها.

ذلك! ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ككل «لكان خيراً لهم، إذ يُصْبِحُون» - إذاً - من خير أمة أُخرجت للناس، ولكن ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ فالإيمان خير لهم في أولاهم وأخراهم، فهنا يستعصمون به من الفرقة والهَلْهَلَة المحلقة على كلّ حياتهم وحيوياتهم، ويكسبون السؤدد - الذي يخافون على زواله - وزيادة، وهناك في الأخرى رحمة الله ورضوانه.

وهنا «المؤمنون والفاسقون» معرَّفين تأشيراً إلى المعلوم من أحوالهم لدى المتفرسين من المؤمنين، وليس يختص ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هنا بمن آمن منهم بالفعل إذ لا يشملهم ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ بل هم من لا يفسق عن الإيمان مقصراً، وأما القصور عن الإيمان بالرسالة الأخيرة مع الحفاظ على أصل الإيمان، فهو يُدخل القاصرين في المؤمنين.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨.

وترى بإمكان الفاسقين منهم أن يضروا خير أمة أُخرجت للناس، المتوفرة فيها المواصفات السابغة السابقة؟ كلا!:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾:

الأذى هي دون الضرر أو الضرر الأدون وإلَّا لتناقض المستثنى منه إلّا بانقطاعه منه، وعلَّ القصد منها ما يقولونه بألسنتهم تعريضاً بكم وتعييراً لكم، دون واقع الاصطدام بإيقاع الغليظ المكروه الشديد.

أم وأذى الجراح والقراح والقتل بدنياً إن يقاتلوكم، دون ضرر الغلبة بحجة أم سلطة عسكرية أماهيه، فحسن استثناء ﴿أَذًى﴾ من ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ حيث إن تلك الأذى هي بالنسبة لتلك الأضرار كأنها لا تضر إذ لا تؤثر عميقاً ولا تجحف، فحاصل المعنى «لن يضروكم إلا ضرراً قليلاً».

ولم تذكر الأذى في سائر القرآن إلّا في قليل الضرر اللّهم إلّا إذا أفردت بذكر، فعامته كـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾(١).

ذلك ومتى بلغ الأمر إلى المدافعة والمقاتلة وانتهى الوعيد إلى المواقعة كان المؤمنون أقوى ظهوراً وأشداً استظهاراً، والكفار أنقض ظهوراً وأضعف عماداً وأكثر استدباراً، وذلك من ملاحم الغيب ودلائل صحة هذه النبوة السامية وكما رأينا في ماضي تاريخنا المجيد أن اليهود لم يقاتلوا المسلمين إلّا منحوهم أكتافهم وأجزروهم لحومهم كبني قريظة وبني قينقاع، ويهود خيبر وبني النضير وكم لهم من نظير!.

فـ ﴿لَن﴾ لها دور الإحالة لمدخولها وهو هنا ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾ وهم فسقة أهل الكتاب وأَفسَقهُم اليهود و﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ هؤلاء بحذافيرهم أي ضرّ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

بأنفسكم وعقائدكم وكل كيانكم الإسلامي السامي ﴿إِلَّآ أَذًى﴾ وهو دون ضرٌ ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ عليكم.

أترى بعدُ أن تلك الإحالة تعم كافة المسلمين وهو خلاف الواقع الملموس طول القرون الإسلامية حتى الآن؟.

كلّا، فإنها خاصة بمن خوطبوا من ذي قبل بتحقيق شروط السيادة: اعتصاماً بالله - حيث تتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله - وبتقوى الله حق تقاته، وأن يعيشوا على طول الخط مسلمين لله، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا، وتكن منهم أمة داعية آمرة ناهية، وأخيراً يصبحوا من خير أمة أُخرجت للناس، إذا فـ ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ﴾ أنتم المخاطبون بهذه الأوامر، المحققون لها كما أمرتم ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾!.

فلأن الأذى هي دون الضرر فالاستثناء - إذاً - منقطع، أو هو الضرر القليل الضئيل فمتُصّل، وعلى أية حال فالنص يبشر باستحالة الضرر من فسقة أهل الكتاب على هؤلاء المؤمنين القائمين بشرائط الإيمان، المسرودة من ذي قبل.

فالانهزامات العقيدية والثقافية والعسكرية أماهيه لمن يُسمّون مسلمين ليست إلّا من خلفيات الانهزامات الإيمانية ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

إنه ليست صيغة الإسلام والإيمان هي العاصمة لحامليها عن الشرّ والضرِّ، الكافلة للخير، ولا أن صيغة التهوّد والتنصر هي القاضية على حامليها، إنما الكافل هو الإيمان الصامد أياً كان فـ : ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[١].

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾:

هذه تضرب عليهم الذلة إلّا بحبل من الله وحبل من الناس، ثم تضرب عليهم المسكنة دون استثناء، وأخرى تضربهما عليهم دون ذكر للحبلين: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٢].

وهذه مقيدة بتلك قضيةَ تقييدها وطبيعة الحال في زوال تلك الحال.

ومن الذلة الدائبة على اليهود سَوْمُ العذاب عليهم من المجاهدين مسلمين وسواهم في دويلاتهم النحسة الويلات كما قال الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)﴾[٣].

وترى الذلة المضروبة ﴿عَلَيْهِمُ﴾: فسقة أهل الكتاب، هي التشريعية لمكان ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أي وُجدوا في تحري المؤمنين الملاحقين إياهم، حيث الثقف هو الحذق في إدراك الشيء ومنه الثقافة فإنها حذق في إدراك العلوم.

فبحِذق المؤمنين تكميلاً لشروط الإيمان، وحذقهم في ملاحقة المؤذين من

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦٧، ١٦٨.

فسقة أهل الكتاب، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾[١] ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾[٢] ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾[٣] فحذار حذار ألّا يثقفوكم بفاشل إيمانكم فـ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[٤].

أم وهي الذلة التكوينية حيث الفسق ذل في نفسه وذل في المجتمع الصالح، وذل عند الفاسق نفسه إذ لا يفلح الفاسقون مهما أبرقوا وأرعدوا ردحاً من الزمن، و﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب في ذلة وسكنة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ...﴾ ولكن لا على أية حال ومهما تحولت الأحوال، بل هي دون الحبلين فـ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ يصد عنهم الذلة تشريعاً وتكويناً، فما هما الحبلان؟.

﴿بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ معروف أنه «حبل الله» اعتصاماً بالله وبكتاب الله وتنكير «حبل» تلميح بأن كلّ قدر من حبل الله له عصمته عن الذلة، فإذا اكتمل يصبح عاصماً طليقاً عن كلّ ضرٍّ.

فبزوغ الإيمان من فسقة أهل الكتاب هو «حبلٌ من الله» ولمّا يكمل، ثم تكامل إيمانهم بشروطه تكامل لاعتصامهم بحبل الله، فليس الاعتصام إلّا بقدر فتل الحبل، ولا الذلة إلّا على قدر فتل الحبل، إذاً فـ «حبل من الله» طليقة بالنسبة لكلٍّ درجات الحبل: رسولياً ورسالياً، فحين يؤمن الكتابي الفاسق بكتابه كما يحق فلا ذلة له، مهما لم يؤمن برسالة الإسلام قصوراً

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩١.
(٤) سورة الممتحنة.، الآية: ٢.

كما في آية اللاسواء التالية، وحين يؤمن بهذه الرسالة ولمّا يكمل إيمانه تكامل عزّه، حتى يصل إلى القمة المعنية بالآيات السالفة اعتصاماً كاملاً بحبل الله.

وهكذا الأمر ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ حيث تقصد بعد الله بكتابه، رسول الله، ثم الدعاة الرساليين ثم سائر المؤمنين، أو ومِن ثَمَّ سائر الناس أجمعين حيث الجمعية المعاضدة لها أثرها عضداً مهما كانت باطلة فضلاً عن الجمعية الحقة الحقيقية وبين «حبل من الله» ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عموم من وجه، فـ «حبل من الله» فقط هو الاعتصام بالله وبكتاب الله فـ «حبل من الناس» فقط هو الاعتصام بالناس غير الرساليين، ومجمع بينهما هو الناس الرساليون معصومين وسواهم من المؤمنين حيث يجتمع هنا الحبلان مع بعضهما البعض.

ولقد بُيّن الحبلان في آية الاعتصام ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ فـ ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ هو الأصل لـ ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾ هو الأصل لـ ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولا سيّما الثقل الأصغر رسولاً وعترته(١).

فالحبلان العاصمان يعصمان المعتصمين بهما عن كلّ ذل ومسكنة في كافة الحقول الحيوية ضماناً صارماً من الله وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٨٣ في تفسير العياشي عن يونس بن عبد الرحمن عن عدة من أصحابنا رفعوه الى أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: الحبل من الله كتاب الله والحبل من الناس هو علي بن أبي طالب عليه السلام.
أقول وهذا من التفسير بالمصداق الوسيط بين الرسول والأمة، تلحيقاً له بالرسول أمام ناكريه، وقد مضى الحديث عن تفسير البرهان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جواب السائل بين لنا ما هذا الحبل؟ فقال هو قول الله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٢] فالحبل من الله كتابه والحبل من الناس وصيي . . .

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ وكما نلمسها في اليهود مهما كانوا أثرياء فإنهم مساكين فقراء في ذوات نفوسهم.

وترى أن هذه المسكنة تزول عنهم كما الذلة بحبل من الله وحبل من الناس؟ طليق المسكنة بعد الاستثناء يقول: لا، ثم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(١)، هذه وأضرابهما من الواعدة زوال الذلة والمسكنة تقول: نعم، فقد تلمح تأخر المسكنة بطليقها تأخر زوالها عن هؤلاء الفسقة، أم وبأحرى أن زوال الذلة يكفيه حبل من الله وحبل من الناس، وليس زوال المسكنة ليكفيه حبلٌ مَّا الموافق لبقائهم على دينهم قاصرين، وكما نرى اليهود القاصرين في مسكنة بيّنة، وهذا هو الفارق بين الذلة والمسكنة هنا، حيث الثانية هي لزام التأخر عن كامل الحبلين كما هو ملموس في اليهود!.

وذيل الآية المعلِّل للذلِّ والمسكنة يقرر أنهم هم فسقة اليهود، إذ لم يعهد من النصارى أن يقتلوا النبيين، فمصب الآية منذ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ - حتى - ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ هم اليهود، مهما شمل استحالة الضر كلّ فسقة أهل الكتاب لمكان رجوع ضمير الجمع إلى ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ حيث لا يختص بفسقة اليهود.

إذاً فثالوث: الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله - يشمل كلّ فسقة أهل الكتاب على قَدْرِ فسقهم ومروقهم، ولا سيما اليهود المغضوب عليهم وهم أشدُّ عداوة للذين آمنوا وأضرّ ضراوة عليهم كما قال الله: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

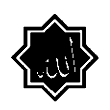
وترى إذا السابقون كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق فما على اللاحقين الذين لم يُقتلوا؟ ذلك لأنهم سلسلة موصولة طوال تاريخهم المنحوس المدسوس، فأولئك قتلوا الأنبياء وهؤلاء قتلوا النبوات، فلو وصلت أيديهم إليهم لقتلوهم، فهم نمط واحد على طول الخط، فتشملهم الذلة والمسكنة كذلك ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وقتل الأنبياء وسواهم هو في مثلث مهما اختلفت زواياه:

١ - سفك دمائهم بأيديهم عناداً وعتوّاً على رسالات الله.

٢ - التسبب لقتلهم أن يذيعوا عنهم أموراً يسبب قتلهم[2].

٣ - الرضا بما فعل القتلة حيث الراضي بفعل قوم هو منهم.



(١) سورة المائدة، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

(٢) نور الثقلين ١ : ٢٨٣ في أصول الكافي يونس عن ابن سنان عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام وتلا هذه الآية قال: والله ما قتلوهم بأيديهم ولا ضربوهم بأسيافهم ولكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها فقتلوا فصار قتلاً واعتداء ومعصية.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ
الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ
فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا
عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا
لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ
وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ
تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)
وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾:

إن اللّاسواء بين أهل الكتاب هو قضية عدل الله كما اللاسواء حاكم بين المسلمين وسائر الموحدين على شتات مذاهبهم، فـ ﴿لَيْسُوا۟﴾ أهل الكتاب الماضي ذكرهم بسوء ﴿سَوَآءً﴾ أم ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ آخرين منهم فـ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إذاً هي ذات تَعلقَيْنِ اثْنَيْنِ.

فبمجرد أن فلاناً يهودي أو نصراني لا يقضى عليه بذلة ومسكنة أماهيه من أحكام الكفرة العصاة المعتدين، حيث العبرة الأصيلة في ميزان الله هي الإيمان بالله واليوم الآخر وعملُ الصالحات، كما وأن مجرّد اسم الإسلام والإيمان ليس لزامه الأمان من ذلك الحكم العدل الحكيم.

وهذه الآيات الثلاث تحمل عشرة كاملة من ميزات بين موجبات

ومنتوجات لزمرة - مهما كانت قليلة - من أهل الكتاب، تعدُّهم أخيراً من المتقين.

وهذه ضابطة ثابتة في منطق القرآن أن الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ليست لتهدر على أية حال، مهما كان حاملها كتابياً أو مسلماً، فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) (٢).

وترى هنا ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ تعني الكتابيين الذين آمنوا بشرعة الإسلام؟ وصالح التعبير عنهم «المؤمنين» أو ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لسابق كونهم كتابيين ثم آمنوا!، إنهم هم المؤمنون من أهل الكتاب سواءً الذين آمنوا منهم بالفعل فندَّد بهم زملاؤهم الكتابيون(٣) أم لمّا يؤمنوا وهم يتحرّون عنه، أم القاصرون عن معرفة الإسلام مهما كانوا تالين الكتاب، وقد شملهم ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ مهما كان الأوّل هامشياً لأن حساب السواء لم يكن من الأحبار المندّدين بمن أسلم منهم.

هذا، وإلى تلك العشرة الكاملة العشيرة لأهل التقى من أهل الكتاب:

١ - ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ في تحقيق الحق وإبطال الباطل، دون فشل ولا كسل، حيث الفاشلون الكسالى من أية أمة كتابية أو مسلمة لا تحسب بحساب المتقين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٢) راجع الفرقان ١: ٤٣٤ - ٤٤٤ تجد قولاً فصلاً حول موضوع الآية فلا نعيد.

(٣) الدر المنثور ٢: ٦٤ - اخرج جماعة عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيد وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم آمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد وتبعه إلّا شرارنا ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا الى غيره فأنزل الله في ذلك ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً...﴾ [آل عِمرَان: ١١٣] أقول: ليسوا سواء قد لا يناسب خصوص هذا الشأن لنزول الآية إذ لم يحب الأحبار لهم حساب السواء بل كان حسابهم اللاسواء.

إذاً ف ﴿قَآئِمَةٌ﴾ تعم كلّ قيامة وقوامة بالعدل والقسط وما يحق القيام به وفيه وله وعليه وإليه في شرعة الله وكما يذكر من مهامها:

٢ - ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ فالليل الرياحة حين تتلى فيه آيات الله، تكون المتلوّة فيه أخلص وأنبى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[1].

و﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون المُسماة بتوراة أو إنجيل، تلمح أن القصد منها آيات الوحي غير الخليطة بسواها، فهي القرآن وما قبله من آيات وحي التوراة والإنجيل.

وترى إذا كان التوراة والإنجيل محرّفين كما يُصرّح به القرآن فكيف بإمكان مؤمني أهل الكتاب ولا سيّما القاصرين منهم أن يتلوا آيات الوحي منهما؟.

قد يعني من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ما يعرفونها من أصل الوحي مهما أخطأوا قاصرين، دون الآيات التي يَعْرِفونها دخيلة في وحي الكتاب.

فتلاوتهم للتوراة والإنجيل تَعْني تلاوة آيات الله ما لم تتبيّن لهم منها أنها دخيلات متسربات.

أو يقال «يتلون» حسب المستطاع حيث يحاولون - فقط - تلاوة آيات الله دون المختلفات الزور والغرور.

ولأن هؤلاء هم الذين يعلمون الكتاب اجتهاداً أو تقليداً فهم أولاء الذين يميزون الأصيل من الآيات عن الدخيل، فهم بإمكانهم تلاوة آيات الله، ثم آيات الله تعمّ مع سائر كتب السماء القرآن العظيم، والمُحاول إيمانياً أن يتلو آيات الله مهما غلط فيها أو عنها إلى الدخيلة فيها قاصراً صادق عليه أنه يتلو آيات الله.

٣ - ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ لله دون سواه من مسيحٍ وسواه عند من حسبوه ابن

(١) سورة المزمل، الآية: ٦.

الله أو الله، وأما الساجدون لمن سوى الله مسيحاً وسواه فهم الضالون مهما كانوا قاصرين، حيث الفطرة الإنسانية السليمة تشجب السجود لغير الله مع السجود لله.

وهنا ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ تعمُّ السجود لآيات الله وهو غاية الخضوع الطليق لها في كلّ مراحلها، إلى السجود في الصلاة لله، والى غاية الخضوع لله، فلا تخص سجوداً خاصاً حيث الكل هو شريطة صالح الإيمان دون تبعيض.

٤ - ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيماناً صالحاً غير دخيل، حيث التثليث وما أشبه من انحرافات عن الإيمان بالله ليس إيماناً بالله، وكذلك اليوم الآخر كما هو مسرود في آيات الله.

٥ - ٦ - ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهما البُعد الثاني من الإيمان لفاعل المعروف وتارك المنكر، ولأن الأمر والنهي بحاجةٍ أساسيةٍ إلى مَعْرِفة المعروف والمنكر وعمل المعروف وترك المنكر، فهم أولاء العدول منهم كما وهم علماء لمكان ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ دون اختصاص بعلمائهم فإن شرط المعرفة بالمعروف والمنكر والائتمار والانتهاء يحصل بتقليدٍ كما يحصل باجتهاد، مهما كان على المقلد الاجتهاد السليم في تقليده.

٧ - ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ في كلّ ميادين سباقات الخيرات، دون ركودٍ ولا جمودٍ، فحياتهم كلها حركات في مسارعة الخيرات.

٨ - ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهم الرابع من مربع الصراط المستقيم: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

٩ - ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ كفراناً لكونهم كتابيين أم لسابق حالهم قبل أن يكونوا مسلمين.

١٠ - ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ يثيبهم كما يتقون مسلمين أم كتابيين.

وهذه العشرة لا تجتمع إلّا في نبلاء أهل الكتاب وقليل فيهم قاصرون، وكثير هؤلاء الذين آمنوا أم هم يتحرون عن صالح الإيمان فهم مسلمون.

فلا كفران لمساعي المتقين أياً كانوا، دون أن تنقص منها سابقة سوءٍ هم عنها الآن خارجون، وطالما الكتابي الذي يؤمن أم هو في سبيل الإيمان مكفَّر عند من يجهل المقاييس ولكنه غير مكفور عند الله بل هو مشكور، بل إن المؤمن مكفر وذلك أن معروفه يصعد إلى الله عزّوجلّ ولا ينتشر في الناس والكافر مشهور وذلك أن معروفه للناس ينتشر في الناس ولا يصعد إلى الله(١).

وقد يُروى عن أول العابدين: «يد الله فوق رؤوس المكفَّرين تُرَفرِفُ بالرحمة»(٢)، و«كان رسول الله مكفراً لا يُشكر معروفه ولقد كان معروفه على القرشي والعربي والعجمي ومن كان أعظم معروفاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على هذا الخلق وكذلك نحن أهل البيت مكفرون لا يشكر معروفنا وخيار المؤمنين مكفرون لا يُشكر معروفهم»(٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾:

هنا ﴿كَفَرُوا۟﴾ اللامحة إلى حادث الكفر بعد إيمان تعمُّ الكفر بعد

---

(١) نور الثقلين ١: ٢٢٢ في كتاب علل الشرائع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: . . .

(٢) المصدر عن العلل بإسناده إلى السكوني عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .

(٣) المصدر عن العلل بسند متصل عن علي بن أبي طالب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكفراً . . .

الإيمان واقعياً، أم إيمان هو قضية الفطرة السليمة والعقلية غير الدخيلة، والكفران هما بدركاتهما مشمولان لـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونتيجته ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعاد هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ على مدار الحياة في الأولى والأخرى ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قدر كفرهم دون خلودٍ لا نهائي مزعوم!.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

رغم أنه لا بدّ في الإنفاق أن يثمر نتاجاً قَدرَه، ولكنهم ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إنفاقاً فيها وفي سبيلها - مهما كان في زعمهم في سبيل الله وهم خالفوها إلى سواها حيث يَبْغونها عوجاً وإلّا فكلّ إنفاق هو في هذه الحياة، سواءٌ أكانت لها أم للأخرى، ولقد كانت اليهود تنفق أموالاً طائلة لإيذاء رسول الله ﷺ والإطاحة به، كأنهم ينفقونها في سبيل الله، وهو في الحياة الدنيا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾[١].

ذلك مثلهُ ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ والصرُّ هو الشدة والسرعة التي تصحبها لهيب النار أم برودة ثلجيَّة لا تبقي للحرث باقية، وكلاهما من شؤون النار حريقاً أو زمهريراً[٢] فكلما كان صرُّ إنفاقهم وشدّته عِدة وعُدة أكثر، كان هلاكهم في عِدتهم وعُدتهم أوفر، فإنفاق الكافر أياً كان لا يخلو عن ثالوثه المنحوس للكفر المحبط لأعماله: إنفاقاً في سبيل الله، أو الذي

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

(٢) وشاهداً على صرّ البرد:

لا يبردون إذا ما الأرض جلّلها صرّ الشتاء من الأمحال كالادم

ومن ذلك ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦-٧].

يزعمه أنه في سبيل الله، أو يعلمه أنه في الصدِّ عن سبيل الله مهما اختلفت دركاتها.

وذلك المثل يلمح - ضمن ما يمثل إنفاق الكفار - إن الصرَّ إنما يصيب حَرْثَ قوم ظلموا أنفسهم، مهما شمل حرث مَن سواهم محنة دون من أصابهم مهنة.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ مثلاً وممثلاً بهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وذلك الهلاك لما ينفقون ليس إلّا من خلفيات ظلمهم أنفسهم.

ثمَ ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ تَشملُ ثالوث الظلم - نفساً وسواها وبالحق - حيث المرجع فيها أنفسهم، مهما انضرَّ به غيرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاك حرثهم عن بكرته ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث كفروا فأَحْبَط الله أعمالهم فإنه عليهم أَضرّ وأَنْكى.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[1] لا ظلماً بهم بما أمرهم ونهاهم وجازاهم، ولا ظلماً منهم بأنفسهم وسواهم، فلا ظلم في ساحة الربوبية على أية حال، فإنما الظالم هم العباد بسوءِ اختيارهم.

ذلك! فهم أولاء الأنكاد البعاد الذين تنكبوا المنهج الجامع لمفردات الخيرات، الحافلة للمبرات الكافلة للمكرمات، فاختاروا لأنفسهم الشُّرود والضلال والانفلات من عصمة حبل الله جميعاً، فعملهم - إذاً - وكلّ ما يُنفقون في هذه الحياة الدنيا، هباءٌ، إذ لا قيمة لخيرٍ إلّا أن يتبنّى مَنْهَج صالح الإيمان.

ذلك، وإلى تحذير من هؤلاء الملاعين، المبايعين للدين بهذا الأَرْكَس الأدنى من زخرفات الحياة الدنيا، كيلا ينفر المؤمنون بما يعرفون فينضرّوا بما يضرّون إسراراً وإعلاناً:

(١) سورة غافر، الآية: ٣١.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

البطانة خلاف الظِهارة، وتُستعار لمن تختصه بالاطلاع على خفيّات أمورك المستسرة، فقد تكون بطانة خير فمحبورة مشكورة، أم بطانة شرّ فمحظورة محذورة(١).

و﴿بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ تعمُّ مَن سوى المؤمنين، مُلحدين أو مُشركين أو مسلمين: مُنافقين أو الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكن ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ... وَدُّواْ... قَدْ بَدَتِ...﴾ تستثني الآخرين، كما وقد تستثني غير المُعاندين من الكفّار، ولكن غير المؤمن أياً كان لا يصلح أن يكون بطانة للمؤمن، مهما اختصت هذه العلل لسلبية البطانة بالأعداء الألداء منهم.

و﴿بِطَانَةً﴾ هنا قد تكون ذات تعلقين اثنين ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ هي ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ و«لا تتخذوا من دونكم بطانة» فدون المؤمنين لا يصلح لكونهم بطانةً للمؤمنين ولا سيما في جمعية المصالح الإسلامية التي هي بحاجة إلى شورى العابد من أمة الإسلام كما فصلناها على ضوء آية الشورى.

وهنا مربع الحِكَم الحكيمة تُعلِّل ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ لنكون على بصيرة في أمرنا معهم:

١ - ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ والخَبال لغوياً هو الفساد الذي يلحق الحيوان

---

(١) في غريب القرآن للراغب وروي عنه ﷺ أنه قال: ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلّا كانت له بطانتان بطانة تأمرُه بالخير وتحضُّه عليه وبطانة تأمرُه بالشرّ وتحثُّه عليه.
أقول: ولكن بطانة الشرّ ما كانت تقدر على إضلاله وما كان نبي ولا خليفة نبي يتخذ لنفسه بطانة شرٍّ مهما لصقوا به.

فيورثه اضطراباً، كما بالنسبة للمنافقين في أخرى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1].

و﴿خَبَالًا﴾ في آيتنا، نكرة في سوق النفي، تشمل كلَّ خبال ثقافي - عقيدي - خلقي - اقتصادي - سياسي، أمّا ذا من فساد واضطراب.

و﴿يَأْلُونَكُمْ﴾: يقصرونكم من الألو: التقصير، فهم أولاء لا يقصرونكم خبالاً وفساداً في أيٍّ من حقوله، فذلك مدى جُهدهم في خبالكم ما استطاعوا إليه سبيلاً، فإن لم يقدروا على خبالكم بذات أيديهم فهُم - لأقل تقديرٍ - يودّونه:

٢ - ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: ودوّا عَنَتكم - في مصدرية «ما» - والذي عنتموه - في موصوليته - والعَنَت هو الأمر الذي يُخاف منه التلف، فهم - إذاً - لا يألونكُم خبال العنت وسواه حيث يودون أن يكون كلّ أمركم إمراً وصعوبة وهلاكاً حيث يبغضونكم على أية حال:

٣ - ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أتوماتيكياً رغم ما يحافظون على قيلاتهم أمامكم، فما يضمر أحدٌ أمراً إلّا وقد يظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه.

٤ - ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما تبدو من أفواههم، وهذه هي آيات عدائهم العارم - ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ويا لها من صورة بينة السمات، ظاهرة الوصمات لأعدائنا الألداء، تنطق لائحة بدخائل هذه النفوس البئيسة التعيسة، تسجل المشاعر الباطنة

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٤٧، ٤٨.

والانفعالات الظاهرة والحركات المتأرجفة ذاهبة وآئبة، وكلّ ذلك لنموذج بشري شرير في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، نَسْتَعْرِضُها في حالنا ومستقبلنا كما عرضوا علينا في ماضينا.

هؤلاء الأنكاد الذين يتظاهرون للمسلمين بالمودة في ساعة القوة، فتكذبهم كلٌ خالجة منهم وخارجة، وينخدع بهم المسلمون لظاهر رحمتهم غفلةً أو تغافلاً من باطن زحمتهم فيمنحونهم الثقة والوداد، وهم لا يألونهم خبالاً ونثراً لأية شائكة في طريقهم ما سُنح لهم وفُسح من شرٌ وضرٌ.

تلك الصورة كانت مُنْطَبِقةً تماماً على قسم من أهل الكتاب الحضور زمن الرسول ﷺ حيث جاوروه في المدينة بكلٌ غيظ كظيم مضمر على المسلمين، والنوايا الخبايا السيئة التي كانت تجيش في صدورهم، والبعض من المسلمين كانوا - ولا يزالون - ينخدعون بمظاهرهم الحلوة، فيلقون إليهم بالمودة، ويأمنونهم على أسرار لهم كبطانة أمينة، فجاء ذلك التنوير التحذير، دون اختصاص بزمن دون زمن، بل هو حقيقة ثابتة تواجه ذلك الواقع المرير الشرير من هؤلاء المنافقين، أهل كتاب أو مسلمين.

ذلك! فهل من عقل الإيمان أن تودوهم وتحبوهم دونما عائدة إلّا ضراً؟.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾:

«ها» تنبيه لهامة الموقف الخطير «أنتم» المسلمين ﴿أُوْلَآءِ﴾ ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ أولاء الكافرين، وذلك خلاف العقلية الإيمانية، فأنتم «أنتم» المؤمنون الصالحون و﴿أُوْلَآءِ﴾ أولئكم الكائدون الحاقدون، فكيف ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ و«الحال أنهم» لا يحبونكم، أفحباً من ناحية أمام بغض من أخرى، ودون أن يؤثر

ذلك الحب تخفيضاً من ذلك البغض البغيض، بل تعزيزاً لبُغضهم، وتمكيناً لهم من خبالٍ وإدغالٍ؟.

ثم ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ هذا القرآن وما بين يديه من كتاب، وهم لا يؤمنون بالكتاب كله، ولا حقّاً بالكتاب بعضه، إذ لا يتبعون كتاباتهم فضلاً عن كتابكم.

وقد تلمح ﴿بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ دون «الكتب كلها» بوحدة الكتاب لوحدة الأمم الكتابية بوحدة الرسالات.

ثـــم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ إذ يرونكم جميعاً وهم شتّى، ولكم قوة وسداد وهم في ضعف وبداد، ولا جواب لهم في بغضهم البغيض إلّا:

﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ومنها صدوركم المليئة من بغض المؤمنين، وهنا ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ أمراً، يعاكس ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١) نهياً، وهما في مجرى واحد في حالة الاختيار، فمهما لم يكن الموت تحت الاختيار ولكن الإسلام والكفر هما تحت الاختيار، فقد تعني ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ استمروا بغيظكم المميت عن حيويتكم، أو حتى الموت، أمراً تحذيرياً هو أبلغ من النهي كـ ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٢).

وقد تعني باء الغيظ كلا المعية والسببية، فذلك الغيظ يميت صاحبه حين لا يجد مَفْلتاً منه ولَا من سببه، وهو معه أينما حلَّ وارتحل حتى الموت، واستمرارية الغيظ تزيد فيه وتزيد حتى يميت.

وفي ذلك لمحة أن استمرارية الغيظ بمزيد هي من أسباب الموت،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٥.

لأنها حالة نفسية رديئة لا تستطيع النفس أن تتحملها، فيوماً مّا هي تتغلب عليها فتميت صاحبها.

وإذا كان الغيظ في سبيل الطاغوت فالموت موتان لِصقَ بعضٍ ورَدفَ بعض، موتاً حال حياته روحياً، وموتاً يقضي على حياته جسمياً فيتم الموت ويطم كلّ كيانه: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾[1]، وأما ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دون ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ مجردة، فلأن «ذات»: الصاحبة هي مؤنث «ذو»: الصاحب، وصاحبة الصدور هي التي تصحبها من الضيق والانشراح بكفر أو إيمان أم أي كان من حالات محبورة أو محظورة.

وترى لماذا هنا وفي كثير سواه ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دون «ذات القلوب» وهي أصل الروح وعمقه؟.

علّه لأن القلوب أيضاً هي من ذات الصدور بكلِّ حالاتها ومجالاتها: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[2].

فكلُّ حالة حسنة أو رديئة، منشرحة أو ضيّقة في الصدور هي المؤثّرة بالمآل في القلوب، فالقلوب هي من ذات الصدور وليست الصدور هي من ذات القلوب.

ثم ابتلاء ما في الصدور تقدمة لتمحيص ما في القلوب: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ﴾[3].

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾:

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ حالة ﴿حَسَنَةٌ﴾ مادية أو معنوية، فردية أو جماعية أمّاهيه من حياة حسنة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ هذه الحسنة إذ ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ حالة ﴿سَيِّئَةٌ﴾ من ضيق معيشيٍّ أو انهزامٍ حربيٍّ أم نكسةٍ عقيدية أماهيه ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ ولا علاج في تلكم المواجهة المعاندة إلّا الصبر والتقوى.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ في كلِّ حسنة وسيئة، وما يسوؤون ويفرحون، دون انفلات عن ثابت الإيمان ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن المحاظير التي هي نتيجة طبيعية لاختلاف الحالات والواجهات، إذا ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ اللّهم إلّا أذى بسيطة متحمِّلة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فهو الذي يُدافع عنكم بدافع إيمانكم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(١) ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾(٢) وهو الذي يُحيطكم علماً بمكائدهم ومصائدهم فتحذروهم مهما كانوا أقوياء فإنهم كائدون أغوياء، وإن الله لا يهدي كَيْدَ الخائنين، وهو الذي يُجازيهم بِكَيْدِهم فإنه بما يعملون مُحيطٌ علماً وقدرة.

وهنالك مِحْوَر الرجاء لمسِّ المصيبة وإصابتها هو الرسول ﷺ ثم الذين معه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾(٣).

فيا عجباه من غَفْوَتِنا وغَفْلَتِنا حين تَصْفَعُنا التجارب المُرّة من هؤلاء المنافقين مرَّة تلو مرة ولكننا لا نفيق، ونرى المؤامرات تترى علينا بمختلف الأزياء بل إننا فيها نحيق، فاتحين لهم قلوبنا، وآخذيهم رفقاء الطريق، فمن

(١) سورة الحج، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٥٠، ٥١.

هنا نذل ونضعف ونستخذى ونَلْقى كلّ عنت وخبال حيث يدسّ في صفوفنا.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

من السيئات التي أصابت المسلمين هي الهزيمة العظيمة في أُحد، ففرحت بها أعداؤهم من أهل الكتاب والمشركين، وهكذا ترتبط آية الغدوّ بسابقتها: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾.

وهنا تذكرة عابرة خاطفة بغزوة أُحد وسبب الهزيمة، ثم انتقالة إلى غزوة بدر السابقة عليها تدليلاً على استمرارية الرحمة الغالية الربانية لهذه الأمة ما قاموا بشروطها، وإن هزيمة الحرب هي من قضايا الهزيمة عن واجب التطبيق للإمرة الرسالية في حقل الحرب أم وسواها.

ومن ثم تستمر التذكرة بحرب أُحد وما خلَّفت من بَلْوَرَة الإيمان لقلّةٍ قليلة، ومن زلزلة الاطمئنان وتأرجف الإيمان لكثرة كثيرة، كدرس للأمة الإسلامية مع الأبد، نبراساً ينير الدرب على المجاهدين في خطوط النار للأخذ بالثأر والقضاء على العار، ومتراساً يتترسون به في تقدمات الحرب وتقدُّماتها.

وهنا انتقالة لطيفة عطيفة من معركة الجدال والتنوير والتوجيه والتحذير، إلى معركة النضال في الميدان، إلى معركة أُحد ومن قبلها بدر.

وهنا تنضم عراك في الضمير بطيٍّ العراك الدموية الفادحة، ومعركة الضمير هي أوسع المعارك في مختلف النضال والجدال.

لقد كان النصر أولاً في بدر ثم الهزيمة ثانياً في أُحد، وكما الانتصار كان عظيماً حيث غلبت فيه فئة قليلة على فئة كثيرة بإذن الله، كذلك كانت الهزيمة أيضاً عظيمة، ولكنّما الهزيمة خلفت - رغم أوجاعها وأجوائها

المحرجة - انتصاراً معرفياً ويقظة بعد غفوة للكتلة المؤمنة، ولكي لا يغترّوا بانتصارهم الأوّل، فيتركوا شروطاته المقررة في شرعة الله.

فلقد مُحصَّت في هذه الهزيمة نفوس ومُيِّزت صفوف وصنوف، وانطلق المسلمون متحرّرين عن كثير من أغباش التصورات الخاطئة التي هي عشيرة الفتح الخارق للعادة بطبيعة الحال.

فَمَيَعانُ قِيمَ وتأرجح مشاعر من نزوة الفتح المبين من ناحية، وتسرب مُنافقين وقليلي الإيمان من أخرى، ما كانت تُجبَر إلّا بهزيمة مًّا هي في نفس الوقت من خلفيات تخلف عسكري عن أمر القائد الرسالي.

ولم تكن حصيلة الهزيمة بأقل عائدة من حصيلة الفتح أم هي أكثر، فتلك هي حصيلة ضخمة ما أحوج الأمة الإسلامية إلى دراستها طوال تاريخها، ولكي تأخذ حذرها وأهبتها في كلّ مواجهة نضالية من ذلك الرصيد العظيم.

«و» اذكر من ضمن الذكريات الحربية الفاشلة لفشل من المسلمين ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ خرجت غداة من أهلك في المدينة إلى خارجها: «أحد» - حال إنك ﴿تُبَوِّئُ﴾ إيواءً لبواء الحرب الدفاعية ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ لأنك قائد الحرب على ضوء القيادة الرسالية المحلقة على كافة المصالح الروحية والزمنية.

فليس لأحد أن يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والرسول فيهم إلّا هو، فعليك يا رسول الهدى تنظيم التكتيكية الحربية أمَّاهيه من تكتيكات نظامية وانتظامية، وهامة الأمور الجماعية للمسلمين، فإنك الحاكم بين الناس بما أراك الله في كلّ ما يتطلب الحكم من خلافات روحية أو زمنية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[١].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

وليس مجال الحُكْمِ بين الناس - في الأكثرية الساحقة - إلّا فيما هم فيه يختلفون من مصالح معيشية - جماعية - اقتصادية - حربية، اماهيه.

فلا تعني الرسالة الإلهية - فقط - مصالح المِحْرابِ والعبادة، بل ومصالح الحرب والإبادة لمن يتربصون بأهل الحق كلّ دوائر السوء.

وكما أن تكاليف المِحْرابِ مقرّرة بوحي الله، كذلك تكتيكات الحرب هي بوحي من الله، فإنهما معاً مدلولان لـ ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُۚ﴾.

فهذه خرافة قاحلة أن النبي ﷺ شاور أصحابه بشأن غزوة أُحد أيخرج إليه خارج المدينة فيغزوهم أم يظلُّ داخلها فيدافع عن الأهلين، فأشاروا عليه بالخروج وكان من رأيه المقام داخل المدينة![1].

---

(١) الدر المنثور (١ : ٦٨) اخرج جماعة عن ابن شهاب ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم، كل حدث بعض الحديث عن يوم أُحد قالوا: لما أصيب قريش أو من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش ورجع كلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثاراً بمن أصاب ففعلوا فأجمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ وخرجت بجدتها وجديدها وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة ولئلا يفروا وخرج أبو سفيان وهو قائد الناس فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون بالمشركين قد نزلوا حيث نزلوا قال رسول الله ﷺ: إني رأيت بقراً تنحر وأُريت في ذباب سيفي ثلماً وأُريت أني دخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ونزلت قريش منزلها أحد يوم الأربعاء فأقاموا ذلك اليوم الخميس ويوم الجمعة وراح رسول الله ﷺ حين صلى الجمعة فأصبح بالشعب من أحد فالتقوا يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث وكان رأى عبد الله بن أبي مع رسول الله ﷺ يرى رأيه في ذلك أن لا يخرج إليهم وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم ممن كان فاته يوم بدر وحضوره: يا رسول الله ﷺ اخرج بنا إلى=

. . . .

= أعدائنا لا يرون أنّا جبنا عنهم وضعفنا فقال عبد الله بن أبي: يا رسول الله أقم بالمدينة فلا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قط إلّا أصاب منا ولا دخلها علينا الّا أصبنا منهم فدعهم يا رسول الله ﷺ فإن أقاموا أقاموا بشر وإن دخلوا قاتلهم النساء والصبيان والرجال بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج رسول الله ﷺ في ألف رجل من أصحابه حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد تحول عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس ومضى رسول الله ﷺ حتى سلك في حرة بني حارثة فذب فرس بذنبه فأصاب ذباب سيفه فاستله فقال رسول الله ﷺ وكان يحب الفأل ولا يعتاف لصاحب السيف شم سيفك فإني أرى السيوف ستستل اليوم ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل بالشعب من أحد من عدوة الوادي لي الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وتعبى رسول الله ﷺ القتال وهو في سبعمائة رجل وأمر رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير والرماة خمسون رجلاً فقال: «انضح عنا الجبل بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كان علينا أو لنا فأنت مكانك لنؤتين من قبلك وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين».

وفيه أخرج ابن جرير عن السدي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم أُحد: أشيروا علي ما أصنع؟ فقالوا يا رسول الله ﷺ: اخرج إلى هذه الأكلب فقالت الأنصار يا رسول الله ﷺ ما غلبنا عدوّ لنا أتانا في ديارنا فكيف وأنت فينا فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي ابن سلول - ولم يدعه قط قبلها - فاستشاره فقال: يا رسول الله ﷺ اخرج بنا إلى هذه الأكلب وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزقة فأتى النعمان بن مالك الأنصاري فقال يا رسول الله ﷺ: لا تحمرني الجنة فقال: بم قال بأني أشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله وإني لا أفر من الزحف قال: صدقت فقتل يومئذ ثم إن رسول الله ﷺ دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا اليه وقالوا: اصنع، رأيت، فقال: رأيت القتال وقال رسول الله ﷺ لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل وخرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبد الله بن أبي في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه وقالوا له: ما نعلم قتالاً ولئن أطعتنا لترجعن معنا وقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا . . .﴾ [آل عمران: ١٢٢] وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي فعصمهم الله وبقي رسول الله ﷺ. =

وكيف يرتئي أن يُغزى في عقر داره فيُذل، ويرشده من أصحابه إلى الخروج فلا يُذل؟ أم كيف يتبع خلاف رأيه وهو الحاكم بما أراه الله!، وقد يروى عن حفيده الصادق عليه السلام انه صلى الله عليه وآله وسلم كان رأيه الخروج[١].

= فوطئ على جرف نهر فقط فأخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته وخرجت....

(١) نور الثقلين ١ : ٢٨٤ مجمع البيان عن أبي عبد الله عليه السلام - وفيه نقل قصة أُحد باختلاف يسير عما نقلناه عن الدر المنثور ومنها - فقام سعد بن معاذ وغيره من الأوس فقالوا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يظفرون بنا وأنت فينا لا حتى نخرج إليهم ونقاتلهم فمن قتل منا كان شهيداً ومن نجا منا كان مجاهداً في سبيل الله فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيه وخرج مع نفر من أصحابه يتبوؤون موضع القتال كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ...﴾ [آل عِمرَان: ١٢١] وقعد عبد الله بن أبي وجماعة من الخزرج اتبعوا رأيه ووافت قريش إلى احد وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبأ أصحابه وكانوا سبعمائة رجل ووضع عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة على باب الشعب وأشفق أن يأتي كمينهم من ذلك المكان فقال لعبد الله بن جبير وأصحابه إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم ووضع أبو سفيان خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً وقال: إذا رأيتمونا قد اختلطناه فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم وعبأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه ورفع الراية إلى أمير المؤمنين عليه السلام فحمل الأنصار على مشركي قريش فانهزموا هزيمة قبيحة ووقع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سوادهم وانحطّ خالد بن الوليد في مائتي فارس على عبد الله بن جبير فاستقبلوهم بالسهام فرجع ونظر أصحاب عبد الله بن جبير إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينتهبون سواد القوم فقالوا لعبد الله بن جبير قد غنم أصحابنا ونبقى نحن بلا غنيمة؟ فقال لهم عبد الله: اتقوا الله فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تقدّم إلينا أن لا نبرح فلم يقبلوا منه وأقبلوا ينسل رجل فرجل حتى أخلوا مراكزهم وبقي عبد الله بن جبير في اثني عشر رجلاً وكانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة العبدري من بني عبد الدار فقتله علي عليه السلام فأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله علي عليه السلام وسقطت الراية فأخذه مسافع بن أبي طلحة فقتله حتى قتل تسعة نفر من بني عبد الدار حتى صار لواؤهم إلى عبد لهم أسود يقال له صواب فانتهى إليه علي عليه السلام فقطع يده فأخذ باليسرى فضرب يسراه فقطعها فاعتنقها بالجذماوين إلى صدره ثم التفت إلى أبي سفيان فقال: هل أعذرت في بني عبد الدار فضربه علي عليه السلام على رأسه فقتله فسقط اللواء فأخذتها عمرة بنت علقمة الكنانية فرفعتها والخط خالد بن الوليد على عبد الله بن جبير وقد فرّ أصحابه وبقي في نفر قليل فقتلهم على باب الشعب ثم أتى المسلمين من =

كلا وكما أن تَبوُّأ مقاعد للقتال كان من شؤونه القيادية، كذلك الخروج إلى تلكم المقاعد، وانتصاب الجموع الخاصة لها، كلّ ذلك كان من رأيه الخاص بما أراه الله، مهما شاور المسلمين في ذلك ليشير عليهم صالح الأمر إن أخطأوا ويُثبتهم تشجيعاً لهم إن أصابوا، وكما استصوب رأي المشيرين عليه بالخروج دون المشيرين بالمقام داخل البلد.

وإن لمكان القتال ومقاعدها مكانة هامة في النجاح، يجب تقريرهما

= أدبارهم ونظرت قريش في هزيمتها إلى الراية قد رفعت فلاذوا بها وانهزم أصحاب رسول الله ﷺ هزيمة عظيمة فأقبلوا يصعدون في الجبال وفي كل وجه فلما رأى رسول الله ﷺ الهزيمة كشف البيضة عن رأسه وقال: أنا رسول الله ﷺ إلى أين تفرون عن الله وعن رسوله؟ وكانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فكلما انهزم رجل من قريش دفعت إليه ميلاً ومكحلة وقالت: إنما أنت امرأة فاكتحل بهذا وكان حمزة بن عبد المطلب يحمل على القوم فإذا رأوه انهزموا ولم يثبت له أحد وكانت هند قد أعطت وحشياً عهداً لئن قتلت محمداً أو علياً أو حمزة لأُعطينك كذا وكذا وكان وحشي عبداً لجبير بن مطعم جشيّاً فقال وحشي: أما محمد فلا أقدر عليه وأما علي فرأيته حذراً كثير الالتفات فلا مطمع فيه فكمن لحمزة قال: فرأيته يهد الناس هداً فمر بي فوطئ على جرف نهر فقط فأخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته.
وفيه أخرج ابن جرير عن السدي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم أحد: أشيروا عليَّ ما أصنع فقالوا: يا رسول الله ﷺ اخرج إلى هذه الأكلب فقالت الأنصار يا رسول الله ﷺ ما غلبنا عدوٌّ لنا أتانا في ديارنا فكيف وأنت فينا فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي ابن سلول - ولم يدعه قط قبلها - فاستشاره فقال يا رسول الله ﷺ اخرج بنا إلى هذه الأكلب وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزمة فأتى النعمان بن مالك الأنصاري فقال يا رسول الله ﷺ: لا تحرمني الجنة فقال بِمَ؟ قال بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وأني لا أفر من الزحف قال: صدقت فقتل يومئذ ثم إن رسول الله ﷺ دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحي يأتيه فقاموا واعتذروا اليه وقالوا: اصنع ما رأيت، فقال: رأيت القتال وقال رسول الله ﷺ: لا ينبغي لنبي أن يلبس لامة فيضعها حتى يقاتل وخرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبد الله بن أبي في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه وقالوا له: ما نعلم قتالاً ولئن أطعتنا لترجعن معنا وقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢] وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي فعصمهم الله وبقي رسول الله ﷺ في سبعمائة.

على القائد العام للقوات المسلحة حيث يراهما من المصلحة في صالح الحرب.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أقوالَهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم، إذ تقوّلوا قيلات حول الحرب ومكانها ومقاعدها، وتحولوا حالات: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾.

لقد مشى النبي ﷺ يومئذٍ على رجليه يبوِّئ المؤمنين مقاعد للقتال بنفسه الشريفة وهم قرابة ألف تقابلهم ثلاثة آلاف من قريش، كنفس القياس بين الجيشين يوم بدر، فلما تخلف من تخلف بُغية الغنيمة، خلّف ذلك انهزاماً دموياً وكارثة قارصة بلبل حالة المؤمنين وزلزل طائفة منهم وأثبت آخرين، امتحاناً من الله للمؤمنين وامتهاناً للمتخلفين.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا...﴾:

هنالك واقع الغل والفشل من طائفتين أولاهما عبد الله بن أُبي ومعه قرابة ثلث الجيش حيث تخلف إذ خالف رسول الله ﷺ رأيه في المقام بالمدينة للدفاع قائلاً: يُخالفني ويسمع للفتية، فيتبعهم عبد الله بن عمر وابن حرام والد جابر بن عبد الله يوبّخهم ويحضّهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم قتالاً لاتَّبعناكم وهم كما قال الله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾(١) هم يومئذ للكفر أقرب منهم للإيمان فرجع عنهم وسبَّهم، فهؤلاء لم يحضروا القتال حتى يقال فشلوا، فإنما فلّوا وتخلفوا.

ولماذا ولى الرسول ﷺ رأس النفاق عبد الله بن أُبي على ثُلُثِ الجيش؟ لكي يعرِّف به والذين معه أنهم منافقون مهما تظاهروا أنهم موافقون، فالمعركة معركة امتحان وامتهان ضمن أنها ميدان دفاع.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

ولقد فصلت الآيات الآتية بشأن حرب أُحد أبعاداً هامة من الواقعة، نتحدّث على ضوئها كما تتحدث، فهذه هي الطائفة الأولى من ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾.

والأخرى هي الخمسون الذين قرّرهم رسول الله ﷺ مع عبد الله بن جبير حيث تركوا قاعدتهم للقتال طمعاً في الغنيمة ففشلوا، ومن ثمَّ هُم الفشل ولا فشل - وهو فتٌّ في عضد التصميم بجبنٍ - ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ فولى أمرهما فلم تفشلا، وهما حيّان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس لما انهزم عبد الله بن أُبي، همَّتا باتباعه فعصمهما الله فثبتوا مع رسول الله ﷺ ولقد بقيت رابعة وليُّها علي عليه السلام لم تفل ولم تفشل ولم تهمّ بالفشل حفاظاً على رسول الله ﷺ وأمره.

فقد افترقت أصحاب أُحد أربع فرق وانكسر المسلمون بهزيمة عظيمة لما خولف أمر رسول الله ﷺ أولاً فيما ارتآه من الخروج للحرب خارج المدينة فخالفه ابن أُبي، وثانياً ما قرره من مقاعد القتال وأهمها لابن جبير حيث تفرق جلّ أصحابه فحصل ما حصل!.

أترى الحال في ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ مدح لهما بتلك الولاية الربانية؟ أم قدح فيهما لماذا همّتا بفشل والله وليهما؟ إنها مدح من ناحية حيث عصمهما الله بتلك الولاية عن تلك الهوة الجارفة إذ لم تخرجا عن ولاية الله بذلك الهمّ(١) فهم داخلون في ولاية الله و﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وقَدح فيهما من أخرى لماذا همّتا ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ فيما وعد من النصر!.

---

(١) الدر المنثور ٢: ٦٨ - أخرج جماعة عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت في بني حارثة وبني سلمة ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا...﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢] وما يسرني أنها لم تنزل لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢].

وفيه عن قتادة في الآية قال: ذلك يوم أحد والطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة حيان من الأنصار همّوا بأمرٍ فعصمهم الله من ذلك وقد ذكر لنا أنه لما أنزلت هذه الآية قالوا: ما يسرنا أنا لم نهمّ بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله أنه وليّنا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا سيّما في همِّ العصيان، فإذا توكلوا عليه يعصمهم بولايته العشيرة للمؤمنين.

وهكذا يجب على المؤمنين أن يتوكّلوا على الله مضيّاً في أمر الله، واحترازاً عن نهي الله، فلو أن الله وكَّل أمورنا إلينا دونما عصمة منه وتسديد لما نجى منا أحد عن ورطات الهلاك، كيف لا والرسول ﷺ - على محتده العظيم - يقول: ربنا لا تَكِلْنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً، ويقول الله فيه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[1] وفي يوسف: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[2].

ذلك، وكيف ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ . . .﴾ إذ كنتم ذلاً لله وظلاً لرسول الله، ثم ولم ينصركم في أُحد أو لم تكونوا ذِلاً، وكنتم أقوياء دون ذِلّة في عِدَّة أو عُدَّة:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

وترى كيف ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وفيهم رسول الله ﷺ والمؤمنون الصالحون، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]؟ فهل نزلت «وأنتم قليل» أم ضعفاء[4] كما قيل؟ وهو قولٌ عليلٌ يختلقه الضعفاء حيث يُعارض مُتواتر القرآن!..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٣) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٤) نور الثقلين ١: ٣٧٨ في تفسير العياشي عن أبي بصير قال قرأت عند أبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فقال: مه ليس هكذا أنزلها الله إنما نزلت «وأنتم قليل».

وفيه عن تفسير القمي في الآية قال أبو عبد الله عليه السلام ما كانوا أذلة وفيهم رسول الله ﷺ وإنما نزل: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم ضعفاء».

إنها كماهيه ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ تعني القلة المستضعفة، وهي ذلة بحساب الخلق الجاهلين، مهما كانوا أعزّة بحساب الخالق ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

إذاً ف ﴿أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ هي عبارة أخرى عن ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ تتجاوبان في عناية واحدة، كما وتعقيبتهما واحدة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقد تكون ﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمعاً للذِّل لا الذُّل، فهم كانوا ببدر ذِلًّا لله - وتحت ظله - ولرسوله دون شماس، فلذلك نصرهم الله وهم قليل مستضعفون، ولكنهم انهزموا في أُحد لتركهم ذلِّهم إلى شماسهم.

وقد يكون المعنيان معنيين وما أحسنه جمعاً تجاوباً مع أدب اللفظ وحدب المعنى، إن الله نصركم لأنكم مستضعفون خُضَّعاً لله ولأمره.

و﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمع قلة قد تؤيد ذلة القلة في عِدّة وعُدّة حربية، وهم مع ذلك ذِلٌّ بطوع الرسول دون شماس.

فلقد كانوا في بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً بفرسٍ واحدٍ وجمال قليلةٍ ربما ركب جَمْعٌ منهم جملاً واحداً وجلّهم مُشاة، والكفار هم قرابة ألف ومعهم مائة فرس بأسلحة كثيرة.

ولأن غزوة بدر هي بداية الغزوات الإسلامية، وقد شاهد الصحابة من صلابة المشركين في مكة وقوتهم وثروتهم وهم أولاء لا يملكون ما يملكه هؤلاء من عِدّة وعُدّة، فهم كانوا - على إيمانهم - أذلّة في حساب الكفار، بل وفي حسبانهم أنفسهم قضية ظاهر الحال، وهم مع ما هم عليه من ذلة وذلة كانوا ذِلاً لرسول الله ﷺ لا يخافون في الله أية قوة قاهرة ظاهرة.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

ذلك! ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لا سواه «ولا تعبدوا إلّا إياه» ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله بما نصركم يوم بدر وينصركم إن كنتم متقين شاكرين ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ...﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾:

﴿نَصَرَكُمُ... إِذْ تَقُولُ﴾ فهما - إذاً - يختصّان ببدر، نصرةً وقولةً، ولكنه نقلة كانت في أُحد تنديداً بهم إن لم يصبروا ويتّقوا حتى ينصرهم فيه كما نصرهم ببدر، اللّهم إلّا في بدايته ولمّا يتركوا مقاعدهم.

ثم ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ...﴾ سؤال تأنيبٍ ينفي الإحالة المزعومة بالنسبة لتلك الكفاية بإمداد ملائكي، كأن فيهم من زعم ألّا يفيد الإمداد إلّا بالجيوش الأرضية، حيث القلة المسلمة ترى نفير المشركين لمحاربتهم لأوّل مرة، وهم مفاجَؤون بها إذ خرجوا لالتقاء طائفة العير الموقرة بالمتاجر لا الموقرة بالسلاح، وقد أبلغهم الرسول ﷺ ما أوحي إليه لتثبيت قلوبهم وأقدامهم في هذه المفاجأة المفاجعة، وهم - على إيمانهم - بشر يحتاجون إلى خارقة العون في هذه الحالة الاستثنائية في صورة تبلغ مشاعرهم المألوفة، وقد أبلغهم ذلك الإمداد شرطَ الصبر على تلقّي صدامات الهجمة الفاتكة الهاتكة، والتقوى التي تربط القلب بالله في الانتصار والانهزام.

ذلك - وبأحرى أن تتعلق ﴿إِذْ﴾ بمحذوف معروف هو «اذكر» فقوله ﷺ - إذاً - كان يوم أحد تنديداً بالمتخلفين من جيشه عن أصل الحرب أو عن مقاعدهم ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ الآن كما كان يوم بدر «أن يمدكم ربكم ... بلى يكفيكم» إن كنتم مؤمنين الآن كما كنتم يوم بدر، بلى و﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ كما صبرتم واتّقيتم يوم بدر ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ

رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ زيادة على بدر لاستمرارية الصبر والتقى و﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١] [٢].

وترى كيف ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ يوم بدر، والكفار كانوا يرونهم مثليهم رأي العين: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٣] وهو ألفان، بل وألف كما ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٤]، فأين ثلاثة آلاف من ألفين، ثم أين هم من ألف؟.

إن الألف المردفين هم أردفوا أَلْفَيْن آخرِيْنِ، مما يوضِّح أن ثلاثة آلاف لم ينزلوا دفعة واحدة، فإنما «جاءت الزيادة من الله...»[٥].

وأما ﴿مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾[٦] فهو موقف آخر من بدر كنصرة ثانية، فواقع النصرة كان بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين من حيث تُحارب ولا تُرى، وظاهر النصرة أنهم كانوا يرونهم مثليهم - لا لأنهم كانوا مثليهم - وإنما - رأي العين.

ثم ﴿بَلَىٰٓ﴾ يكفيكم ذلك الإمداد الملائكي غير المرئي، بلى و﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ كما صبرتم في بدر ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ كما أتوكم ﴿يُمْدِدْكُمْ

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) الدر المنثور ٢: ٦٩ - أخرج ابن جرير عن زيد قال قالوا لرسول الله ﷺ وهم ينتظرون المشركين: يا رسول الله ﷺ أليس يمدّنا الله كما أمدنا يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ... مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] - فإنما أمدكم يوم بدر بألف قال فجاءت الزيادة من الله على أن يصبروا ويتقوا.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٩.
(٥) مضت هذه الجملة عنه ﷺ في الهامش السالف فلا نعيد.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ خمسة هنا بديلاً عن ثلاثة هناك، و﴿مُسَوِّمِينَ﴾ هنا بديلاً عن ﴿مُنزَلِينَ﴾ - فقط - هناك، وقد صدقهم الله وعده في بداية أحد فأمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين كما صدقهم في بدر:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ...﴾.

والتسويم هو التعليم علامة، وهو هنا علّه يجمع إلى علامة الحرب بالمظاهر الجندية، علامة ملائكية تميزهم عن سائر الجيش.

وقد تجمع ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ - حالاً - بين حال المؤمنين والملائكة، مهما كان تسويهمها على سواء أو مختلفين(١).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾:

ما جعل الله ذلك الإمداد الملائكي إلّا بشرى لكم للانتصار ولتطمئن قلوبكم به، لا لأن النصر مربوط النياط - ككل - بأمثال هذه الإمدادات، وإنما هي موجبات ظاهرة تلتقي مع ظواهر النظرات ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ سواءً أكان بأسباب ظاهرة كهكذا إمداد أم غير ظاهرة كسائر النصر.

هنا القرآن - كأضرابه فيه - يحرص على تقرير هذه القاعدة الرصينة

(١) نور الثقلين ١ : ٣٨٨ في تفسير العياشي عن إسماعيل بن همام عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله : ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] قال: العمائم، اعتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسد لها من بين يديه ومن خلفه.

وفيه عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: كانت على الملائكة العمائم البيض.

وفي الدر المنثور ٢: ٧٠ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : نزلت الملائكة على سيما أبي عبد الله...

المتينة في التصور الإسلامي، إن مردَّ الأمور كلِّها إلى الله وليس نزول الملائكة إلّا بشرى لهم واطمئناناً لقلوبهم أنساً بالمألوف.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾:

ولـــمـــاذا ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ. . .وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؟ ﴿لِيَقْطَعَ . . . طَرَفًا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾.

فهناك غاية محدودة لنصر الله هي أن يَقْطَع طرفاً من الذين كفروا، نَفْساً أو نفيساً، وأرضاً أو سلطة أو أية فاعلية، وهذه حاصلة منذ الرسول ﷺ وحاضري الأئمة وزمن الغيبة الكبرى، ولأن الطرف من الهيكل عضوٌ له أياً كان، فقد تصور الذين كفروا هيكلاً واحداً له أطراف، وقد يعني هنا لينقص عَدداً من أعدادهم أو عُدَداً من إعدادهم فيوهن عضداً من أعضادهم، كواجب نضالي على الذين آمنوا، مستمرٍ على طول الخط حتى يصل إلى «أو يكبتهم»:

فهنا غاية غير محدودة لذلك النصر هو «أو يكبتهم»: يصرعهم - ككلّ - لمكان ضمير الجمع دون تبعيض كان في ليقطع، يصرعهم على وجوههم، ويهلكهم ويلعنهم ويهزمهم ويذلهم ويغيظهم - والكلّ معان للكبت - ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ آيسين لا أمل لهم في رجوع إلى كيان أياً كان، وهذا في الدولة الاسلامية الأخيرة العالمية حيث لا يبقى للكُفْرِ رطب ولا يابس، اللّهم إلّا شرذمة من أهل الكتاب في ذمة الإسلام، لا دور لهم في الحكم.

فكلُّ نصر من الله للمؤمنين محدَّدٌ بحدودِ صَبْرِهم وتقواهم حتى يصل الأمر إلى أصحاب صاحب الأمر الذين هم نخبة التاريخ الرسالي ككلٍّ، أصحابَ ألوية وجيشاً وأنصاراً آخرين من الراجعين معه، عجل الله تعالى فرجه.

ذلك! وبصورة عامة الكبت كَتْب على الكافرين على مدار الزمن قليلاً

أو جليلاً ف : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(١).

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾:

ترى ما هو الأمر المسلوب عنه مستغرقاً، وبماذا نصب ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾؟.

أتراه كلّ أمر حتى المختارة في حقل التكليف؟ ويعارضه واقع الاختيار وأدلته في الكتاب والسنة، وبراهينه العقلية والفطرية! ثم ولا رباط بين سلب الاختيار وموقف الحرب المحرّض فيها بتقديم كلّ مكنة ممكنة، وبالصبر والتقوى! ثم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ وهما ليسا من أمره لا تخييراً ولا تسييراً.

فلا رباط لهذه الجُملة ولا تعلق في تصحيح مذهب المجبرة المسيّرة، الواهي المتهافت، وهم يسمعون الله تعالى يأمر نبيّه أن يدعو الكفار إلى الله، مكرراً دعاءه على أسماعهم، مصراً على إصغائهم، ناهجاً لهم طريق الإيمان ومناره، ومُنذراً ومُحذراً، ومُوقظاً ومُبشراً، وآخذاً بحجزهم من التهافت في النيران، فكيف له من أمر التكليف شيء؟!.

أم هو أمر الأمر والنهي بعد الدعوة؟ وهما معها قوائم ثلاث لكيان الداعية في الدعوة! فسلبها - إذاً - استئصال للرسالة عن بكرتها، واسترسال للمرسل إليهم في نُكرتهم.

أم هو أمر التكوين والتشريع ثم له أمر الشرعة بقيادتها في كلٍّ حقولها الرسالية للداعية؟ وذلك واقع لا مردّ عنه، وهناك النصر الموعود والواقع قبل، وهنا التوبة عليهم أو تعذيبهم بعد، كلاهما من الأمر التكويني الذي

(١) سورة المجادلة، الآية: ٥.

ليس له منه شيء، ثم وليس مشرّعاً كما ليس مكوناً، فإنما هو رسول يحمل شرعة الله دون تخلف عنها قيد شعره، دون زيادة أو نقيصة.

فالهداية والإضلال، والثواب والعقاب، وما أشبه، كلّ ذلك من أمره تعالى، اللهم إلّا هداية الدلالة وضلالة تركها، فإنهما من فعل الرسول ﷺ وهو لا محالة دال دون ترك على أية حال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[2].

أجل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ من هداهم وضلالهم، من ثوابهم وعقابهم، من استصلاحهم أو استئصالهم أو تدبير مصالحهم أو تهديرها، أو تقديم آجالهم أو تأخيرها.

فلقد كان ﷺ إذا رأى من الكفار تشديداً في تكذيبه، ومُبالغة في إطفاء نوره سأل الله تعالى أن يأذن له في الدعاء عليهم باستئصال أو تعجيل عذاب، فكان تعالى قد يأذن وقد لا يأذن تبييناً له أنه سبحانه العالم بمسائر الأمور ومصايرها، لعلمه أن منهم من يؤمن ويتوب - كالوحشي قاتل حمزة، وأضرابه - فيكون - إذاً - زائداً في عداده، وعضداً من أعضاده.

أو يأتي من ظهره من يظهر به الدين ويزيد في المسلمين، إذ يعلم سبحانه من المغارب مطالعها ومن المغارس طوالعها، ومن أوائل التلاقح والتزاوج عواقب التولد والنتائج.

ولقد نزلت هذه الآية يوم أُحد إذ شُجّت جبهته، وكسرت رباعيته، واستقطرت دماءه على صفحته المباركة وهو مع ذلك حريص على دعائهم،

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٦.

ومجتهد في إنقاذهم... أم وهو عازم على الدعاء عليهم مستأذناً ربه سبحانه فهم أن يدعو عليهم فقال: كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى الشيطان، ويدعوهم إلى الهدى ويدعونه إلى الضلالة، ويدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، فهم أن يدعو عليهم فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ...﴾ فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء عليهم[1].

فليس له من أمر النصر الخارق لعادته، ولا من أمر الهدى والضلالة والثواب والعقاب أو ما شابه من أمور تكوينية أو تشريعية، ليس له شيء، فإنما هو رسول، كلّ كيانه رسالة الله، دون مشاركة مع الله فيما يختص من تكوين أو تشريع بالله، ولا تفويض له في أي أمر حتى الولاية الشرعية، فـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[2] دون ما يراه، فضلاً عمن سواه.

ثم ترى ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ معطوفان على ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا...﴾ فـ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ جملة مُعترضة بينهما؟ وهو فتٌّ في عضد الفصاحة وثلم في جانب البلاغة! وهو لا يناسب كونه غاية لـ «نصر الله» فإن ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ لا تمت بصلة للنصر، فقد يتوب ولا نصر وقد لا يتوب مع النصر!.

أو أن «أو» فيها بمعنى «إلَّا أن» أو «حتى» كما هما من معانيها؟ وهو الظاهر هنا معنوياً كما هو أدبياً أن ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ من التوبة عليهم

---

(١) الدر المنثور ٢: ٧١ - أخرج ابن جرير عن الربيع قال نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ يوم أحد وقد شج وجهه وأصيبت رباعية فهم..

وفيه أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يدعو على أربعة نفر فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ...﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨] فهداهم الله للإسلام.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

وعذابهم إلّا أن يتوب الله عليهم أو يعذبهم، يتوب عليهم إن تابوا إليه، أو يعذبهم فإنهم ظالمون.

إذاً ف «إلّا» هنا استثناء منقطع، أن ليس لك من الأمر شيء إلّا لله.

أم و«حتى يتوب عليهم أو يعذبهم» فهنالك أمر المتابعة لأمر الله، ولماذا - إذاً «أو» بدلاً عن «حتى» أو «إلّا أن»؟ علَّه لعناية المعنين مع العلم أن عناية العطف هنا غير مناسبة، أم أنه - أيضاً - معني معهما عطفاً لكلا التوبة والعذاب على القطع والكبت، فقد «نصركم الله ببدر - وما النصر إلّا من عند الله» ليقطع أو يكبت أو يتوب أو يعذب، وليس لك فيها من الأمر شيءٌ، وما أجمله جمعاً بين مثلث المعاني لـ«أو» لم تكن تعنيها لا حتى ولا إلّا أن، وما أقبحه تحريفاً من لا يعرف مغازي كلام الله فيختلق تجديفاً[1].

وفي الحق ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ كجملة مستقلة - مهما عنت ما عنت فيما احتفت بها - هي من خلفيات ملابسة في السياق تقتضيها، فيرد قول بعضهم «هل لنا من الأمر شيءٌ» وقول آخرين ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[2] ليقول لهم ولأضرابهم - حين ليس لرسول الهدى من الأمر شيء فبأحرى لمن سواه.

فليس لهم - ككلّ - من الأمر شيءٌ لا في نصر ولا هزيمة، إلّا قدر ما يسعون أو يفشلون، وبذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من بطَر النصر

---

(١) نور الثقلين ١ : ٣٨٩ عن تفسير العياشي عن الجرمي عن أبي جعفر عليه السلام انه قرأ: «ليس لك من الأمر شيء أن تتوب عليهم أو تعذبهم فإنهم ظالمون».
أقول: وأية صلة بين ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨] وما قبلها ان كان «تتوب عليهم أو تعذبهم»، ولم يخلد - بعد - بخلد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أن يتوب أو يعذب، اللهم إلّا أن يدعو الله لقبول توبة أم عذاب!.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

وخطر الهزيمة، ويطامنون من الكبرياء التي يثيرها الانتصار في نفوسهم ومن الزهو الذي تتنفخ به أرواحهم وتتنفخ أوداجهم.

فليس لهم - ككلّ - رسولاً ومُرسلاً إليهم - شأن إلّا تأدية الواجب في كلّ حقل، ثم نفض أيديهم من النتائج.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إذ لا تملك ممّا في السماوات وما في الأرض شيئاً ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ ملك التشريع والتكوين، فـ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له حين يستحقه، بأن يشاء هو المغفرة ويعمل له، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ أن يعذبه حين يستحقه بأن يشاء هو العذاب بما يعمل له.

إذاً ففاعل ﴿يَشَآءُۚ﴾ فيهما هو الله حيث يشاء مغفرة وعذاباً، وهو المغفور له والمعذب حيث يشاء هما فيشاءهما الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾(1).

ذلك، ولكنه سبقت رحمته غضبه، كما تلمح له هذه التعقيبة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فبرحمته يغفر ما لم يناف عدله سبحانه، كما بعدله يعذب حين لا مجال لغفره ورحمته.



(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

هذه الآيات تظهر كأنها منقطعة الصلة عما قبلها وما بعدها من عرض الغزوتَيْنِ بدر وأُحد، ولكنها قريبة الصلة وعريقتها بالحرب حيث تأمر بمحاربة الأهواء والشهوات، وتطهير النفوس، فهي بين سلبيات وإيجابيات، سلباً لكل ثلب وإيجاباً لكل واجب.

فكما أن جهاد النفس وسط في جهاد الكفار، كذلك آياتها تتوسط بين آيات الجهاد.

ولأن الجهاد من أفضل سبل الله وهو بحاجة إلى إنفاق النفيس كإنفاق

النفس، فلا بدّ - إذاً - من التحريض إلى الإنفاق، وليس المرابي ولا سيّما بالأضعاف المضاعفة ممن ينفق، فليترك الربا ثم لينفق، ثم ليسارع إلى مغفرة الرب.

ولأن المشركين كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة لينفقوا في سبيل حرب المسلمين، فخيّل إلى المسلمين أنه ليس محظوراً حيث يصرف في حرب المشركين، وأن الجوّ يومذاك كان - ككل - جو أكل الربا أضعافاً مضاعفة، لذلك تتقدّم آية النهي عنها في هذه الآيات التسع الوسيطة بين الغزوتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾:

لقد أسلفنا قولاً فصلاً حول الربا بتضاعيفها وكلّ حقولها على ضوء آية البقرة، فإنما علينا هنا أن نقف عند أضعاف مضاعفة دون إعادة لما مضى.

أترى أن هذا النص يحرِّم من الربا - فقط - أضعافاً مضاعفة، ليتوارى المرابون وراءه بقالتهم القالة الغائلة، المفهوم من هذا النص أن الضِعف في الربا والضعفين وما دونهما ليست محظورة، وإنما هي الأضعاف المضاعفة؟.

كلا ثم كلا! حيث الأضعاف المضاعفة هنا ليست شرطاً لأصل الحرمة، إنما هي مواصفة لواقع كان في الجزيرة[1] وهو طبيعة الحال في النظام الربوي.

فالنظام الربوي يقيم دورة المال - كأصل ثابت - على الأضعاف المضاعفة، فهو عملية متكررة على مدار الزمن، ومتركبة من الأضعاف

---

(١) الدر المنثور ١: ٧١ - عن مجاهد كانوا يتبايعون إلى الأجل فإذا حلَّ الأجل زادوا عليهم وزادوا في الأجل فنزلت هذه الآية، وأخرج مثله عن مجاهد وسعيد بن جبير.

المضاعفة من أخرى، فليست مقصورة على واقع الحال في الجزيرة، بل قد تضخمت وتضاعفت ما تضاعفت الجماهير وتضخمت، وتقدمت في الاقتصاد الظالم الغاشم.

لقد كان يكفي نص آية البقرة لحرمة أصل الربا مهما كانت درهماً، فليست - إذاً - لتتقيَّد بآية الأضعاف المضاعفة، فإن آية البقرة نص في إطلاقها، لا تقبل أي تقيد مهما كان بنص ينفي الحرمة في بعض مواردها، وآية الأضعاف لا تنفي حرمتها في أي مورد، إنما تثبت حرمة مغلظة في أضعاف مضاعفة، والمتوافقان من الإطلاق والتقييد لا يتعارضان حتى يقيد مطلقهما بمقيدهما، إضافة إلى أن نص الإطلاق لا يقبل أي تقييد في نفسه من مقيد سلبي، فضلاً عن الإيجابي كآيتنا هذه.

والأضعاف المضاعفة، هي الربا المضاعفة على رأس المال في بيع أو دين أم أية معاملة ربوية، أن يزاد في الأجل فيضاعف الربا على ما قررت، ثم تستمر المُضاعفات حتى تصبح الألف آلافات دون أي حق إلّا مزيد الأجل، وذلك هدم لأركان الاقتصاد من أصولها.

﴿لَا تَأْكُلُوا۟ . . . وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أكل الربا وما سواها من باطل الأكل والعمل ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في حياتكم الإنسانية والإيمانية، شقاً لعراقيل الحياة بسفينة التقوى، قضاءً حاسماً على الطغوى، فإن الإسلام يعني للأمة المسلمة نظافة حيوية في كلّ حقولها، والنهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على معركة النضال أمر قاصد مفهوم في المنهج التربوي الإسلامي، فإن النظام الربوي لا يلائم إيمان الجهاد وجهاد الإيمان، فلا يأكل الربا إنسان يتقي الله ويجاهد في سبيل الله ويخاف النار التي أُعدت للكافرين:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

فآكل الربا أضعافاً مضاعفة هو مع الكافرين في نارهم المختصة بهم،

حيث النار دركات، منها ما يختص بالكافرين، كما منها ما يختص بالمنافقين ومنها. . . فلا يدخل آكل الربا مهما كان مسلماً النار التي يدخلها عصاة المسلمين.

ذلك! ولأن الربا تخلِّف ويلات بشعة لا تنجبر، وتعمل حريقاً عريقاً على حياة المجتمع فتحرقها عن بكرتها وتُخرق ألفتها، فهي نار تدخل آكلها ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فترى أن أكْل الربا كفرٌ بالله وإن كان آكله مسلماً؟ أجل إنه كفر عملي داخل في طليق الكفر، ثم وكما أن الكفر دركات، كذلك ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ دركات، فلا يعني دخول المرابي في هذه النار تسويته مع سائر الكفار في دركات النار، ثم وأكل الربا وإن كان كافراً عملياً فقد يورد صاحبه إلى كفر عقيدي حين يحلل الربا بالآمل ليبرر موقفه من أكل الربا.

وهنا ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ دليل وجود النار بمعداتها، والقدر المعلوم منها نار البرزخ، وأما نار القيامة الكبرى فليست الآن موجودة كما وزبانيتها لا تحصل إلَّا بوقودها وهي رؤوس الكفر والأعمال الكافرة.

فقد يعني الإعداد للنار حاضر معدات النار في حياة التكليف من الوَقود الأصيل وما دونه، أم وإعداد مكانها وهو في السماوات والأرض، ولكن إعداد الجنة أكثر فإنها مخلوقة حسب آية النجم.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾:

طاعة لله طليقة عن أي تخلف، حقيقةٍ لساحة الربوبية، هي طاعة في كتابه، ثم وطاعة الرسول ﷺ في سنته الجامعة على ضوء كتاب الله وطاعته: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

﴿وَأَطِيعُوا. . . لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وترى حين تكون طاعة الله والرسول منجحة مفلحة فما هو دور الترجي على وشك الشك في ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؟.

علّه لأن الرحمة الربانية غير واجبة لفاعليها فهي من فضله وليست من عدله، فهي - إذاً - غير محتمة عليه فيصح الترجي لها لمن أطاع الله ورسوله؟

ولكنها واجبة عليه بما كتبها على نفسه للتائبين من ذنوبهم فضلاً عن المطيعين جملة وتفصيلاً: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] كما ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ. . .﴾، فالحشر الرحمة والرحمة في الحشر مكتوبان عليه تعالى بما كتب على نفسه فكيف ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؟، علَّه لأن الطاعة الحاضرة لله والرسول لا يَضمن الموت على الطاعة، فعلّه يموت عليها، وعلّه لا، وذلك مجال الترجي للمؤمنين ككل، ولكن المعصومين السابقين والمقربين، المضمون لهم الموت على طهارة العصمة، هم كذلك مضمونه لهم الرحمة، ولكنهم - على ضمانها - يترجونها اعتباراً على عدم استحقاقها كأصل أولى مهما كتب ربكم على نفسه الرحمة.

وقد تعني ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تعليق واقع الرحمة على واقع الطاعة طبقاً عن طبق.

ثم لطاعة الله والرسول درجات، ومهما كانت رحمة الثواب مضمونه لمن مات على الطاعة ولكن رحمة الغفران عن السيئات غير مضمونة إلّا لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، وكذلك رحمة ترفيع الدرجات، فـ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تشمل كافة الرحمات واجبات وراجحات في الدنيا

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

والآخرة، وكلها تتبنى طاعة الله والرسول، درجات من الرحمات بدرجات من الطاعات ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١].

ذلك وكما نرى هذه الغاية المترجَّاة في ست أخرى[٢] من الآيات منها ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣].

فلا رجاء في رحمة لمن لم يطع الله والرسول، إنما هو للمطيع مهما اختلفت درجات الرجاء الي قمتها المعنية وللمعصومين.

ثم وليس فحسب أن ﴿وَأَطِيعُوا۟...﴾ ما صدق أنها طاعة، بل:

﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

«سارعوا» هي سباق في السرعة، و﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعم مغفرة الدنيا والآخرة، كما وتعم إلى مغفرة السيئات الحاصلة مغفرةَ السيئات الهاجمة ولمّا تحصل في الأولى.

والمسارعة إلى المغفرة تعني المسارعة إلى أسبابها المعنيَّة في الكتاب والسنة جملة وتفصيلاً.

هنا «سارعوا» وفي الحديد ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٤]، فلا بدّ من سباق في سرعة وسرعة في سباق - على مدار حياة التكليف - ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي كما

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) والست الأخرى هي ٧: ٦٣ و٢٠٤ - ٢٤: ٥٦ - ٢٧: ٤٦ - ٣٦: ٤٥ - ٤٩: ١٠.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٥.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢١.

لمحنا إليه لا تخص مغفرة عن عصيان، بل وعن عروضه، ثم مغفرة في ترفيع درجة، فهي مثلث من المغفرة لكلٍّ زاوية أهلها حسب سباقه ومسارعته.

وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ في سبب نزول هذه الآية أنها تفضيلة للأمة المرحومة على سائر الأمم[1] ولكنها مؤوَّلة بما لا ينافي عدل الله، فإنما هي مزيد الرحمة.

وأما ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فتراه عرضاً وجاه الطول؟ وليس ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ هما - فقط - عرضاً حتى يقابل عرضُهما طولَهما!.

أم هو عرض السعة السطحية؟ فكذلك الأمر فإنهما كرتان معمقتان دون سطح فقط كما ليستا عرضاً فقط!.

أم هو سعة السماوات والأرض بمثلث العرض والطول والعمق الدائرية أماهيه؟ وهذا هو المعنى الصالح هنا للعرض، حيث العرض في المسطحات هو أقل الامتدادين وأكثرهما، وفي المجسمات هو أقصر الامتدادات الثلاثة وأطولها، وفي الأُسطوانات والمخروطيات عن امتداد قواعدها وسهامها، فعرض السماوات والأرض هو الأبعاد الكروية الأسطوانية.

ثم ترى أن السماوات والأرض هما بنفسهما مكان الجنة فأين - إذاً - النار؟

فهل هما متداخلتان دون زحام بينهما مكاناً ولا مكانة، فهما لأهل

(١) الدر المنثور ٢: ٧٢ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء بن أبي رباح قال قال المسلمون يا رسول الله ﷺ بنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا كانوا إذا أذنب أحدهم ذنباً أصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه اجذع أنفك اجذع أذنك افعل كذا افعل كذا فسكت فنزلت هؤلاء الآيات ﴿وَسَارِعُوٓاْ - إلى قوله - فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣-١٣٥] فقال النبي ﷺ: ألا أُخبركم بخير من ذلك ثم تلا هؤلاء الآيات عليهم.

الجنة جنة ولأهل النار نار، كما الغارقون في النار ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾[١] بلا زحام بين الماء والنار الكامنة فيه بتدبيره تعالى؟ وهكذا تؤول الروايات القائلة «إذا جاء النهار فأين الليل»[٢] ولكنها بعدُ غير مرضية.

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ لا تناسب أنهما مكانها، فصحيح التعبير عن ذلك العرض: «وجنة هي السماوات والأرض» ثم وآية الحديد

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ٧٢ - أخرج ابن جرير عن التنوخي رسول هرقل قال قدمت على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل وفيه إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار؟.

وفيه أخرج البزار والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ - فأين النار؟ قال: أرأيت الليل إذا لبس كلّ شيء فأين النهار؟ قال: حيث شاء الله، قال: فكذلك حيث شاء الله.

وروى في المجمع ما رواه في الدر المنثور أولاً بزيادة وهذه معارضة فيها إسقاط المسألة لأن القادر على أن يذهب بالليل حيث شاء الله قادر على أن يخلق النار حيث شاء.

أقول: وأظن أن هذا الدليل من الراوي وقد ورد في حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي (٥: ٢٤١). كبيان للرواية.

وعلى أية حال إذا عنى «فأين الليل إذا جاء النهار» أنهما معاً موجودان لوقت واحد متداخلين في أُفق واحد؟ فهذا بين البطلان.

وإذا عنى أن مكانهما واحد وهما يتواردان عليه تلو بعض دون اجتماع لوقت واحد في أُفق واحد؟ فهو على صحته في نفسه لا يناسب مكاني الجنة والنار إذ ليستا تلو بعض مكاناً، لأنهما معاً موجودتان.

وإذا عنى أن بالإمكان تداخلهما في مكان واحد وزمان واحد كما تداخل الليل والنهار مهما اختلف الزمان، فمع أن المثال لا يكفي تمثيلاً لتداخل الزمان، فالآية لا تناسب ذلك التداخل كسائر آيات الجنة والنار، ولا سيّما آية النجم المقررة مكان الجنة عند سدرة المنتهى، إذاً فهذه الأحاديث مختلفة إذ لا تأويل لها صالحاً في نفسه ولا في حساب القرآن! اللهم إلّا أن يعنى من التشبيه أن مكان الجنة والنار في أُفقين مختلفين كما الليل والنهار، وهذا تأويل جميل وقد يؤيده حديث العياشي عن الصادق عليه السلام قوله في الجواب: إذا وضعوها كذا وبسط يديه إحداهما مع الأخرى إذاً فالجنة فوق النار وهذا ما تعنيه آية النجم.

توضحها أكثر لمكان ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(١)] ولا بدَّ من مفارقة بين المشبه والمشبه به، مهما تشابها في جهة أو جهات، وإذا كانت الجنة في نفس السماوات والأرض، فهي نفسها مكاناً دون أن يشبههما.

ثم ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[(٢)] وأضرابها دليل اختلاف مكانهما دون أي تداخل مهما أمكن في قدرة الله، ولكنه تداخل - على صحته - دون مرجح، بل هو مزعج لأهل الجنة باشتراكهم مع أهل النار في المكان، ثم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا... ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ - وكثيراً أضرابها - تدل على الخروج عن النار لمن اتقى ولا خروج في المتداخلين، بل هو عروج عن حالة سيئة إلى حالة حسنة.

وبعد كلّ ذلك فمكان الجنة معروف في آية النجم ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾[(٣)].

فكما السدرة المنتهى هي منتهى الكون المحلّق على السماء السابعة، كذلك جنة المأوى التي عندها، فليس جواب «فأين النار إذاً»؟ إلَّا أنها تحت الجنة المأوى، سواءٌ أكان السماوات والأرض بتمامهما، أم بعضاً منهما، ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ مما يدل على أنها لا تحلق على كلّ السماوات والأرض، وإلّا لم تصح «جيء» ثم الجنة فوق النار لآية النجم و﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[(٤)] أي تعلو النار، مهما كانتا قريبتين إلى بعض البعض لمكان الترائي والمناداة، أم غريبين والترائي بينهما بسبب رباني كما نجده هنا بضعاف الأسباب الخلقية.

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النجم، الآيات: ١٣-١٥.
(٤) سورة الحاقة، الآية: ٢٢.

فقد تعني الآيتان إن مثلث السعة للجنة هو سعة السماوات والأرض[(١)] ويا لها من سعة لا تتصور، ونحن بعدُ عاجزون عن تقدير سعة أرضنا تماماً.

وأما ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فقد تعني ما عنته من حيث الإعداد ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولكن الجنة موجودة الآن حسب آية النجم وما أشبهها، مهما كانت الصالحات في الجنة كما الطالحات في النار هي المعدات للثواب والعذاب، ولكن سبق رحمته غضبه، وسعة رحمته أكثر من عدله تقتضي في الجنة إعداداً أكثر من النار، كما وأن نفس الجنة بحاصلها وما سيحصل كلها من فضل الله.

وآيات خراب السماوات والأرض لا تخرِّب الجنة التي هي محيطة بالسماوات والأرض، مهما خربت جحيم البرزخ وجنّته بخراب السماوات والأرض، حيث ينتهي دورهما بانتهائهما، وعلى أية حال ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وتراهم مَن هم، إنهم:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

هذه المواصفات الست هي بين مثلث الإحسان، كما ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعقيبة لها، ومثلث الإزالة لخلاف الحسن والإحسان:

١ - ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ...﴾:

---

(١) نور الثقلين ١: ٢٨٩ في تفسير العياشي عن داود بن سرحان عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: إذا وضعوها كذا وبسط يديه إحداهما مع الأخرى أقول قد يعني ذلك الوضع الوضع الثلاثي للسماوات والأرض.

﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ هما الفَعلاء المؤنث من سرَّ وضرَّ، وهما وصفان لمحذوف هو طبعاً معروف كـ «الحياة - الحالة» الأكثر سَرًّا أو ضرًّا.

وكما ﴿يُنفِقُونَ﴾ يعم كلّ نفس ونفيس، كذلك ﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ تعمان كلّ أبعاد الحياة السارة والضارة.

فليس إنفاقهم فقط في السراء ثم هم في الضراء يبخلون، فإنما حياتهم هي الإنفاق في الإقبال والإدبار، حين السرُّ والضرَّ كحالة عامة أم في جانب الإنفاق، فهم أولاء في سرورهم وحزنهم، في يسرهم وعسرهم - وعلى أية حال - الإنفاق أنفسهم ونفائسهم في سبيل الله فلا يفشلون ولا ينجلون، أجل وإن السراء لا تبطرهم فتلهيهم عن الإنفاق، ولا الضراء تضجرهم فتنسيهم، فلهم أرواح شفيقة عفيفة منطلقة من كلّ القيود والأغلال التي تقيِّدهم وتحول بينهم وبين حق الإنفاق وصالحه.

وهنا يتقدم الإنفاق على سائر الست لأن له دوره العظيم العميم في عامة مسائل الإيمان ومنها الجهاد في سبيل الله الذي يتطلب الإنفاق من خالص النفس والنفيس.

٢ - ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾: غيظهم أنفسهم على الآخرين وغيظ الآخرين عليهم وعلى آخرين، كظماً مثلثاً للغيظ، الذي له دور عظيم في إخماد نيران الفتن بين المؤمنين، والكظم في الأصل هو شد القربة بعد امتلائها، فكظم الغيظ هو شده بعد الامتلاء منه بحيث كان يتفجر منه لولا شدُّه.

ف «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً»(١) و«ما من

---

(١) الدر المنثور ٢: ٧٢ عن أبي هريرة في الآية أن النبي ﷺ قال: . . .
وفي نور الثقلين ١ : ٣٩٠ في أصول الكافي بسند متصل عن سيف بن عميرة قال: حدثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه.

جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظٍ يكظمها عبد ما كظم عبد لله إلّا ملأ الله جوفه إيماناً»(١).

وإن كظم الغيظ وهو صرعة النفس الطائشة، هو أشدُّ من كلّ صرعة، فـ «ليس الشديد بالصرعة ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»(٢) «. . . أن يمتلي الرجل غيظاً ثم يغلبه»(٣) فقد «وجبت محبة الله على من أغضَب فحلم»(٤).

«ألا إن الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم ألم تروا إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فليلزق بالأرض، ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الفيء وشرّ الرجال من كان بطيء الفيء سريع الغضب فإذا كان الرجل سريع الغضب سريع الفيء فإنها بها وإذا كان بطيء الغضب بطيء الفيء فإنها بها . . .»(٥).

---

(١) الدر المنثور ٢: ٧٣ عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: . . . وفي نور الثقلين ١: ٣٩٠ في كتاب الخصال عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: ما تجرعت جرعة أحب إليّ من جرعة غيظٍ لا أكافي بها صاحبها.

(٢) المصدر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ليس. . .

(٣) المصدر أخرج البيهقي عن عامر بن سعد أن النبي ﷺ مرّ بناس يتحادون مهراساً فقال: أتحسبون الشدة في حمل الحجارة إنما الشدة أن يمتلي. . .

وفيه أخرج البيهقي عن علي بن الحسين عليه السلام أن جارية جعلت تسكب عليه الماء يتهيأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجّه فرفع رأسه إليها فقالت: إن الله يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال: قد عفا الله عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال: اذهبي فأنت حرة.

(٤) المصدر أخرج الأصبهاني في الترغيب عن عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول: . . .

(٥) المصدر أخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسّنه والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلى مغير بأن الشمس حفظها من حفظها ونسيها من نسيها وأخبر ما هو كائن إلى يوم القيامة، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ألا إن بني=

فالقدرة على الإنفاذ - كما في حديث الرسول ﷺ - هي من شروط الإحسان في كظم الغيظ، حيث العاجز على الإنفاذ، الخائف منه، هو مكظوم غيظه بطبيعة الحال شاء أم أبى، اللهم إلَّا غيظاً دون خلفية له على صاحبه.

ثم وليس كظمُ الغيظ بصورة طليقة إحساناً، فقد يكظم الغيظ في حالة حاضرة ليحقد ويضطغن فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة، والغضب الظاهر إلى حقد دفين، وحاضر الغيظ هي أقل محظوراً من غائره، ولا يعني كظم الغيظ إلَّا هضمه عن بكرته، عن ظاهره وغائره، في مثلث القال والحال والفعال، في الحاضر والاستقبال.

٣ - ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ عفواً طليقاً عن مظالمهم التي تقبل العفوّ، وأما العفوّ الذي يشجِّع على الظلم فليس ممنوحاً ولا مسموحاً، إنما هو العفو الذي لا محظور فيه، ولا سيما الذي يحوِّل سيِّئاً إلى حسن وإلى

= آدم خلقوا على طبقات شتّى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً إلّا أن الغضب... وإن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب وشرّ التجار من كان سيّئ القضاء سيّئ الطلب فإذا كان الرجل حسن القضاء سيّئ الطلب فإنها بها وإذا كان الرجل سيّئ القضاء حسن الطلب فإنها بها ألا لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يقول بالحق إذا علمه ألا إن لكلِّ غادر لواء بقدر غدرته يوم القيامة، ألا وإن أكبر الغدر غدر أمير العامة ألا وإن أفضل الجهاد من قال كلمة الحق عند سلطان جائر، فلما كان عند مغيربان الشمس قال: ألا إن ما بقي من الدنيا فيما مضى منه كمثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى.

وفيه أخرج البيهقي عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فمن حسن من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليقعد وإن كان قاعداً فليضطجع.

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن حبان والطبراني عن أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول الله ﷺ: إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيقهون.

أحسن، وذلك واجب كلّ مسلم لأنه قضية واجب الإحسان في سبيل الدعوة إلى الله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم هنا المنفقون الكاظمون العافون، فقد يتحول الإنفاق والكظم والعفو إلى الاساءَة كأن ينفق في سبيل اللهو بدلاً عن سبيل الله، ويكظم الغيظ عمن يجب تأديبه وضربه أو قتله، أو يُعفى عمن يشجَّع بعفوه إلى تخلف أكثر وأكثر، فإنما هذه الثلاث ممدوحة إذا كانت في سبيل الله، إحساناً إلى عباد الله الذين يستحقونه.

٤ - ٥ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ...﴾ والفاحشة هي المعصية المتجاوزة حدّها في ذاتها أم إلى غير فاعلها شخصياً أم جماعياً، ومن الثاني المعصية المتجاهر بها حيث تشجع الجماهير على اقترافها، أو الجامعة بينهما فأشد وأنكى، فذلك المثلث من المعصية فاحشة مهما اختلفت دركاتها.

ثم ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ عام بعد خاص، فإن العصيان أياً كان ظلم بالنفس سواء أكان فاحشة أم سواها، صغيرة أم كبيرة.

وهنا ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ دليل على أن العصيان هو من خلفيات النسيان، فالذاكر الله وهو يعرفه بالربوبية لا يعصى الله بفاحشة أم سواها، فإنما يعصم الإنسان عن أي عصيان ذكرُ الله بعد معرفته.

ولأن النسيان هو من أسباب العصيان فلا يجبر العصيان إلّا بذكر الله، ثم ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ طلب الغفر بقال وحال وأعمال، فليس الاستغفار مجرد القال والقلب قالٍ والعمل خالٍ عن الاستغفار، فالاستغفار فعلٌ أصله من القلب ثم يظهر في القال والفعال.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سؤال إيقاظ للغافلين وإيعاظ للمتساهلين، وتأنيب بمن يظن أن هناك من يغفر الذنوب إلّا الله، أو لا غافر للذنوب حتى الله.

ويا للسماحة الطليقة الربانية، أن الله لا يدعونا إلى سماحة فيما بيننا حتى يُطلعنا على جانب عميم من سماحته، إنه يعفو عن كلّ فاحشة وظلم بالنفس عند الذكر والاستغفار، شرط أن:

٦ - ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الإصرار على ما كان نتيجة النسيان بعدما ذكروا الله واستغفروه، وعلّهما المعنّيان بـ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ مهما عنت معهما الإصرار عن علم بمادة الإصرار حظراً، دون جهل سائد أو تجاهل عامد، والإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار(١).

فـ «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»(٢) بل و«لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه»(٣).

ذلك لأنه دليل على عدم الإيمان حين لا تسوءه سيئة، فالخوف من العقاب يبعث العاصي على الاستغفار والندم(٤).

و«إنه والله ما خرج عبد من ذنب بإصرار، وما خرج عبد من ذنب إلّا بإقرار»(٥) و لقد كان يدعو الرسول ﷺ: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفروا»(٦).

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٩٣ في أصول الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥] قال: الإصرار.

(٢) المصدر عن الجمع عن النبي ﷺ أنه قال: . . .

(٣) المصدر في أصول الكافي عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا والله . . .

(٤) المصدر عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ما من عبد أذنب ذنباً فندم عليه إلّا غفر الله له قبل أن يستغفر وما من عبد أنعم الله عليه نعمة فعرف أنها من عند الله إلّا غفر الله له قبل أن يحمده.

(٥) المصدر عن معاوية بن عمار قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنه والله.

(٦) الدر المنثور ٢: ٧٧ - أخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يقول: . . .

=

إنه ليس ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مثيرة للاستهتار، فإنما تُخجل العاصي وتطمعه في الغفران وتثير الاستغفار.

فلقد يعلم الله ماذا خلق ومن ذا خلق، خلق هذا الإنسان بما يحيط به، وبالشهوة والحيونة أمام الفطرة والعقلية الإنسانية، فقد تهبط به حمأة الشهوة إلى دركات من الفاحشة فينزو نزوة الحيوان، ويترك حظوة الإنسان.

إن الله يعلم منه كلّ ذلك لأنه هو الذي خلقه وقدَّره، فلا يقسو عليه في تخلفاته ولا يبادر إلى طرده من رحماته ما دامت شعلة الإيمان في قلبه غير منطفية، ونداوته غير منتفية، عارفاً ربه وما يتوجب عليه أمامه، فيأمره بالذكر بعد النسيان ويغفر له حين يستغفره ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فليس الله بذلك الغفر الواسع داعياً إلى الترخص[1] تمجيداً للعاثر الهابط، والعاهر الخابط، ولا يهتف له بجمال المستنقع كما الواقعية البشعة تهتف له، فإنما هي إقالة عثرة واستجاشة الرجاء إليه في النفس الإنسانية كما يستجيش فيها الحياد، فهو يربيه بين كفتي ميزان الخوف والرجاء، دونما رجاحة لإحداهما على الأخرى لكيلا يتأرجف.

أولئك هم المؤمنون في الحق، الموعوظون الموعودون بالغفران، دون المستهترين المصرين غير الذاكرين الله ولا المستغفرين، فإنهم خارج الأسوار، مؤصدة في وجوههم تلك الذاكرين الله ولا المستغفرين، فإنهم خارج الأسوار، مؤصدة في وجوههن تلك الأستار، ولكنهم - على ما هم

= وفيه أخرج البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: أربعة في حديقة قدس في الجنة، المعتصم بلا إله إلّا الله لا يشك فيها ومن إذا عمل حسنة سرته وحمد الله عليها ومن إذا عمل سيئة ساءته واستغفر الله منها ومن إذا اصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون.

(١) خلاف ما يروى عن رسول الهدى ﷺ: لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم (الدر المنثور ٣: ٧٧) فإنه من اختلافات المتخلفين عن شرعة الحق، لأنه تشجيع على الذنب، أمراً بشيء ينهى عنه!.

عليه - لا يعاجلون بالعقوبة، فلهم كما لسواهم مفتوحة باب التوبة إن أنابوا إلى الله، وعلينا أن نتخلق بأخلاق الله فلا نعاجل من ظلمنا بالعقوبة ما فيه مجال للإصلاح، أم لا يخاف منه الإفساد.

فهنالك - لما تنزل هذه الآية - يصرخ إبليس بعفاريته قائلاً: «من لها حتى قال الوسواس الخناس أنا لها، قال: بماذا؟ قال: أعدُهم وأمنِّيهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة»[1].

فـ «رحم الله عبداً لم يرض من نفسه أن يكون إبليس نظيراً له في دينه وفي كتاب الله نجاة من الردى وبصيرة من العمى ودليل إلى الهدى وشفاءٌ لما في الصدور فيما أمركم به من الاستغفار مع التوبة...»[2].

فحين يُهدِّدنا إبليس «يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما كانت أرواحهم في أجسادهم، يُتهدد بقول الله: وعزتي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[3] فـ «استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور»[4] وأنت

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٩١ في أمالي الصدوق بإسناده إلى الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً...﴾ [آل عمران: ١٣٥] صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له ثور فصرخ بأعلى صوته بعفارية فاجتمعوا اليه فقالوا: يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا أو كذا، قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك فقال: لست لها فقال الوسواس الخناس...

(٢) نور الثقلين ١: ٣٩٠ في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رحم الله عبداً - إلى - مع التوبة، قال الله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً...﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] فهذا ما أمر الله به من الاستغفار واشترط معه بالتوبة والإقلاع عما حرم الله فإنه يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، فهذه الآية تدل على أن الاستغفار لا يرفعه إلى الله إلّا العمل الصالح والتوبة.

(٣) الدر المنثور ٢: ٧٧ - أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال قال إبليس وعزتك... فقال الله وعزتي...

(٤) المصدر أخرج البزاز والبيهقي في الشعب عن أنس قال جاء رجل فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم =

مأجور، أو اعلم أنه «لا يمل الله حتى تمل»[1] فليس الإصرار إعادة الذنب مع التوبة والاستغفار، إنما هو ترك الندم بلا توبة واستغفار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأكارم ﴿جَزَآؤُهُم﴾ عند ربِّهم في الدارين ﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ في البرزخ والقيامة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ - دون خروج عنها - عطاءً غير مجذوذ ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فلبئس أجر الخاملين التاركين عمل الإيمان إلى قولته أم وعقيدته.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ في أُمم خَلَتْ، بقرون مضت ﴿سُنَنٌ﴾ حسنة وسيئة ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سيراً تاريخياً جغرافياً في أرض التكوين والتدوين وأفضله القرآن فإنه معرض عريض للأرضَين ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ نظر العقلية النابهة، نظر البصر إلى البصيرة ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ في حياتهم الدنيا فضلاً عن الأخرى... ذلك وإن القرآن يربط غابر الإنسان بحاضره وحاضره بغابِرِه، ثم ينتج من خلال الغابر والحاضر إلى مستقبل زاهر لو أن الناس

= إني أذنبت فقال رسول الله ﷺ: إذا أذنبت فاستغفر ربك، قال: فإني أستغفر ثم أعود فأذنب فقال: إذا أذنبت فاستغفر ربك ثم عاد فقال في الرابعة استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور.

(١) المصدر أخرج البيهقي عن عقبة بن عامر الجهني أن رجلاً قال: يا رسول الله ﷺ أحدنا يذنب؟ قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه ويتوب؟ قال: يغفر له ويتاب عليه، قال: فيعود ويذنب؟ قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه ويتوب؟ قال: يغفر له ويتاب عليه، قال: فيعود ويذنب؟ قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر ويتوب؟ قال: يغفر له ويتاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا.

اعتبروا فعبروا قناطر الحياة بسيارات العِبَر، وشقّوا أمواج الفتن بسفن المُعْتَبَر.

أجل وإن في الأمم الخالية معتبراً متبصَّراً، فانظروا إلى فراعنة التاريخ ونماردته حيث لم ينفعهم جمعهم وسلطانهم شيئاً، ولا حَمَتهم شواهق قصورهم ولا ذخائر كنوزهم، فهم بعد أحاديث لم تبق منهم باقية إلّا باغية من معاثر، ثم ومآثرهم الظالمة الطاغية.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾:

﴿هَٰذَا﴾ القرآن، وهنا ﴿هَٰذَا﴾ البيان ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ دون خفاءٍ ولا غطاءٍ ﴿بَيَانٌ﴾ لهم كلهم، ثم ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فمهما كان هدى دلالية للناس كلهم، فليس هدى واقعية إلّا للمتقين، الذين إذا وُقوا ببيان اتقوا وإذا هدوا اهتدوا.

ومن الفارق بين البيان والهدى والموعظة، أن البيان ليس إلّا عن خفاء، خفاء الجهل بالحق، أو خفاء التجاهل عنه، أم خفاء التصديق به، فالبيان أيّاً كان يفيد إزالة الشبهة، والهدى بيان لطريق الرشد، والموعظة بيان لمحاظير طريق الرشد، فالمتقي إنما يحتاج إلى الهدى - حيث يتحرى عنها - فيتبعها، ثم إلى الموعظة فيتحرز عما يوعظ به، وغير المتقي يحتاج إلى بيان حتى يجتاح جهله أو تجاهله.

فلا أثر للبيان ما لم يكن التقوى، إلّا أن من البيان ما يبعث على التقوى، لأن غير المتقي جاهل بما يُحرِّضه على التقوى.

فالقرآن بيان للناس ككل، لمن تبيَّن به: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] و﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2] فـــ ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٧.

لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١]، وإذا كان ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ فليكن تفهمه ميسوراً لهم كناس، فالمعتذرون عن فهمه أو تفهمه سواء في كونهم من النسناس الخناس، أكانوا من المؤمنين به المغالين تقصيراً في تفهمه، وأنه خاص بالمعصومين عليهم السلام، أم كانوا ممن قالوا ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[٢].

فالقرآن ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ ما تبيّنوا، بيان في ظواهره ومظاهره، ثم في إشاراته ولطائفه، مهما اختصت حقائقه بكلٍّ تأويل بالرسول وعترته المعصومين عليهم السلام: فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣].

ذلك - وإلى تعبئة وتقوية وتأسية وتثبيت، رجوعاً إلى ما مضى من مآسي غزوة أُحد، وبإجابات جادة عن شطحات الأقاويل حول هزيمته العظيمة:

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا
بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا
يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾
أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ
وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ
رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ
ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ
عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا
نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ
﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ
قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا
وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾:

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١) ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾(٢).

والوهن هنا وهن العزم مهما جاء في أخرى لوهن العظم ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي...﴾(٣)، فإن الوهن في سبيل تحقيق الحق وإبطال الباطل تهاون بالحق وتعاون في الباطل، فلا تهنوا في ملاحقة الكفار، ولا تحزنوا على ما يلحقكم من أذى الكفار «و» الحال أنكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ عليهم على أية حال ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله عاملين بشرائط الإيمان، فإن ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ما دمتم أنتم مع الله ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: لم ينقصكم أجرها.

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ تحلّق على كلّ الحقول الحيوية الإيمانية، مهما نزلت بمناسبات خاصة، كما يروى أنه «أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلون علينا فأنزل الله الآية»(٤).. فقال النبي ﷺ: «اللّهم لا قوة لنا إلّا بك وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر فلا تهلكهم وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله وعلا المسلمون على الجبل فنزلت الآية»(٥).

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة محمد، الآية: ٣٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٤.
(٤) الدر المنثور ٢: ٧٨ - أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: أقبل...
(٥) المصدر أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب يوم أحد فسألوا ما فعل النبي ﷺ وما فعل فلان فنعى بعضهم لبعض وتحدثوا أن النبي ﷺ قتل فكانوا في حزن فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل وكان على أحد مجنبي المشركين وهم أسفل من الشعب فلما =

هنا ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ تنزل بعد الهزيمة وبعد الأمر بالعزيمة بملاحقة المشركين، كما يروى أن النبي ﷺ لما رجع من أُحد فلما دخل المدينة نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلّا من به جراحة فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي يا معشر المهاجرين والأنصار من كانت به جراحة فليخرج ومن لم يكن به جراحة فليقم فاقبلوا يضمدون جراحاتهم ويداوونها فأنزل الله على نبيه ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ...﴾[1] و﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ...﴾ «فخرجوا على ما بهم من الألم والجراح»[2].

هنا ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ تبشر بطليق العلو للكتلة المؤمنة على الكافرين، علواً في المواجهة في الحرب الحارة والباردة وفي كلّ عزة وسؤدد، ولكن شريطة كامل الإيمان.

ثم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تهديدة بعدم الإيمان الصالح لمن يهن ويحزن ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ منهاجاً وهّاجاً، وحجاجاً مبلاجاً في شرعة الله، فمهما

= رأوا النبي ﷺ فرحوا فقال النبي ﷺ: اللهم..

وفي تفسير الفخر الرازي ٩: ١٥ روي أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد ثم قال: أين ابن أبي كبشة - يعني الرسول ﷺ - أين ابن أبي قحافة أين ابن الخطاب فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ وهذا أبو بكر وها أنا عمر فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال فقال عمر: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فقال: إن كان كما تزعمون فقد خبنا إذن وخسرنا.

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

(٢) نور الثقلين ١: ٣٩٥ عن تفسير القمي أن النبي ﷺ...

(٣) سورة المنافقون، الآية: ٨.

كان للباطل جولة فإن للحق دولة، كما أن لكتلة الإيمان وراثة الأرض ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[(١)].

فلا مسُّ القرح ولا القتل يحق أن يوهن صميم عزم المؤمنين فإن لهم إحدى الحسينين.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

هنا أسباب تقتضي ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾: ١ - الإيمان: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، و٢ - ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[(٢)]، و٣ - ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ - ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾[(٣)] ثم ٤ - ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾[(٤)] ومن ثم ٥ - ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ ٦ - ﴿وَلِيَعۡلَمَ...﴾ ٧ - ﴿وَيَتَّخِذَ...﴾ ٨ - ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾. أركان ثمانية لذلك العلو العال، تحلّق على كافة المعارك الدموية، وهذه الثمان عدد أبواب الجنة تُحتصر في ﴿إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾[(٥)].

فأما ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ﴾ فدولة الحق فيها للناس ودولة الباطل للنسناس، فـ «ما زال منذ خلق الله آدم دولة لله ودولة لإبليس فأين دولة الله أما هو إلّا قائم واحد»[(٦)]، والدول هو النقل والمداولة هي المناقلة، ومداولة الأيام

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة محمد، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٠٤.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٥٢.
(٦) نور الثقلين ١: ٣٩٥ في تفسير العياشي عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ...﴾.
==

بسرّائها وضرائها بين الناس هي مناقلتهما بينهم دون أن تستقر أيام السراء في ناس وأيام الضراء في ناس آخرين.

ولماذا تلك المداولة في تلك الأيام وإنما الدولة للحق دون الباطل؟

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ لا تقصد دولة الحق حتى تداول بين أهل الحق والباطل، وإنما هي أيام السلطة الظاهرة والنصر زمنياً وليس روحياً إذ لا روح لغير المؤمنين فليست الدولة الظاهرة للباطل - وهي جولة - تعزيزاً لموقف الباطل وتقويضاً لظهر الحق، فإنما هي لمصالح وحكم ربانية يقتضيها دور التكليف، بما يحصل من تقصيرات لأهل الحق.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ من العلم: العلامة، دون العلم: المعرفة، فالله يعلم بمداولة هذه الأيام علامة النجاح والفلاح على الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء للحق، كما يعلم علامة السقوط على الظالمين ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وعند تقلب الأحوال يُعرف جواهر الرجال، وكما عرفت يوم أُحد وأيام أمثاله.

والواو عطفت على محذوف معروف من السياق، ومنه أن هزيمة أهل الحق - في الحق - ليست إلّا لهزيمتهم عن الحق كما يرام كما في غزوة أُحد، وما إلى هذه من هزائم هي من خلفيات الهزائم عن عزائم الإيمان.

فمداولة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ بتعاقب الشدة والرخاء إنها محكٌّ لا يخطئ، وميزان لا يتأرجح، وليست الشدة أشد من الرخاء، فكم من نفوس أبيّة تتماسك فيها صابرة مثابرة، ولكنها تتراخى وتنحل بالرخاء، والنفس المؤمنة

= وفي الدر المنثور ٢: ٧٩ - أخرج ابن المنذر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن للحق دولة وإن للباطل دولة، دولة من دولة الحق أن إبليس أمر بالسجود لآدم فأديل آدم على إبليس وابتلى آدم بالشجرة فأكل منها فأديل إبليس على آدم.

هي الصامدة في الشدة والرخاء على سواء، محتسبة عند الله عناءها فيهما، فلا انتصار بدرٍ يُزهيهم مرحين، ولا انهزام أُحد يهفيهم قرحين.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ اصطفاء ممن علم الله من المؤمنين، ومقام هذه الشهادة هو الثالث بعد النبيين والصديقين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

فالصالحون هنا هم المؤمنون المعلمون هناك، فالشهداء منهم هم المصطفون من بينهم، فليس الشهيد هو من يشهد الشهادتين، فكثير هم يشهدونهما وما هم بمؤمنين، ولا من يشهد فعل الواجبات وترك المحرمات، فإنهم المؤمنون المعلمون ككل ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾ تبعيض، مهما كان ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ...﴾[2] فإنهم من شهداء الحق عند ربهم حيث هم صديقون في إيمانهم، وهم درجات عند الله، ذلك، فكذلك الشهداء في الدعاوى حيث تكفي فيهم العدالة أو الثقة.

فهم - إذاً - الشهداء على العالمين يوم الدنيا وعلى أعمالهم يوم الدين: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

و«الشهداء» هنا بعد النبيين هم الصديقون وأصلح الصالحين التالين للصديقين كما وهم يتلون النبيين، ثم بعدهم أجمع سائر الصالحين كما في آية المنعمين.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١٩.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

وقد تشمل الشهداء، المستشهدين في سبيل الله المخلصين الذين لا يشوبهم في هذه السبيل أي دخيل، إلّا مرضاة الرب الجليل[١].

ثم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دفع لأوهام طارئة كأن يقال دولة الظالمين بمشيئة الله دليل إن الله يحبهم.

وهكذا يمضي السياق قدماً ليكشف عن الحكمة الكامنة وراء ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ في تربية الأمة المسلمة، إعداداً لها لدور أعلى:

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

والفرق بين المحص والفحص أن الفحص هو إبراز الشيء عما هو منفصل عنه والمحص إبرازه عما هو متصل به من الخليط والدخيل.

﴿... وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٢]، آيتان لا ثالثة لهما في القرآن تمحصان الذين آمنوا ما في قلوبهم.

فذلك الاتخاذ وهذا التمحيص من كتلة الإيمان على مدار الزمن كما ينحو منحى الانتخاب لأخلص المخلصين وجاه الكافرين منذ الرسول ﷺ حتى ظهور المهدي عليه السلام، كذلك وبأحرى ينحو نحو هذه الدولة المباركة التي يلزمها هؤلاء الشهداء الممحصون، من الثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً أصحاب ألويته، ثم ومن العشرة آلاف جنوده الأصلاء.

---

(١) الدر المنثور ٢: ٧٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما أبطأ على النساء الخبر خرجن يستخبرن فإذا رجلان مقتولان على دابة أو على بعير فقالت امرأة من الأنصار من هذان؟ قالوا: فلان وفلان، أخوها وزوجها، أو زوجها وابنها فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: حي، قالت: فلا أبالي يتخذ الله من عباده الشهداء ونزل القرآن على ما قالت: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

فإن ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بصورة طليقة حقيقة في محققهم، ليس إلّا ملئت الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً[١] ولا نجد محققهم - ككل - إلّا في هذه الآية وتلك الدولة الكريمة، أجل وأصحاب المهدي عليه السلام هم من المؤمنين المعلمين الشهداء الممحصين الصامدين. الماحقين للكافرين عن بكرتهم، فلا يبقى إلّا الموحدون لله مهما بقيت قلة قليلة من أهل الكتاب الموحدين، فقد «والله لتمحصن والله لتميزن والله لتغربلن حتى لا يبقى منكم إلّا الأبذر وهو أن يدخل الرجل فيه الطعام يطين عليه ثم يخرجه قد أكل بعضه بعضاً فلا يزال ينقيه ثم يكن عليه ثم يخرجه ثم يفعل ذلك ثلاث مرات حتى يبقى ما لا يضره شيء»[٢].

والتمحيص هو التخليص من الشوائب الخارجة والدواخل المارجة، كما المحق هو إنفاذ الشيء تدريجياً وإزالته عن بكرته حتى لا يرى منه شيء: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾[٣].

فالتمحيص هو درجة بعد الشهادة والعلم للمؤمنين، عملية تتم في دواخل النفوس وأعماق القلوب، كشفاً لمكنونات الشخصيات، وتسليطاً لأضواء على هذه المكنونات تمهيداً لاستئصال كلّ دخل ودغل ودجل، وإيصالاً للقلب إلى كامل الصفاء، دون أي غبش ولا ضباب.

---

(١) تفسير البرهان ١ : ٣١٨ العياشي عن الحسن بن علي الوشاء بإسناد له يرسله إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: . . . قلت وما الأبذر؟ قال: الأبذر هو. . .

(٢) نور الثقلين ١ : ٣٩٥ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن علي بن أبي طالب عليه السلام إمام أمتي وخليفتي عليها من بعدي ومن ولده القائم المنتظر الذي يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً إن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللقائم من ولدك غيبة، قال: أي وربي ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤١] يا جابر إن هذا الأمر من الله، وسر من سر الله، مطوي عن عباد الله، فإياك والشك فيه فإن الشك في أمر الله عزّ وجلّ كفر.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٧.

وما لم تحصل تلك العلامة والشهادة والتمحيص تماماً، لم يحصل محق الكافرين تماماً، فكثيراً ما خيل إلى المؤمن أنه ما حص خالص، ثم إذا هو يكشف - على ضوء التجربة العملية ومواجهة الأحداث - أن في نفسه عقابيل لم تمحّص بعد، وعراقيل لم تزل فيها، ومن المصلحة والحكمة أن يعلم هذا النقص في النفس ليعاود المحاولة في سبكها من جديد، محقاً لكل العراقيل، ولكي يقدر على محق الكافرين.

وهكذا نؤمر زمن غيبة صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه أن نقطع أطراف الكافرين حتى نكبتهم ونمحقهم في آخر الأمر، ولا تحصل هذه البغية الحاسمة إلّا بمواصلة الجهاد في سبيل الله دونما فشل ولا فتور حتى يكمل أمر المحق زمن صاحب الأمر، فما نحن إلّا معدّين طريقه عجل الله تعالى فرجه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾:

إن ذلك لحسبان قاحل ﴿أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ دونما علامة يعلمها الله عليكم من المجاهدة والمصابرة: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[(١)] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٢)]؟! استنكارات تلو بعض تخطئ ذلك التصوّر العارم أنه تكفي المؤمن قولة الإيمان، أم وحالته وعمليته كيفما كانت دونما ابتلاء فيها، كلّا، فإنما هي التجربة الواقعية، و«يعلم» هنا - كما في أضرابها - من العلم: العلامة، لا من العلم المعرفة بعد جهل، فـ«إن الله هو أعلم بما هو

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٦.

مكونه قبل أن يكون وهم ذرٌّ، وعلم من يجاهد ممن لا يجاهد كما علم أنه يميت خلقه قبل أن يميتهم ولم يرهم موتهم وهم أحياء»[1].

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾:

﴿كُنتُمْ﴾ قبل انهزامكم في أُحد وبعد انهزام المشركين في بدر ﴿كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ في سبيل الله ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ تمنياً قبل الواقعية والتجربة منها ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ في أُحد في قتلاكم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إليهم يتساقطون، و«تنظرون» موتكم معهم فلماذا - إذاً - الوهن والحزن على هؤلاء الشهداء الأكارم؟.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ...﴾![2] موازنة بين وزن الكلمة: «يا ليتنا كنا معهم» التي يقولها اللسان ووزن الحقيقة في رؤية الواقع العيان، فيعرفوا رصيد الكلام بميزان الامتحان، فيعلموا أن ليست الكلمات الطائرة والأمنيات المرفرفة المائرة وحتى العقائد العابرة، ليست هذه هي التي تدخلهم الجنة، فإنما هو تحقيق القالة والحالة بالواقع الجبار.

وكان سبب نزول هذه الآية أن قوماً من أصحاب النبي ﷺ - ممن لم

(١) نور الثقلين ١ : ٢٩٥ في تفسير العياشي عن داود الرقي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ...﴾ [البَقَرَة: ٢١٤] قال: إن الله..

أقول: وهذا تفسير لـ ﴿يَعْلَمْ﴾ بغير ما يهرف به الخارفون أنه من العلم، ثم يؤوله المأولون.

(٢) المصدر في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية فإن المؤمنين لما أخبرهم الله بالذي فعل بشهدائهم يوم بدر ومنازلهم من الجنة رغبوا في ذلك فقالوا: اللهم أرنا قتالاً نستشهد فيه فأراهم الله إياه يوم أحد فلم يثبتوا إلّا من شاء الله فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ...﴾.

وفي الدر المنثور ٢ : ٨٠ - أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد، أو ليت لنا يوم كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلى فيه خيراً ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق فأشهدهم الله أحداً فلم يلبثوا إلّا من شاء الله منهم فقال الله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ...﴾.

يشهدوا بدراً أو شهدوا ولم يستشهدوا - كانوا يتمنون يوماً كيوم بدر يستدركون فيه ما فاتهم من شرف المسعاة، وفضل الشهادة المبتغاة، فلما استنهضوا للجهاد في أُحد نكص بعضهم ونكث آخرون فعاتبهم الله على ذلك وأثنى على الصابرين منهم والقائمين بجهاد عدوهم.

ثم وفي الآية مسائل ثلاث:

كيف يُرى الموت وليس الموت مما يرى، إنما هو واقع يحصل للأحياء فهم مدركوه من غير أن يروه؟ ثم ما هو النظر بعد الرؤية؟ وهي هو وهو هي! ومن ثم تمني الموت من المؤمن في الحرب يعني أن يقتله الكافر، وقتلهم لهم كفر فكيف المؤمنون هكذا يتمنون؟.

١ - رؤية الموت هي رؤية أسبابه لجماعة من المؤمنين الذين لم يقتلوا في الجهاد، لا الموت نفسه، وأسباب الموت الظاهرة في النضال كلها مرئية، كالطعن بالرماح والضرب بالصفاح، والرشق بالسهام والقذف بالسّلام، وكل هذه مما يرى، وكما في رؤية إبراهيم الخليل ذبح إسماعيل: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ... قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾[1] وليس تصديقها إلّا بتقديم سبب الذبح. ذلك، ثم وهي رؤية قتلاهم يتساقطون وهي أحرى بكونها رؤية للموت.

ومن ثم رؤية قتلهم أنفسهم حين قتلوا، وهي درك الموت ولمسه في أنفسهم، ورؤية الموت هنا قد تعني كلّ هذه الثلاث.

ثم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قد تعني انتظار الموت المتمنّى، أم والنظر إلى الميت القتلى، أم ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ في بدر - إلّا موت أنفسكم - ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ مثلث الموت في أُحد.

وأما أصل التمني للموت، فهو ينحو منحى حسنى الاستشهاد في سبيل

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٢-١٠٥.

الله وهي إحدى الحسينين، ولا ينحو نحو عملية الكفار، فللشهادة واجهتان اثنتان، بذل النفس في سبيل الله من قبل المؤمن دون تقصد للموت، وإنما يقصد إحدى الحسينين: إماتة الكافر أو الموت في سبيل إماتته وإحياء الإسلام، وهذه واجهة مقصودة.

والأخرى غير مقصودة وهي أن يقتله الكافرون، ابتذالاً لنفسه وهدراً فيخسر به المسلمون ويربح الكافرون، وتمني الموت في سبيل الله لا يعني إلّا الأولى، والثانية هي تمني الكافر أن يقتل المؤمنين.

ومما يدل على تلك الواجهة الوجيهة ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ دون القتل، ومهما كان القتل من فعلهم فالموت ليس إلّا من فعل الله، فلذلك جاز تمنيهم أن يميتهم الله تعالى في الجهاد، وهو أعم - مع ذلك - من القتل والموت حتف الأنف وذلك حسن، وإنما يقبح لو تمنوا أن يقتلهم الكفار.

ففي ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ توسعة لأسباب الموت قتلاً وسواه، وإزاحة لتمني القتل الذي هو فعل الكفار، ولمّا يفترق الموت عن القتل يعمه وحتف الأنف كما هنا.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

لقد خلطت جماعة من المؤمنين الدعوة بالداعية فزعموا انتهاء الدعوة بقتل أو موت الداعية فانقلبوا على أعقابهم، كما حصل بالفعل حين نودي في أُحد أن محمداً ﷺ قد قتل، وحصل بعده لما توفي الرسول ﷺ.

وهذه الآية وأضرابها تبيّن أن الدعوة هي الأصيلة الثابتة، ومهما كان للداعية حرمته، فالدعوة الرسالية سلسلة موصولة على مدار الزمن الرسالي، يحملها الرسل تلو بعض، فلا تموت الدعوة بموت داعية لأنها من الله وهو حي لا يموت.

فلما انكشف ظهر المسلمين في أُحد - حين ترك الرماة قواعدهم بغية الغنيمة - فركبه المشركون وأوقعوا بالمسلمين وكسرت رباعية الرسول ﷺ وشجّ وجهه ونزفت جراحه فاختلطت واحتار المسلمون وتفرقوا أيادي سبأ فنادى منادٍ «أن محمداً قد قتل»[1].

---

(١) نور الثقلين ١: ٣٩٧ في روضة الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما انهزم الناس يوم أحد عن النبي ﷺ انصرف إليهم بوجهه وهو يقول: أنا محمد أنا رسول الله لم أقتل ولم أمت فالتفت إليه فلان وفلان فقالا: الآن يسخر بنا أيضاً وقد هزمنا وبقي معه علي عليه السلام وسماك خرشة أبو دجانة فدعاه النبي ﷺ فقال: يا أبا دجانة انصرف وأنت في حلّ من بيعتك فأما علي فهو أنا وأنا هو فتحول وجلس بين يدي النبي ﷺ وبكى فقال: لا والله ورفع رأسه إلى السماء وقال: لا والله لا جعلت نفسي في حلّ من بيعتي إني بايعتك فإلى من أنصرف يا رسول الله ﷺ إلى زوجة تموت أو ولد يموت أو دار تخرب أو مال يفنى وأجلّ قد اقترب؟ فرق له النبي ﷺ فلم يزل يقاتل حتى أثخنته الجراحة وهو في وجه وعلي عليه السلام في وجه، فلما أسقط احتمله علي عليه السلام فجاء به إلى النبي ﷺ فوضعه عنده فقال يا رسول الله ﷺ أوفيت ببيعتي؟ قال: نعم وقال له النبي ﷺ: خيراً وكان الناس يحملون على النبي ﷺ الميمنة ويكشفهم علي عليه السلام فإذا كشفهم أقبلت الميسرة إلى النبي ﷺ فلم يزل كذلك حتى تقطع سيفه بثلاث قطع فجاء إلى النبي ﷺ فطرحه بين يديه وقال: هذا سيفي قد تقطع به فيومئذ أعطاه النبي ﷺ ذا الفقار ولما رأى النبي ﷺ اختلاج ساقيه من كثرة القتال رفع رأسه إلى السماء وهو يبكي وقال: يا رب وعدتني أن تظهر دينك وإن شئت لم يعيك فأقبل علي عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ أسمع دوياً شديداً وأسمع اقدوم حيزوم وما أهم أضرب أحداً إلّا سقط ميتاً قبل أن أضربه فقال ﷺ: هذا جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في الملائكة عليهم السلام ثم جاء جبرئيل عليه السلام فوقف إلى جنب رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن هذه لهي المواساة فقال ﷺ: إن علياً مني وأنا منه فقال جبرئيل عليه السلام: وأنا منكما ثم انهزم الناس فقال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام يا علي امض بسيفك حتى تعارضهم فإن رأيتهم قد ركبوا القلاص وجنبوا الخيل فإنهم يريدون مكة وإن رأيتهم قد ركبوا الخيل ويجنبون القلاص فإنهم يريدون المدينة فأتاهم علي عليه السلام فكانوا على القلاص فقال أبو سفيان لعلي عليه السلام يا علي ما تريد هو ذا نحن ذاهبون إلى مكة فانصرف إلى صاحبك فاتبعهم جبرئيل عليه السلام فكلما سمعوا وقع حوافر فرسه جدوا في السير وكان يتلوهم فإذا ارتحلوا قال: هو ذا عسكر محمد ﷺ قد أقبل فدخل أبو سفيان مكة فأخبرهم الخبر وجاء الرعاة والحطابون فدخلوا مكة فقالوا رأينا عسكر محمد ﷺ كلما ارتحل أبو سفيان نزلوا يقدمهم فارس على فرس أشقر يطلب آثارهم فأقبل أهل مكة على أبي سفيان يوبخونه =

ولقد كان لهذه الصيحة الإبليسية وقعها الشديد المديد على المسلمين، فانقلب جماعة منهم على أعقابهم حربياً أو نفسياً وهي أخطر وأشجى.

ف ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ وليس هو المرسل حتى إذا مات ماتت الدعوة كالداعية، فإنما كيانه ككل أنه «رسول» - عليه ما حمّل وعليكم ما حمّلتم - عليه تأدية رسالته كما حمّل، ثم عليكم تأديها كما حمّلتم، فإذا أدّى رسالته كما حمّل فلماذا - إذاً - انقلاب على الأعقاب إن مات أو قتل، إذ لم تمت الدعوة ولم تقتل بموت الداعية.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ خلت دعوة ثم خلت عن الحياة والدعوة باقية، وكذلك محمد ﷺ مهما كان خاتم النبيين وأشرف الخلق أجمعين.

إن محمداً رسول من عند الله، جاء ليبلغ عن الله، فالله باق وكلمته باقية مهما مات الرسول أو قتل فكيف ترتد جماعة ممن آمن على أعقابهم فينقلبوا خاسرين؟!.

وليس الإيمان بالرسول والحب للرسول إلّا لرسالته القدسية، فلا يزولان بزواله، وقد رأينا في هزيمة أُحد أبا دجانة كيف يترّس عليه ﷺ بظهره والنبل متواتر عليه دون حراك!، ورأينا التسعة الذين أفرد فيهم

= ورحل النبي ﷺ والراية مع علي عليه السلام وهو بين يديه فلما أن أشرف بالراية من العقبة ورآه الناس نادى علي عليه السلام أيها الناس هذا محمد ﷺ لم يمت ولم يقتل فقال صاحب هذا الكلام الذي قال: الآن يسخر بنا وقد هزمنا هذا علي والراية بيده حتى هجم عليهم علي عليه السلام ونساء الأنصار في أفنيتهم على أبواب دورهم وخرج الرجال إليه يلوذون به ويتوبون إليه والنساء نساء الأنصار قد خدشن الوجوه ونشرن الشعور وجززن النواحي وفرقن الجيوب وحرضن البطون على النبي ﷺ فلما رأيته قال لهن خيراً وأمرهن أن يستترن ويدخلن منازلهن وقال: إن الله وعدني أن يظهر دينه على الأديان كلها وأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤].

ينافحون عنه ويستشهدون تلو بعض، وكل هذه التضحيات حباً للرسول لمكانة الرسالة.

والمؤمنون الصالحون، العارفون رسالة الله، دائمون في الإيمان بها والحب لها مهما مات الرسول ﷺ أم بقي حياً ولن يبق، إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾(١).

والانقلاب على الأعقاب ليس يعني فقط انقلاباً عن الحرب إلى المدينة، فإنهم انهزموا ككل مهما حارب من حارب حتى النفس الأخير.

إنما الأصل هو الانقلاب نفسياً الذي صاحبها عند الهتاف «إن محمداً قد قتل» فقتل بذلك الهتاف إيمان البعض ووهن آخرون، حيث أحس البعض أن لا جدوى بعد في استمرارية القتال، وكأن بموت محمد أو قتله انتهى أمر رسالته، فانتهى - إذاً - أمر الجهاد.

فالارتداد في هذه المعركة الحربية على الأعقاب هو من خلفيات الانقلاب النفسي الرديء، ما قلّ منه أو جلّ، فكل تحولة عن حالة الإيمان وقالته وفعلته بذلك الهتاف، انقلاب على الأعقاب مهما اختلفت الدركات.

وهذا درس يحلق على كلّ الزمن الرسالي، تسوية بينه وبين الزمن الرسولي، أن يستمر المسلمون في تمسكهم بإسلامهم السامي بعد الرسول كما هم متمسكون زمنه، بل والمسؤولية في غيابه أكثر مما كان في حضوره، حيث يفقدون الداعية الأولى، فعليهم أن يجبروا كسر فقده بمواصلة الدعوة والنضال في بسطها وتحقيقها وتطبيقها.

لقد انقلبت جماعة على أعقابهم في هتاف أُحد، فقيلت قيلات هي ويلات على الكتلة المؤمنة، وكما قالوا قولات هي من رجولات إيمانية.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

«قال أناس منهم لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس من علية أصحاب النبي ﷺ قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم أو تلحقوا، به وذكر لنا أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصاري إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ فقاتلوا عن دينكم فأنزل الله» ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ...﴾[1] [2].

ذلك، وقال أهل المرض والارتياب والنفاق حين فرّ الناس عن النبي قد قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول فنزلت[3] ويقول أنس بن النضر في هذه المعركة الصاخبة[4]: إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يُقتل فقاتلوا على ما قتل عليه محمد ﷺ اللّهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء فشدّ بسيفه فقاتل حتى قتل فانزل الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾.

وكما انتهى إلى عمرو بن طلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل محمد رسول الله ﷺ قال: فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله واستقبل القوم فقاتل حتى قتل[5].

هنا تنقلب جماعات على أعقابهم زعم أن الرسول ﷺ قتل، ثم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) الدر المنثور ٢: ٨٠ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال: ذلك يوم أُحد حين أصابهم ما أصابهم من القتل والقرح وتداعوا نبي الله قالوا قد قتل وقال أناس...

(٣) المصدر أخرج ابن جرير عن ابن جريح قال قال أهل المرض..

(٤) أخرج ابن جرير عن السدي قال: فشا في الناس يوم أُحد أن رسول الله ﷺ قد قتل بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان يا قوم أن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم، قال أنس بن النضر...

(٥) المصدر أخرج ابن جرير عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدي بن النجار قال: انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك...

انقلبت جماعات من النمط نفسه بعد وفاة الرسول ﷺ وكما يقول خليفة الرسول علي عليه السلام في خطبة الوسيلة:

«حتى إذا دعى الله عز وجل نبيه ﷺ ورفعه إليه لم يك ذلك بعده إلّا كلمحة من خنقة أو وميض من برقة إلى أن رجعوا على الأعقاب وانتكصوا على الأدبار وطلبوا بالأوقار وأظهروا الكتائب وفلّوا الدار وغيّروا آثار الرسول ﷺ ورغبوا عن أحكامه ويعدوا من أنواره واستبدلوا بمستخلفه بديلاً اتخذوه وكانوا ظالمين وزعموا أن من اختاروا من آل أبي قحافة أولى بمقام رسول الله ﷺ ممن اختاره الرسول عليه وآله السلام لمقامه وإن مهاجر آل أبي قحافة خير من المهاجري الأنصاري الرباني ناموس هاشم بن عبد مناف».

ذلك! والرسول ذكرهم في خطبة الغدير بما ذكرهم ومنها «معاشر الناس أنذركم أني رسول الله إليكم قد خلت من قبلي الرسل أفإن مت أو قتلت انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين، ألا وإن علياً هو الموصوف بالصبر والشكر ثم من بعده ولدي من صلبه»[1].

ذلك الرسول ﷺ يحتج بكتاب الله ثم خليفته الإمام علي عليه السلام ومن ثم نسمع قرة عينه فاطمة البتول عليها السلام تقول في خطبتها حين منعت فدكاً: «أتقولون مات محمد ﷺ فخطبٌ جليل استوثق منه فتقه وانفتق رتقه وأظلمت الأرض لغيبته وكسفت النجوم لمصيبته وأكدت الإهال وخشعت الجبال وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل

(١) نور الثقلين ١: ٤٠٠ عن الاحتجاج للطبرسي بإسناده إلى محمد بن علي الباقر عليهما السلام عن النبي ﷺ...

ثناءه في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم، يهتف في أفنتكم هتافاً صارخاً وتلاوة وإلحاناً ولقبله ما حلّ بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاءٌ حتم»: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إيهاً بني قيلة أهضم تراث أبيه وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنتدإ ومجتمع..[1].

أجل وكل انقلابة عن شرعة الإسلام بعد ارتحال الرسول ﷺ إلى جوار رحمة ربه وقبلها أنها مشمولة للتنديد الشديد في آية الانقلاب، فمثلث الزمان تشمله، انقلاباً في زمنه وبعده زمن الأئمة، وبعدهم زمن الغيبة.

إن الرسول ميت على أية حال، فإن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2] والناس على ضروب شتى بالنسبة لموته، فمنهم من انقلب بعد موته، ومنهم من ثبت، ومنهم من أنكر موته وهو بمرأى المسلمين كالخليفة عمر (فلما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي وأن رسول الله ﷺ ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، زعموا أن رسول الله ﷺ مات، فخرج أبو بكر فقال على رسلك يا عمر أنصت فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت ثم تلا هذه الآية[3].

---

(١) المصدر عن الاحتجاج روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام أنه لما جمع أبو بكر على منع فاطمة فدك وبلغها ذلك جاءت إليه وقالت: أتقولون..

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٣) الدر المنثور ٢: ٨١ - أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال لما توفي رسول الله ﷺ... فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ وأخذ الناس عن =

وترى ظاهرة التردّد في ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ لامحة لاحتمال قتله ﷺ إنه سبّب موته؟[١] وإضافة القتل إلى الموت هي للإجابة على سماح

= أبي بكر فإنما هي في أفواههم قال عمر: فوالله ما هو إلّا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.

وفيه أخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال: لما توفي النبي ﷺ قام عمر بن الخطاب فتوعّد من قال: قد مات بالقتل والقطع فجاء أبو بكر فقام إلى جانب المنبر وقال: إن الله نعى نبيكم إلى نفسه وهو حي بين أظهركم ونعاكم إلى أنفسكم فهو الموت حتى لا يبقى أحد إلّا الله قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ. . .﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] فقال عمر: هذه الآية في القرآن والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم وقال قال الله لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠].

ويا لثقافة عالية للخليفة في تأويل القرآن لا تمنعه عن الجهل بنصوص الآيات في موته، ولا تمنع حسّه عن الخطأ في موته!.

روى أبان بن عثمان عن أبي جعفر عليه السلام أنه أصاب علياً عليه السلام يوم أحد ستون جراحة وأن النبي ﷺ أمر أم سليم وأم عطية أن تداوياه فقالتا إنا لا نعالج منه مكاناً إلّا انفتق مكان آخر وقد خفنا عليه فدخل رسول الله ﷺ والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة فجعل يمسحه بيده ويقول: إن رجلاً لقي هذا في الله فقد أبلى وأعذر وكان القرح الذي يمسحه رسول الله ﷺ يلتئم فقال علي عليه السلام: الحمد لله إذ لم أفر ولم أولي الدبر فشكر الله ذلك في موضعين من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] - ﴿وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٥].

(١) نور الثقلين ١: ٤٠١ في تفسير العياشي عن عبد الصمد بن بشير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تدرون مات النبي ﷺ أو قتل؟ إن الله يقول: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] فبسمّ قبل الموت أنهما سقتاه، فقلنا: إنهما وأبوهما شر من خلق الله.

أقول: وهذه رواية واحدة يتيمة لا تصدقها الآية، ولئن كان قتلة وارداً هكذا لكان النص «أو سمّ» أم ولأقل تقدير «أفإن قتل» دون إضافة الموت، وعبارة الترديد بينهما بنفسها تشهد أنه لم يقتل، فليس «أو قتل» إلا إجابة عن زعمهم قتلة في أحد.

أقول: إذا لم يعلم عمر أن هذه الآية وما شابهها في القرآن لقلة اطلاعه على القرآن فهلا رأى الرسول ﷺ ميتاً وهلا حضر الصلاة عليه ودفنه أم شغلته السقيفة عن كل ذلك، ثم وكيف انشغل بها عن موته ولا دور لها إلّا بعد موت الرسول ﷺ.

وقد يعتذر عمر عن قولته «كنت أتأول هذه الآية» ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، فوالله إن كنت لأظن أنه سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها وأنه هو الذي حملني على أن قلت ما قلت.

الانقلاب بقتله المسموع، وتقديم الموت لمحة إلى أنه هو الوارد بحقه، وأضيف هنا إلى القتل لكي يرد على خلفيتهما المتخيلة وهي الانقلاب على الأعقاب، وأنهما على سواء فيها لو صدقت وحقت.

فلو قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ لم يرد الاستنكار مورده الواقع وهو ظن القتل، ولو قال «أفإن قتل» لم يرد مورد الموت، فالجمع بينهما يجمع الاستنكار لخلفيتهما المشتركة المزعومة.

﴿... انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ وهي الجاهلية الأولى ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ارتجاعاً منكراً إلى الجاهلية الجهلاء ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ وإنما أضر نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الصامدين على هذه الرسالة القدسية، حيث يشكرون هذه النعمة السابغة في الضراء كما في السراء.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

تلمح هذه الآية أنه خيّل إلى بعض البسطاء - لما سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل - أنه قضى نحبه قبل أجله ولمّا يبلغ رسالته تماماً؟ وهذه ضرورة رسالية ربانية في واجب الحكمة العالية التربوية أن يدوم الرسول برسالته في شخصه حتى يقضي ما حمّل منها دون إبقاء!.

فهذه الآية تؤنب تلك الجهالة في الآجال ولا سيما أجل الرسول، مهما كان فيهم قوالون آخرون بالنسبة لقتلاهم وأنفسهم: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ...﴾[١] - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟...﴾[٢].

هنا ﴿وَمَا كَانَ﴾ كما في نظائرها تضرب السلب إلى أعماق الزمن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

الثلاث، إحالة لهذه الكينونة مهما كانت بصيغة الماضي، إذ لا صيغة سائغة له إلّا الماضي الذي يستقبله المستقبل ﴿أَن تَمُوتَ﴾.

و«نفس» تعم كافة النفوس الحية لمكان ﴿أَن تَمُوتَ﴾ إضافة إلى نفس النفس الدالة على حياة. فكما الإحياء بإذن الله كذلك الإماتة، فإنهما من اختصاصات الربوبية، مهما كانت عندنا أسبابٌ لهما، ولكنما السبب الأخير لأقل تقدير ليس إلّا بأذن الله.

والإذن هنا تكويني، سواءً أكان دون وسيط فهو أمره التكويني، أم بوسيط كأسباب الموت - ميتة وحية - فهو أيضاً أمره التكويني مقارناً لأسباب الموت.

ثم ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ قد تكون حالاً لـ«تموت» فلا موت إلّا بإذن الله في كتابه المؤجل، فلا يعجل قبل أجله ولا يؤجل عنه، وبين الأجل المحتوم والمعلق عموم من وجه.

ولأن «تموت» تعم الأجل المعلق إلى الأجل المحتوم، إذاً فـ«مؤجلاً» تعمهما، فكما الأجل المحتوم ليس إلّا بإذن الله، كذلك المعلق، مهما كان الثاني بأسباب ظاهرة من خلق الله. فقد ترى أسباب الموت الظاهرة تتوارد على نفس ولكنها لا تموت، أم لا ترى أسبابه، أم ترى أسباباً لما دون الموت متواردة على نفس ولكنها تموت، مما يبرهن أن وراء الأسباب الظاهرة وسواها - في حساباتنا - للموت وعدمه يتوارى السبب الرباني للموت وعدمه، ولا فرار عن الموت بسببه الخفي الرباني، أجلاً محتوماً أو معلقاً، وإنما الفرار عن الأسباب الجلية إذا لم يؤمر بها مثل القتال في سبيل الله، ففيما وراءها تأتي ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[1] - ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[2] وأضرابها محكمة حاكمة بالحرمة.

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

وعلّ «الشاكرين» تعني - مع من يريد ثواب الآخرة وهم التجار - تعني بأحرى من لا يريد بعمله لا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة، إنما يريد مرضاة الله ولو عذّب في الدارين، ولا يريد سواها وإن عذب فيهما وأثيبت: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[١] لا جزاءً دنيوياً - ومنه ما بأيديكم - ولا أخروياً قرره الله لأهل طاعته.

﴿وَمَن يُرِدْ...﴾ ذلك التعقيب يقدم المحتمل الأول في الأجل، أنه أجل الرسول الأجلّ ﷺ ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ ارتداداً على عقبيه ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ ثبوتاً على الإيمان ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ هنا لذاتها الطليقة، سمي ثواباً لمقارنته بثواب الآخرة، ثم الثواب هو نتيجة العمل أياً كان، مهما غلب استعماله على النتيجة الخيّرة، فعمل الدنيا ينتج لها كما عمل الآخرة لها، وأين عمل من عمل وثواب من ثواب.

وترى الإرادة - فقط - تخلّف الثواب أياً كان وإن لم تخلف العمل الذي يستحق به الثواب؟ كلا، بل لا تعني الإرادة إلّا التي تستتبع العمل، فالإرادة التي لا يحول بينها وبين المراد حائل مسيّر هي العمل محتماً.

ثم وترى ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ تختص بإرادتها دون الأخرى، كما ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ تختص بها دون الأولى؟ ومن يردهما جمعاً بينهما يعطاهما كما في دعائهم ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢] - ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

﴿يُرِدْ﴾ في كلّ منهما تعني - فقط - كلاً منهما، ثم ومريد الدنيا للآخرة هو مريد الآخرة، وحسنة الدنيا هي الحياة الحسنة التي هي مزرعة الآخرة وليست مزرعة الآخرة حتى تصبح جمعهما جمعاً بين الضدين.

إذاً فـ ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ تعني ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[1] - كما ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ تعني ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[2] و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[3].

فمن أقبل على الدنيا بوجهه كله ونآى عن الآخرة بعطفه، فكدح للدنيا جاهداً، ولم يعمل للآخرة صالحاً، جاحداً، فهو الذي «يرد الدنيا» دون الآخرة، ويعاكسه المقبل على الآخرة بعمل الدنيا والآخرة فإنه ممن «يرد الآخرة».

ذلك مهما كان مريدو الدنيا دركات ومريدو الآخرة درجات، فقد يؤتى كلّ قدره. ولماذا ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ في كلّ منهما والإرادة فيهما طليقة بالنسبة للثواب المراد دون تبعيض؟.

لأن المؤتى على أية حال ليس كلّ الثواب، فإنه موزّع بين أهليه في الدنيا والآخرة، مهما كان ثواب الدنيا ضئيلاً قليلاً أمام ثواب الآخرة الجليل.

و﴿مِنْهَا﴾ في الدنيا قدر ما يسعى لها و﴿مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ثم ﴿مِنْهَا﴾

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٩، ٢٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

في الآخرة هو كذلك قدر السعي ولدى الله مزيد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بفضل ومزيد.

ذلك، وأما من أراد ثواب الدنيا والآخرة، مستقلاً كلّ عن الآخر، فهو عوان بين أهل الدنيا والآخرة، وله في كلّ منهما قدر ما قدم لها ولا يظلمون نفيراً.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾:

تنديد شديد مديد بالذين وهنوا مع الرسول ﷺ لما أصابهم وضعفوا واستكانوا، ثالوث من التخلف عن الإيمان وهم يدّعون الإيمان.

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلمة تكثير علّها مركبة من كاف التشبيه وأيّ، يعني كأي نبيّ، ولكنها - كما يشهد رسم خطها - انقلبت عن معنى الجزأين إلى ما يقاربهما وهو «كم من بني» مما يبين أن كثيراً من النبيين قاتلوا في سبيل الله وقاتل معهم ربيون كثير.

و﴿رِبِّيُّونَ﴾ جمع «ربي» وهو العالم الرباني، أم مطلق الرباني، وهو أصل عبراني يعني الأمم الربانية المتربية بالتربية الرسالية، و«ربّوني»(١) لغة عبرانية تعني المعلم وهي من الألقاب المعزّزة اليهودية.

والفارق بين السلبيات الثلاث أن الوهن هو ضعف الإرادة والتصميم، ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من جرح وقرح وقتل أو انهزام، فقد واصلوا في قتالهم كمسؤولية شرعية مهما كانت النتيجة الهزيمة الظاهرة، أم وقتل أنبياءهم، إذ هم ميّزوا بين الدعوة والداعية.

---

(١) يوحنا ٢٠: ١٦.

والضعف يعني انكسار القوات الظاهرية، فلم يؤثر ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من مصيبات وهناً في أرواحهم وضعفاً في أجسامهم، فحاربوا في الإصابات كما كانوا يحاربون في غيرها.

ثم ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ من سكن، فالاستكانة هي طلب السكون، تركاً للدعة نتيجة الضراعة والضآلة، فهي السكون أمام العدو ليفعل به ما يريد، دونما حراك في العراك، أم من الكينة وهي الحالة السيئة، كنية سوء وخيبة، فما طلبوا هذه الحالة لهم من عدوهم تخاذلاً أمامه والتجاءً إليه، فليست من الكون، بل هي بين السكون والكينة ولكلّ وجه أدبياً ومعنوياً، ولكن الثاني أصح أم هو الصحيح ولا سيما أدبياً[1].

ولقد حصل كلّ هذه الثلاث لبعض الحاضرين في أُحد، وهناً وضعفاً واستكانة، وهنا يوبّخون على هذه الوقيعة الوقيحة تحريضاً لهم أن يستنوا بسنة الربيين الكثير الذين قاتلوا مع نبيين كثير.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾:

ذلك قولهم وهم على ما هم عليه من صامد الإيمان وثابت الاطمئنان، استغفاراً لذنوب وإسراف لا يخلو عنهما كَلمَم غير من عصمه الله وهم المعصومون بعصمة الله، ثم تثبيتاً لأقدامهم في معارك الكرامة، وانتصاراً على القوم الكافرين.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾:

﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ هو حسنة الدنيا حيث تناسب الآخرة، ثم ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ

---

(١) وجه الأول أنه في الأصل استكن ثم زيد عليه الألف، ولكنه غير وجيه مهما صح معناه بتعمل وتكلف، ووجه الثاني أنه في الأصل استكين فبدلت الياء بالألف فصار استكان.

ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ هو فضل الثواب فوق عدله لأنهم محسنون، فلا بدَّ من الإحسان إليهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

ومن ثواب الدنيا هنا الغنيمة وانشراح الصدر والثناء الجميل وتثبيت الأقدام والنصرة على القوم الكافرين.

ومن لطيف التعبير وعطفه هنا بعد اعترافهم بالإساءة بحضرة الربوبية تطامناً وتذللاً، أنه تعالى سماهم محسنين، حيث الاعتراف بالقصور والتقصير إحسان في حقل العبودية، كما الاستكبار عن ذلك إساءة بحضرة الربوبية، مهما لم تنله سوء ولا أذى.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ
أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ
أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم
بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ
مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ
وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ
أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ
لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ
طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ
يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ
شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى
قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ

ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

لقد طال الحديث حول الهزيمة في أُحد حيث أخذت أبعاداً عميقة في نفوس المسلمين وفي صفوفهم، فإنها كانت الهزيمة الأولى بعد انتصارهم العظيم ببدر وانتظارهم العميم أن يهزموا على طول الخط ولا ينهزموا.

لذلك نرى السياق يستطرد في أخذ المؤمنين بالتأسية تارة وبالاستنكار أخرى، وبالتقرير ثالثة وبالمثل رابعة، وبالتحذير عن الخلفيات المحظورة للهزيمة خامسة وهكذا الأمر.

فهنا ينهى الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا كيلا يرتدوا على أعقابهم فينقلبوا خاسرين، وترى هلّا تكون طاعة الكفار في نفسها انقلاباً على الأعقاب حتى يحذر عنها حذراً عن خلفيتها الانقلاب، ثم وما هي الطاعة المنهية هنا؟.

إنها طاعة في قولة أو فعلة تنجر إلى الارتداد عن صالح العقيدة، كما أن خطوات الشيطان تقدمات للإشراك بالله أو الإلحاد في الله.

والمستفاد من الآيات التالية أنها طاعتهم في اللحوق بهم[1] واللجوء إليهم حتى يأمنوا بأسهم أو ينصروهم ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وطاعتهم فيما أرعبوهم عن أنفسهم وأرغبوهم عن قتالهم:

---

(١) نور الثقلين ١: ٤٠٢ عن المجمع قيل نزلت في المنافقين إذ قالوا للمؤمنين يوم أُحد عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وارجعوا في دينكم عن علي عليه السلام.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ...﴾ وتأثرهم بقالتهم «لو كان محمد رسولاً لم ينهزم».

وعلى أية حال فطاعة الكفار ولا سيما حال الهزيمة العظيمة كهذه، تخلّف رداً على الأعقاب، فلا طاعة إلّا لله ورسوله ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾.

لقد انتهز الكفار - من مشركين ويهود - الفرصة الفريسة في تلك الهزيمة العظيمة القريصة ليثبطوا عزيمة المؤمنين عن مواصلة القتال، ويخوفوهم عاقبة أمرهم مع الرسول المنهزم، وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب وخلخلة الصفوف وزلزلة الإيمان والاطمئنان.

فقد يخيّل إلى ضعفاء النفوس من المؤمنين إمكانية الحفاظ على إيمانهم مع الانسحاب وقتياً إلى الكفار حتى تضع الحرب أوزارها، وذلك وهم كبير خطير، فإنه ارتداد إلى الأعقاب شاؤوا أم أبوا، وإن لم يحسّوه في الخطوة الأولى.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾:

ذلك تأمين لقلوب المؤمنين القريحة عن الهزيمة، وتحريض على مواصلة القتال، وقد رجع أبو سفيان والمشركون بعد أُحد إلى مكة ثم ندموا واعتزموا الرجوع فألقى الله في قلوبهم الرعب فرجعوا إلى مكة فقال النبي ﷺ: «إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب»(١).

(١) الدر المنثور ٢: ٨٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال: قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة... وفيه أخرج ابن جرير عن السدي قال: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق =

ذلك، والقلب الخاوي عن الإيمان، المليء من الشرك، مرعوب أمام القلوب المؤمنة المطمئنة بطبيعة الحال، ما قدّم المؤمنون شرائط الإيمان والتزموا بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾:

ويا له من تعبير قدير نحرير حيث يرسم مشهد الحرب كما هو، فلا يذر حركة في الميدان، ولا خاطرة في النفوس، ولا سمة في الوجوه، ولا خالجة في الضمائر إلّا ويثبتها، وكأن العبارات شريطة تحمل صوت المعركة وصورتها وسيرتها وكل ظاهرة منها أو باطنة.

«ولقد» تأكيد إن اثنان أن ﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ حيث وعدكم أن يمدكم بعد بدر ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[1] شرط أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا.

﴿صَدَقَكُمُ... إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ وهو من الحسّ: إصابة الحس، فقد أصبتموهم بحسهم إذ يرونكم أكثر مما كنتم تحسّباً أنّ الملائكة المسومين منكم، حيث سوموا وعلموا أنفسهم كلّ علائم الجندي المحارب في صفوفكم.

= ثم أنهم ندموا فقالوا: بئسما صنعتم أنكم قتلتموهم حتى لم يبق إلّا الشريد تركتموهم ارجعوا فاستأصلوا فقذف الله في قلوبهم الرعب فانهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جعلاً فقالوا له إن لقيت محمداً فأخبرهم بما قد جمعنا لهم فأخبر الله رسوله ﷺ فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فأنزل الله في ذلك فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وما قذف في قلبه من الرعب فقال: ﴿سَنُلْقِى...﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

وإصابة ثانية هي إبطال حسهم عن بكرته قتلاً، فإن «حسّه» تعني أصاب حسّه وتلك الإصابة المزدوجة هي المعنية من «تحسونهم» دون القتل فقط فإنه صيغته نفسه، ولا الإصابة الأولى فقط فإن صيغتها هي نفسها، بل هو مثنى إصابة الحس قضية بلاغة التعبير ولباقته: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ حيث الإصابتان هما من فعل الله كما وعد، وليست القلة القليلة عدة وعدة مما تأتي بواحدة منهما.

وذلك الحسّ كان مستمراً في أحد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾: ثالوث منحوس من التخلف عن قواعد الحرب وقوائدها.

فلقد ﴿فَشِلْتُمْ﴾ عن مواصلة المقام في مقاعدكم المقررة، ففشلتم عن الحرب ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أمر المقام وأمر القيام ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر الرسول ﷺ وهم أولاء الذين تركوا مقاعدهم إلى اكتساب الغنيمة بعد انهزام العدو ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الانتصار الذي كنتم له بانتظار، والغنيمة المتروكة بعد الانتصار.

وقد تعني ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ - فيما عنت - الانتصار في بدر، كما تعنيه - فيما عنت - ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾.

وما ذلك الفشل والتنازع والعصيان إلّا لأن ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ تاركين المقاعد المقررة إلى الغنيمة، فاغتنمه المشركون فتراجعوا عن هزيمتهم إلى عزيمتهم للانتصار.

ثم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فالأولون انجرفوا إلى ذلك الثالوث المنحوس والآخرون ابتلوا ببلاء الهزيمة ولكنهم ظلّوا صامدين.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ والصرف هنا هو الإبعاد عن مواصلة القتال، وترى كيف ينسب ذلك الصرف إلى الله والانصراف عن قتال العدو محرم في شرعة الله؟.

إن ذلك الصرف هو من فعلهم لما انجرفوا في هوّة الثالوث: فشلاً وتنازعاً وعصياناً، وهو من فعل الله حيث ترك نصرهم بالملائكة المسومين، ووكلهم إلى أنفسهم.

كما إنه - كذلك - صرف جماعة آخرين عن مواصلة القتال لمّا وهنوا وحزنوا بما انهزموا وظنوا بالله الظنونا، صرفاً بصرف، حرفاً بحرف، هنا وهناك جزاءً وفاقاً.

﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ لأنكم انصرفتم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾(١) - ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْۖ﴾ امتهاناً للمتخلّفين وامتحاناً للصامدين ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ﴾ بعدما ويخكم لأنكم كنتم مقاتلين في سبيل الله مهما أخطأتم فإنكم - بعد - مؤمنون ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾:

صرفكم ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ ليبتليكم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ وعفى عنكم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ فـ ﴿إِذْ﴾ تتعلق بكل هذه الثلاث توافقاً لأدب اللفظ والمعنى.

والإصعاد خلاف الصعود كما الإضراب خلاف الضرب، فهو الانصراف والذهاب بعيداً - هنا - عن المعركة فراراً دون قرار، لا سيما وهم زاعمون أن الرسول ﷺ قتيل.

﴿تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ من اللّي: الالتفات، وهنا الالتفات على أحد دون «إلى أحد» لتعني خلاف اللفتة الحربية، فهم حين

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

الذهاب لم يلتفتوا على أحد من المشركين ليواصلوا في قتالهم فإنما أدبروا إدباراً وفراراً.

ذلك «و» الحال أن ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ إذ كان يلاحقكم منبهاً أنه حي قائلاً: «إلي عباد الله ارجعوا إليّ عباد الله ارجعوا»[1]، ولأنه لم يصعد ما صعدوا فهو - إذاً - في أخراهم من جهتين.

وقد تلمح «فأثابكم» أنهم استجابوا له فرجعوا - وكما في الأثر - وقالوا: والله لنأتينهم ثم لنقتلنهم فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً فإنما أصابكم الذي أصابكم من أجل أنكم عصيتموني»[2]، ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ...﴾ وترى ما هو الغم المثاب به، ثم ما هو المبدل عنه؟.

الأمر الذي لا بدّ منه في الغم الأوّل أنه هو الغم الثواب الصواب حيث يخلّف سلب الحزن على ما فاتكم وما أصابكم، فتراه الندم على ما فشلوا وتنازعوا في الأمر وعصوا الرسول ﷺ؟ وليس الندم وحده هو الذي يزيل الحزن على الفائتة والمصيبة وإن كان يخففه!.

ولكن المبدل عنه وهو بطبيعة الحال غم قتال الرسول ﷺ هو الذي يجاوب الندم على ما كان، تناصراً في إزالة الحزن، مهما كان بضمنه غم الهزيمة وانفلات الغنيمة.

فالغم الثاني هو انفلات الغنيمة والهزيمة العظيمة والإصابة الفادحة،

---

(١) الدر المنثور ٢: ٨٧ عن ابن عباس قال صعدوا في أُحد فرأوا الرسول ﷺ يدعوهم في أخراهم.

(٢) المصدر أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ في أخراكم فرجعوا وقالوا... فبينما هم كذلك إذا أتاهم القوم وقد أيسوا واخترطوا سيوفهم فأثابكم غماً بغم فكان غم الهزيمة وغمهم حين أتوهم ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ...﴾.

أقول: تفسير الغمين بهذين خلاف الإثابة في الغم الأول فلا يصغى إليه، والحق هو الذي استفدناه من الآية.

وكل ذلك أمام غم الرسول الإمام لا يحسب بشيء، فلقد تناسوا الحزن على ما فاتهم وما أصابهم لما علموا أن الرسول ﷺ حي بعد، فلهم رجاء استمرارية النضال وجبر كلّ انكسار في تلك الهزيمة.

إن الحزن على كلّ فائتة صالحة ومصيبة فادحة، هو طبيعة الحال للإنسان أيّاً كان، ولأن ذلك كتاب وليس ليخطأ المصاب - سواء أكان بفعل الله فقط أم وبما قدمته نفسه - فلا دور للحزن عليه فـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ ﴿... لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ...﴾[(١)].

ولكن غم الأسى على ما مضى من الفشل والتنازع في الأمر وعصيان الرسول ﷺ التي خلّفت فوت الغنيمة والنصرة وفادح الإصابة، ذلك الغم المقارن باستبشار حياة الرسول ﷺ مما يزيل وينسي كلّ «ما فاتكم وما أصابكم».

فالغم الأول بديلاً عن الثاني ومسبباً عنه[(٢)] مع ذلك الاستبشار يحقق تلك السلبية الصالحة: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ﴾ فكل نقمة أمام هذه النعمة منفية مطفية، فإن حياة الرسول ﷺ هي فوق كلّ غنيمة ونصرة.

إذاً ﴿فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ تعني - بصورة مختصرة - غماً هو الندم على ما قصرتم وزعمتم وظننتم، بغم هو زعم انتقال الرسول ﷺ وواقع الهزيمة وانقطاع الغنيمة، وما أعمقه ندماً على ما قصّروا والرسول ﷺ حي وهم يزعمون أنه قد قتل ففشلوا وأصعدوا، حتى أدركهم في أخراهم وهو يناديهم: «إليّ عباد الله ارجعوا...».

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) حيث تتحمل الباء كلا البدلية والسببية، فكما أن الغم الأول بدل عن الثاني، كذلك هو سبب عنه إلّا في غم انتقال الرسول ﷺ.

ويا لها من إثابة مصيبة دورها في تناسي كلّ حزن ومصيبة، كما وأن فتح مكة المكرمة أنسى كلّ المآسي السابقة عليه واللاحقة به، فأين ذلك الفتح المبين، وتلكم المآسي بحق الرسول الأمين ﷺ.

أجل ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا﴾ هو الثواب الصواب بعد الهزيمة وحين الإصعاد، ذلك الغم المنبه المريح بعد التأكد من حياة الرسول ﷺ سكوناً نفسياً بعد الاستكانة حيث تابوا إلى ربهم وثابوا إلى نبيهم، ومن ثم شملهم نعاس لطيف فيه خلاص عما تعبوا:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ...﴾:

هنا انقسم الذين مع الرسول ﷺ إلى قسمين طائفة الفضيلة: ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ وطائفة الرذيلة: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ...﴾. فالطائفة المغشوة بالأمنة النعاس بعد إثابة الغم، هم المثابون بالغم المصيبون في أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم بعد إثابة الغم، حيث تابوا وثابوا، وقبلهم الذين صمدوا دون أي تقصير، وثالث هم الطائفة الثانية في هذا العرض: ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ...﴾ لا نفس الرسول ﷺ ولا نفيس دعوة الرسول ﷺ، فإنما ﴿أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾[1].

و﴿أَمَنَةٗ﴾ هي الأمن ذي الحراك، تعني حالة آمنة مطمئنة، و﴿نُّعَاسٗا﴾

(١) الدر المنثور ٢: ٨٧ - أخرج ابن جرير عن السدي أن المشركين انصرفوا يوم أُحد بعد الذي كان من أمرهم وأمر المسلمين فواعدوا النبي ﷺ بدراً من قابل فقال لهم نعم فتخوف المسلمون أن ينزلوا المدينة فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فقال انظر فإن رأيتهم قد قعدوا على أثقالهم وجنبوا خيولهم فإن القوم ذاهبون وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم وجنبوا أثقالهم فإن القوم ينزلون المدينة فاتقوا الله واصبروا ووطنهم على القتال فلما أبصرهم الرسول قعدوا على الأثقال سراعاً عجالاً نادى بأعلى صوته بذهابهم فلما رأى المؤمنون ذلك صدقوا نبيّ الله فناموا وبقي أناس من المنافقين يظنون أن القوم يأتونهم فقال الله يذكر حين أخبرهم النبي ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ...﴾.

هي بدل عن «أمنة» أو عطف بيان أم صفة، وهي على أية حال تضيق دائرة الأمنة بالنعاس والنعاس بالأمنة، فقد ينعس الإنسان دون أمن نعاساً من شدة الفتور والمرض، ولكنه نعاس يؤمّن.

فالنعاس ظاهرة باهرة من رحمات الله، فحين يلمّ بالمجهدين المرهقين المفزعين وإن لحظة واحدة يفعل في كيانهم فعل المعجزة حيث يردهم إلى حياة جديدة، ويسكب في قلوبهم الأمنة وفي كيانهم الراحة[1].

وهنا تتقدم ﴿أَمَنَةً﴾ على ﴿نُّعَاسًا﴾ وفي بدر يتعاكسان: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[2] وأين أمنة من أمنة ونعاس من نعاس، طالما يتشاركان في نازل النعمة الربانية رحمة على المسلمين.

ولقد غشاهم - كلهم - النعاس أمنة منه يوم بدر، وتفرقوا في أُحد إلى ثلاث: منهم من نعس دون تغشية وهو السنة قبل النوم، وآخرون بتغشية هي كامل النوم، ف ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ تعني أن الأخرى نعست دون تغشية، وثالثة لم تنعس وهي التي ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

ثم «وطائفة» هنا مبتدأ خبره «يظنون» ووصفه ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فهم خارجون عن النعاس وغشيانه.

أترى هذه الطائفة الأخيرة هي من المؤمنين؟ وقد ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ لا رسول الله ولا شرعة الله! ثم المواصفات التالية لا تناسب صادق الإيمان ولا أصله!.

أم هم المنافقون أصحاب عبد الله بن أبي الذين تخلفوا عن حرب أُحد

---

(١) روى الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد بن أبي سلمة عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد وجعلت انظر وما منهم يومئذ أحد إلّا يميل تحت جحفته.
وفي لفظ آخر عن أبي طلحة: خشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١١.

منذ البداية؟ وهم ليس بمغفور لهم ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1]! وإنما ذكروا بعد في ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[2] وتلك الطائفة قد شاركت في القتال مهما تخلفت قبل الهزيمة وفشلت بعدها وكما تؤيده ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾ و﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ...﴾. وأصحاب ابن أبي رجعوا إلى المدينة قبل الحرب فكانوا في بيوتهم عندها، فلا تصدق في حقهم الآيتان.

فهم إذاً ضعفاء الإيمان، لا مؤمنون تماماً ولا منافقون تماماً، بل هم عوان بينهما، طائفة متزعزعة الإيمان حيث شغلتهم أنفسهم وأهمتهم إذ لم يتخلصوا بعد من تصورات الجاهلية وهم مؤمنون، وليس إنهم تخلوا من الله عن أوليائه لأعدائه، ولا قضاء منه سبحانه عليهم بالكفر والنفاق، وإلا لم يشاركوا في النضال.

إنهم بعد في قلق وتأرجف، يحسون أنهم ضائعون فيما هم يجهلون، فيظنون بالله غير الحق أنهم مندفعون في هذه المعركة الصاخبة اندفاعاً دونما تصميم واضح ولا هدف صالح إذ لم ينصرهم الله فانهزموا أذلة صغاراً.

وهنا مواصفات لهذه الطائفة تقرر موقفها العوان:

١ - ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فهم مهما دخلوا في معارك الشرف والكرامة ولهم حظ من الإيمان ولكنهم عند البلية ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حفاظاً عليها وجلباً لمصلحياتها النفسية، فلا يدينون دين الحق إلّا لأنفسهم لأنه عامل غير مغلوب، يدورون معه ما درت عليه معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

٢ - ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ والظن بالحق المطلق غير الحق هو من أنحس الظن وأتعسه، وهو ظن الجاهلية الناكرة لوحدة الربوبية، ظناً أنها مقسمة بين أرباب عدة، فلنا إذاً من الأمر شيء!.

٣ - ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أمر التشريع وأمر الشرعة وأمر التكوين، ومن الأخير أمر الغلبة كما من الثاني أمر الحق، وإذا كان لنا كمسلمين من أمر الغلبة شيء فلماذا الهزيمة الفادحة؟ وإذا كنا على الحق فلماذا غلب الباطل علينا؟ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فإذا ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] وأنت رسول، فبأحرى ليس لهم من الأمر شيء وهم متخلفون عن أمر الرسول ﷺ، وفي استئصال الأمر عنهم كلهم لله دليل على المعني من الأمر هنا أنه أمر الله، فلا بدّ وأن يشركنا الله به في بعض أمره ومنه الغلبة على أعدائه، فـ «هل لنا» اعتراض على فاعلية الإيمان، كأنه لا فاعلية له فالمؤمن وسواه سواء في الغلبة وسواها، فإنما لكلّ أسبابه المتعوّدة دون نصرة من الله خاصة لقبيل الايمان!.

فـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ إجابة عن هذه الجهالة الفاتكة وإيكال للأمور الخاصة بالله إلى الله، ثم الله ينصر المؤمنين إن أقاموا شرائط الإيمان، وحين يصبح الإيمان في هوّة السقوط أمام اللّايمان، والمؤمنون موفون بشرائط الإيمان فقد ينصرهم الله كما نصرهم في بدر وهم أذلة.

٤ - ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ونحن قد نبديه لك لتعرفهم وهو:

٥ - ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ و«هل لنا...». استفهام إنكار في مظهر الشك، ولكنهم يخفون ﴿لَوْ كَانَ لَنَا﴾ حيث أحالوا أن لهم ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

وقد يعنون بالأمر هنا أمر الانتصار أو الحق أو تحقيق وعد الله ناكرين أنه لهم خلاف ما وعد الله، و﴿مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ قد تعني ما وقعنا في موقف القتل بعد الهزيمة، حيث القتيل ليس له هكذا قول، أم وتعني ما قتل من قتل منّا وقد قتلوا، والجواب:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ...﴾ فليس القتل صدفة عمياء وفوضى جزاف، إنما هو مكتوب كما الموت، يحصلان عند أجلهما شئت أم أبيت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ...﴾[(١)].

أجل، وإن القتال في سبيل الله لا يعجّل أجلاً، كما الفرار من الزحف أو عدم المشاركة فيها لا يؤجل عجلاً، فالأجل بمحتومه ومعلّقه مكتوب عند الله، وليس لنا أو علينا إلّا المضي في طاعة الله مهما كلف الأمر.

فالحذر في غير الصواب لا يدفع القدر، والتدبير فيه لا يقاوم التقدير، فالذين كتب عليهم القتل أو الموت لا بدّ لهم أن يقتلوا أو يموتوا على أية حال في الوقت المقدر لهما.

وهنا سؤال يفرض نفسه هو أنه لو انحصر الموت بإذن الله دون تدخل للأسباب المقدمة له منا، فلا علينا أن نتعرض لأسباب الموت والقتل على أية حال، وليس القاتل - إذاً - إلّا عاملاً من عمال الله في إذنه للموت؟.

والجواب أن الأجل بين محتوم ومعلّق، ولا مرد للمحتوم سواء خرجت من بيتك في سبيل الحق أو الباطل، فقد يأتيك الأجل المقرر.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

فالتارك للقتال خوفة عن القتل ليس يتركه الأجل المحتوم بتركه وسواه.

وأما الأجل المعلق، فقد يعلق على محظور محذور كالأسباب المحرمة للموت فحذار حذار منها، فإن مات بذلك الأجل فبتقصيره تكليفاً وإذن الله تكويناً، وقد لا يأذن فلا يموت، أو يعلق على سبب مشكور فبتطبيقه واجبه أمام الله وبإذن الله، وقد لا يأذن فلا يموت.

فالموت بأجل معلق على تشريع الله وتكوينه موت محبور حيث أذن الله كالقتيل في سبيل الله، وهو معلقاً على أجل في التكوين دون التشريع محظور إذا كان باختياره، وهو لا محبور ولا محظور إذا لم يكن باختياره.

ففي ملتقى المشيئتين الإلهيتين للموت هو مشكور وصاحبه شهيد، وفي مفترقهما أن يموت دون إذن في شرعة الله فليس مشكوراً وهو محظور إن أقدم عليه بعلم واختيار.

وترى ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ كتابة شرعية؟ وقتل المؤمن في الجهاد هو فعل الكافر فكيف كتب؟ إنها كتابة تكوينية بما يعلم الله أن نفوساً يموتون عند أجلهم قتلى، ولا تنافي هذه الكتابة في علم الله وتقديره اختيار المتقاتلين في القتال، فلا القاتل مسيّر ولا المقتول، بل هما مخيران في أسباب القتل وإنما الموت المسبب عنه بيد الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، وهو كتابة شرعية حيث أمر الله، فالشهادة هي مجمع الكتابتين.

ذلك - ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ في هذه المعارك المكتوبة عليكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

فليس كالمحنة محك يبتلى بها ما في الصدور ويمحّص ويصهّر ما في القلوب، فتنفي عنها الزيف والرياء، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء ولا أي خفاء، وهذا هو حق التصحيح للتصوّر فلا يبقى فيه غبش ولا خلل ولا أية علل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾:

المتولون هنا هم الرماة العصاة الذين تركوا مقاعد القتال التي قررها عليهم رسول الله ﷺ أم وأضرابهم[١]، لا والمنافقون فإنهم انحازوا قبل التقاء الجمعين، فهم أولاء الموصوفون في آية مضت وأضرابها، فلم يكونوا هم من المنافقين المعاندين ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ﴾ في معركة نفسية، فتخلوا في معركة الميدان، فلذلك ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ إذ لم يكونوا معاندين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، يغفر ويحلم ما له موضع صالح، والمؤمن مهما أخطأ ببعض ما كسب فاستزله الشيطان، فهو بعد مؤمن، ليس كافراً ولا منافقاً معاندين، وكما يخاطبون في آيات تالية بخطاب الإيمان.

وهذه ضابطة ثابتة أن كلّ زلة تخلّف زلة أخرى إلّا أن يتاب عنها، فمكاسب السوء غير المنجبرة بالتوبة تستزل أصحابها في أضرابها، وبأسوأ وأنكى.

ولعلّ من بعض ما كسبوا هنا ما جال في نفوسهم أن رسول الله ﷺ قد يحرمهم أنصبتهم من الغنيمة فاستزلهم الشيطان بهذه الزلة التي كسبوها، فعصوا الرسول ﷺ وتركوا مقاعدهم[٢].

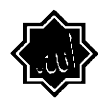
---

(١) نور الثقلين ١: ٤٠٣ في تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فهو عقبة بن عثمان وعثمان بن سعيد، وفيه عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هم أصحاب العقبة.

(٢) الدر المنثور ٢: ٨٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أن الذين تولوا منكم - يعني انصرفوا عن القتال منهزمين يوم التقى الجمعان يوم أحد حين التقى الجمعان جمع المسلمين وجمع المشركين فانهزم المسلمون عن النبي ﷺ وبقي في ثمانية عشر رجلاً إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا يعني حين تركوا المركز وعصوا أمر رسول الله ﷺ حين قال للرماة يوم أحد لا تبرحوا مكانكم فترك بعضهم المركز ولقد عفا الله عنهم حين لم يعاقبهم =

ذلك ولكن الآية تصور صورة دائمة للنفس البشرية حين ارتكاب الخطيئة أنها تفقد ثقتها في قوتها ويختل توازنها وتماسكها فتصبح عرضة لكل عارض من الوساوس والهواجس وعندئذ يجد الشيطان سبيله إلى هذه النفس الفاترة، فيقودها إلى زلة بعد زلة، حتى ينقطع بهم في تيه الضلالة ومتاهة الغواية.

وإنما ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ هنا زلتهم بعد زلة لأنهم بعد مؤمنون مهما أخطأوا، وتاركون لقسم كبير من الكبائر وهم في خضمّ القتال في سبيل الله: فـ ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[1].



= فيستأصلهم جميعاً إن الله غفور حليم فلم يجعل لمن انهزم يوم أحد بعد قتال بدر النار كما فعل بدر فهذه رخصة بعد التشديد.

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾

هذه الآيات هي سنادات أخرى بعدما قدمنا هنا، على أن ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ...﴾[1] و﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾[2] هم كانوا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥. (٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

من المؤمنين لا المنافقين، فالمنافق لا يخاطب أبداً بخطاب الإيمان، وقد يخاطب بخطاب الكفر، إذ هو كافر في قلبه مهما كان مسلماً بلسانه فليس من المؤمنين.

والمنافق لا يشاور بحضرة الرسالة وقد أمر الرسول ﷺ أن يشاورهم ضمن سائر المؤمنين فإن ﴿لِنتَ لَهُمۡ﴾ ليس إلّا وجاه من خالف وتخلّف عن أمر الرسول ﷺ، كما و«هم درجات» يجعلهم كلهم في كتلة الإيمان، وليس المنافق في أية درجة من درجات الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةً فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾:

هنا ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعم المنافقين إلى الكفار الرسميين، فيشمل قول عبد الله بن أبي سلول والمنافقين الذين انحازوا معه يوم أحد قبل الحرب، إلى قول المشركين وسائر الكافرين، فذلك الثالوث من الكفر المنحوس له هذه القولة القائلة: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ...﴾.

ويكأن عندهم أماناً عن مضيّ تقدير الله، منعة عن الموت المقدر أم قتله؟ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾(١)! هنا.

﴿ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حيث تقابل ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزًّى﴾ تختص بالسفر في غير الجهاد، مهما اختص أحياناً أخرى بسفر الجهاد كـ ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾(٢) إذاً فالضرب في الأرض هو مطلق السفر أم مطلق سفر الخوف في جهاد وسواه، و﴿أَوۡ كَانُواْ غُزًّى﴾ مطلق الجهاد في سفر أو حضر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠١.

فليس الضرب في الأرض أي سفر، إنما هو الإنجاد في السير والإيغال في الأرض، تشبيهاً للخابط في البر بالسابح في البحر لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقاً لها واستعانة على قطعها.

إذاً فهو السفر الشاق في غزو كان أم في تجارة، دون الأسفار المريحة التي ليست فيها أية صعوبة نفسية أو جسدية، فإنها يعبر عنها بالسفر.

ثم «ما ماتُوا» تختص بـ ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾ بـ ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ مما يدل على اختلاف الموت عن القتل.

فهل هما متباينان، فالقتيل غير الميت والميت غير القتيل؟[1] أم بينهما عموم مطلق، فكل قتيل ميت وليس كلّ ميت قتيلاً؟ لكلّ وجه، وقد يساعد الأوّل أن القتيل إن كان في سبيل الله رجع يوم الرجعة ليموت، وإن كان في غير سبيل الله رجع كذلك وكما في المستفيضة: «يرجع من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً».

ولكنه يبقى السؤال بالنسبة لمن يقتل خارجاً عن السبيلين كاصطدام السيارة أم السقوط عن الطائرة أو غرق الباخرة أما شابه، فمهما كان في هؤلاء من محّض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً ولكن بينهما منهم عوان وهم الأكثرية الساحقة.

ثم الموت لا يعني إلّا خروج النفس عن البدن بأي سبب كان، فإنما

---

(١) نور الثقلين ١: ٤٠٢ في تفسير العياشي عن زرارة قال: كرهت أن أسأل أبا جعفر عليه السلام عن الرجعة واستخفيت ذلك، قلت لأسألن مسألة لطيفة أبلغ فيها حاجتي فقلت: أخبرني عمن قتل أو مات؟ قال: لا - الموت موت والقتل قتل، قلت: ما أحد يقتل إلّا وقد مات؟ فقال: قول الله أصدق من قولك فرق بينهما في القرآن فقال: ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ وقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٨] ليس كما قلت يا زرارة، الموت موت والقتل قتل، قلت: فإن الله يقول: كل نفس ذائقة الموت؟ قال: من قتل لم يذق الموت ثم قال: لا بدّ من أن يرجع حتى يذوق الموت.

اشتهر في غير السبب الظاهر للموت بالموت، وفي الظاهر بالصلب والغرق والحرق والقتل وما أشبه، ومن ثم ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ إنما تصلح جواباً عن ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ إذا عم «يميت» كلا الموت والقتل، فطالما الموت لازم لا يشمل القتل لتعديه ولكنه يشمله اعتباراً بحاصل القتل وهو الموت وليس إلّا بإذن الله.

بل والموت على لزومه يشمل القتل على تعدّيه اعتباراً بالحاصل عنهما وتصديق ذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾[١] حيث المورد هنا هو القتل المعني بالموت، فلا تعني مقابلة الموت بالقتل تباينهما كلياً بل هو عموم مطلق.

ثم ﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ هل تعني إخوانهم في النسب؟ وهذه القولة لا تختصهم مهما كانت لهم أنسب، أم لإخوانهم في الدين وهم الكافرون الذين ماتوا أو قتلوا، قولة غائلة تثبط عن كلّ ضرب في الأرض أم قتال، فيهما خوف الموت أو القتل، تجميداً للحياة الحركية في سبيل المصالح الهامة المعنية لكمال الإنسان؟.

قد تعني «إخوانهم» كلّ من لهم بهم صلة الأخوة نسبية أو سببية أماهية، قولاً يعني الميت والقتلى من المسلمين الذين كانوا من قبل كافرين، يقولونها لهم تجميداً عن كلّ حراك صالح في سبيل الحق ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا﴾ مشاركين معنا في الكفر أو مسلمين ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ كما ويعني الميت والقتلى من أنفسهم، تحسراً على ما أصابهم في القتال، مهما كانت مفروضة عليهم حفاظاً على ضفة الكفر.

وترى كيف ﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ وهم ميت أو قتلى؟ علّهم قالوها قبل ضربهم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٣.

في الأرض أو غزوهم، وكما قالوا لهم - أي: لأجلهم، بعدما ما ماتوا أو قتلوا كما ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[1] والجمع أجمل وأجمع وأوسع لهذه الدعاية المجمدة للطاقات، بثاً لهذه الدعاية في صفوف المجاهدين في خطوط النار، ولكي يربحوا الحرب لأنفسهم.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ - ﴿لَا تَكُونُواْ . . . لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ فحين لا تؤثر فيكم تلك الدعاية الكافرة فتتدفقون إلى الجهاد، أصبح ذلك حسرة في قلوبهم.

﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ . . . لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ فإنهم متحسرون بموت أو قتل إخوانهم في الكفر، حيث يخيّل إليهم ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾.

فـ ﴿لِيَجْعَلَ﴾ في الأوّل غاية معلومة مقصودة «لا تكونوا ليجعل» وفي الثاني غير مقصودة ولا معلومة لهم، فإنما هي غاية ثابتة مهما لم يشعروها كما في ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[2] والمعنيان معنيّان فإنهما لهم عانيان حسرة على حسرة في تلك القالة الغائلة، فحين يسمع أقارب هؤلاء الميت والقتلى الكافرون هذه القالة يتحسرون كما القائلون.

وحين يذيعون هذه الشبهة بين المسلمين فلا يجدون لها موضعاً عند أقويائهم بسناد إيمانهم، ولا عند ضعفائهم حيث نهاهم الله عن هذه القولة، فهم يتحسرون أن خاب كيدهم وغاب ميدهم عن كتلة الإيمان.

ثم ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ تأكيد على حصر الإماتة كما الإحياء بحضرة الربوبية فـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾.

وهنا «قالوا . . .» من الفوارق الرئيسة بين ضفّة الإيمان والكفر، فلا

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١١.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨.

يرى المؤمن في نضاله إلّا إحدى الحسنيين، والكافر متحسر في موته أو قتله إذ لا مولى له ولا رجاء إلّا هذه الدنيّة.

فالمؤمن الصالح مدرك لسنن الله، متعرّف إلى مشيئة الله، متعرّق في حب الله والثقة بالله، عارف أنه لن يصيبه في سبيل الله إلّا ما كتب الله، وأن ما أصابه فيها لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يتلقى الضراء بالجزع ولا السرّاء بالزهو والهلع.

وعارف أن مجال التقدير والتدبير والرأي والشورى، كلّ ذلك قبل الإقدام، فإذا أقدم في حدود علمه وصالحه ومسؤوليته المحمّلة عليه استسلم لكل الخلفيّات، عارفاً أنها مقضيّة له في كتاب ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ... لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1].

ويا له من توازن بين الكدح والسعي، والتسليم أمام الواقع الممضاة من الله، فهو يعيش بين الإيجابية والتوكل فيستقيم عليه خطوه ويستريح عليه ضميره.

ذلك - وأما الفارغ قلبه من هذه المعرفة والطمأنينة، فهو يعيش مستطاراً قلقاً فلقاً، فهو عشير «لو - لولا - يا ليت وواأسفاه» ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾! فهم يعيشون حسرة على أية حال، حسرة أن لم يضربوا في الأرض أو لم يغزوا فيخسروا التجارة والحرب، وحسرة أن ضربوا وغزوا ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾.

ففي حين يعيش المؤمنون المجاهدون إحدى الحسينين، هم عائشون أحدى السوأتين.

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

إنما الأصل هو الفناء ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قتلاً أو موتاً، فمن يعيش هذه السبيل ويحقق مسؤولياته تجاه الله فـ ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، ولا فارق - إذاً - بين القتل والموت، إذا كانا في سبيل الله، ولا تقدّم لقتل على موت أو لموت على قتل إلّا ما يتقدم منهما على صاحبه في سبيل الله فيقدّم صاحبه - ميتاً أو قتيلاً - في سبيل الله.

ولكي نعرف تلك المساواة تتقدم «متم» بعدما تأخرت عن «قتلتم» تأشيراً إلى أن الأصل فيهما هو سبيل الله، وقضاء النحب موتاً أو قتلاً في هذه السبيل.

فإذا الموت كائن لا محالة فموت في سبيل الله أو قتل خير - لو علموا واتقوا - مما يجمعون من الدنيا التي لها يتأخرون عن الجهاد تخوّف الموت والقتل لما جمعوا من زهيد الدنيا ووهيدها زهادة في الآخرة.

والمجاهد في سبيل الله تشمله مغفرة الله ورحمة الله سواء أمات على فراشه، أم ضارباً في الأرض لمعاشه، أم قتلاً في ميادين الشرف والكرامة، فمسيرهم كلهم واحد، كما مصيرهم إلى الله الواحد: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(١).

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾:

لقد لأن الرسول ﷺ لهم أولاء الذين عصوه في حرب أحد بما ألانه الله

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

ورحمه، وهنا عرض موجز عن ذلك اللين المكين المتين مع ضعفاء المؤمنين، دون المنافقين الذين لا يعرفون ليناً ولا يُعرف في شرعة الحق لهم لين.

وترى ماذا تعني «ما» في ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾؟ هل هي زائدة كما يتقولون؟

والزائدة بلا فائدة بائدة في القرآن العظيم!.

أظنها استفهامية في موضع العجاب: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾ حيث الموقف كان يتطلب أعلى قمم الرحمة الربانية، فكما أن ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ - وهم من عرفناهم - يقتضي غاية الرحمة واللين، فكذلك الرحمة الرسالية مع هؤلاء العصاة الذين هزموا صالح المؤمنين في المعركة وجاؤوا بالبوار والخسار.

وتلك الرحمة العالية كانت لزاماً لتلك الرسالة الغالية، كما أن «ولو» تحيل سلبها عنه إلى الفظاظة وغلظة القلب.

وترى إحالة الفظاظة وغلظة القلب بالنسبة للعصاة المجاهيل لا تحيلهما بالنسبة للمؤمن الضرير الفقير الذي يستقرأ الرسول ﷺ آيات من الذكر الحكيم، كما افتري عليه ﷺ في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[1] وقد فصلنا البحث حولها ذوداً عن ساحة الرسالة القدسية تلك الوصمة الغاشمة.

فمن الشروط الرئيسة لصالح الرسالة ولا سيما هذه الأخيرة الجامعة العالمية، أن تكون لها جاذبية شاملة تجذب من بالإمكان أن ينجذب إليها فيهتدي، فضلاً عمن آمن ولمّا يكمل إيمانه.

ومن الصعب جداً كمستحيل أن يلين القائد مع جيش يتحمس للخروج في البداية ثم يضطرب ويخالف عن أمره ويضعف أمام إغراء الغنيمة وأمام

(١) سورة عبس، الآية: ١.

إشاعة مقتل القائد وينقلب على عقبيه مهزوماً هزيلاً ذليلاً، ويتركه ﷺ مع قلّة قليلة يثخن بالجراح وهو يدعوهم في أخراهم، وهو مع كلّ ذلك لا يفزّ ولا يفظّ عليهم، ولا بشطر كلمة فظة أو عملية رثّة بذة، بل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] والعظيم عند الله هو إله العظمة - لو صح التعبير -!

فليس ذلك إلّا أن أدركته الرحمة العاصمة الربانية كما أدركته العصمة الرسالية فلان معهم بكل لطف وحنان، فما من أحد رآه أو عاشره إلّا امتلأ قلبه بحبه لما كان يفيض من نفسه الرحيمة الرحيبة، رغم كونها رهيبة، وقد تعني «فظاً» مقرونة بـ ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾، الفظاظة في مظاهر الأقوال والأفعال، وغلظة القلب هي الفظاظة في الجوانح، فما من أحد يغلظ قلبه إلّا وقد تفلت منه الفظاظة مهما راقب ودائب، فلا بدَّ للداعية أن يكون لين الجوارح والجوانح.

ذلك! ومع كلّ هذه يأمره الله تعالى هنا بمزيد اللين والرحمة بمثلث من زائد العناية:

١ - ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ ما عصوك كقائد رسالي، واصفح متجاوزاً عما فعلوا وافتعلوا وفتكوا وهتكوا، ولكنما العفو من جانب الرسول ﷺ ليس ليكفي غفرهم من جانب الله لأنهم عصوا الله في عصيان الرسول، فليس ذلك حقاً شخصياً يعفو عنه صاحبه فيعفى عنه، بل هو بين المرسل والرسول، ولذلك:

٢ - ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الله، أن يغفر لهم ما سلف، ويستر عنهم ما يأتي ويهجم من عصيان، فقد لا يستغفرون الله ظناً منهم أن عفوك عنهم كاف، أم تساهلاً وتماحلاً فيه، أم لأن استغفارهم لا يكفيه، إذاً ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١).

ثم ولا فحسب اللين والعفو والاستغفار، بل:

٣ - ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ كأنهم أولاء في محتدك في معرفة الأمر، تشويقاً لهم إلى كامل الإيمان، حيث تجعلهم - وهم عصاة - في حساب شورى الأمر، و«الأمر» هنا أخص من الأمر في ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(٢) فإن أمر الأحكام الشرعية زمن الرسول ﷺ لا يدخل في نطاق الشورى لأن أمرها بوحي الله فإنه الشارع لا سواه، فإنما هو الأمور الزمنية التي لا نصّ فيها قطعياً، فإن أمرها راجع إلى ولي الأمر وهو الرسول ﷺ، ولكنه يؤمر هنا أن يشاورهم في هذه الأمور لمصلحة راجعة إلى الأمة على مدار الزمن.

ثم وليس أمر انتصاب خلافة الإسلام - مهما كان من أهم الأمور الإسلامية - ليس داخلاً في نطاق ذلك الأمر، ومثلث الأمر إمرة وسياسة وأحكاماً مشمولة لـ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لأنهم في غياب الوحي الرسالي فلا بدّ لهم من الشورى في كافة الأمور المشتبهة كما فصلناها على ضوء آية الشورى.

ذلك رغم ما سبق قبل قليل من شورة معهم في مرة خطيرة مرة أنشأت فتا في عضد الوحدة، إذ رأت مجموعة - من جرّاء الشورى ومخالفة رأيهم - أن تنسحب عن الحرب كلياً، وتحمّست أخرى للخروج، فكان من حق القيادة الرسالية أن تنبذ الشورى معهم عن بكرتها بعد المعركة، التي أعطت درساً كاملاً أن صالح الرأي - فقط - هو ما يراه الرسول ﷺ.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

ولكن الإسلام - وهو ينشئ أمة خالدة ويعدها لقيادة البشرية - عليه أن يجعل مبدأ الشورى أصلاً يرتكن عليه في كلّ شاردة وواردة، وكل خالجة وخارجة.

وهذه الآية نصّ قاطع لأمر دلّه أن الشورى مبدأ رئيسي لا يقوم نظام الإسلام في قيادتيه الزمنية والروحية إلّا عليها.

صحيح أن الرسول المتلقي عن الله ليس ليحتاج إلى شوراهم، كما وأن ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تنهي صالح الرأي فيها إليه نفسه ﷺ، ولكنّما الشورى من القائد قد تشير المقود تدريباً له كما قد تشير القائد إلى ما يغفل عنه، ومشاورة الرسول إياهم لا تعني إلّا تدريبهم وإيصالهم بالوحي الرسالي إلى صالح الأمر، «أما إن الله ورسوله غنيان عنها ولكن جعلها الله رحمة لأمتي فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ومن تركها لم يعدم غياً»[1] فـ «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار»[2].

ذلك! فقد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده فيكون ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ كما فصلناه على ضوء آية الشورى مشبعاً فلا نعيده هنا.

لقد أمر الله رسوله ﷺ أن يشاورهم في الأمر - المختلف فيه - وهو يأتيه وحي السماء، لأنه أطيب لنفوسهم حيث تكبر عند مشاورته، بأنه يهتم بهم كأنهم مشاركوه في رسالته.

كما ولم يؤمر بمشاورة العابد من أمته، بل مشاورة هؤلاء العصاة المجاهيل، مما يبرهن على مغزى تلك المشاورة أنها فقط لصالح الأمة

---

(١) الدر المنثور ٢: ٩٠ - أخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب بسند حسن عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] قال رسول الله ﷺ: أما..

(٢) المصدر أخرج الطبراني في الأوسط عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: ...

تدرباً وتعرفاً إلى هامة الأمور بإعمال العقل والتفكير، دون صالح الرسول ﷺ إلّا بلاغاً شيّقاً لرسالته حيث يعد أمته في عداد رسالته وأداتها.

ومما يبرهن على ذلك «وشاورهم» دون «تشاور وإياهم» حيث الثاني تشاور وتفاعل بين جانبين دون فضل لأحدهما على الآخر، ولكن «شاورهم» تجعل المشاور هو البادئ، لا لحاجة منه إليهم - دونهم إليه - حيث العقلية الكاملة للرسول ﷺ قبل رسالته كانت أكمل منهم كلهم كما كانوا يعترفون، فضلاً عما بعد رسالته، بل لحاجتهم إليه أن يتدربوا في غوامض الأمور كيف يتشاوروا.

ثم ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ دون «عزم أكثرهم» دليل آخر على أصالته في أمر الشورى دونهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الذي أوحى إليك صائب الأمر، ولا تخف من يخالفك في الأمر، فإن أمره في أمر وهو يفضح نفسه بخلافه على صاحب الأمر كعبد الله بن أبي سلول حيث خالفه ﷺ في عزم الخروج عن المدينة للحرب، وانقطع بثلث الجيش عن الخروج.

هنا ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ لها أبعاد، منها إمضاء العزم بعد المشاورة بما عزمت بوحي الله، دون أن تخاف أحداً خالفك في الأمر كما حصل في ابن أبي سلول.

ومنها أن لا دور للتوكل على الله إلّا بعد تقديم كلّ المساعي في سبيل التعرّف إلى صالح الأمر وتحقيقه، تقديماً فردياً وجماعياً، ومن ثم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

ومنها ألا يتكل الإنسان على ما اهتم وقدّم، بل وعليه أن يتوكل على الله في إمضاء ما يمضي دون استقلال لنفسه ولا استغلال، بل هو توكل على الله فيما يسعى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

ولقد كانت هذه سُنة رسالية زمن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول عليهم السلام، حيث كانوا يضعون الضائعين على الطريق الواضح على ضوء الشورى، مفيدين غير مستفيدين إلّا تدريباً أريباً[١].

وقد أشار ابن عباس على الإمام علي عليه السلام ما لم يوافق رأيه فقال: لك أن تشير عليّ وأرى فإن عصيتك فأطعني[٢].

فما استشارته ﷺ أمته إلّا كما استشاره الله تعالى في أمته على حدّ قوله ﷺ: «إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي»[٣].

هكذا تربى الأمة بالشورى بينهم وتدرب على حمل التبعة، لتعرف كيف تصلح آراءها وتصحح أخطاءها، فالإسلام لا يريد من الأمة المسلمة أن تظل كالطفل والقاصر تحت الوصاية، فكما يأمر بمواصلة التعلم والتعقل، كذلك بالشورى بينهم في هامة الأمور وعامتها لصالح الأمة على مرّ الزمن، ومشاورة الرسول ﷺ إياهم تترك في نفوسهم حباً لهذه الرسالة السامية أنه اعتبرهم كأنهم لهم شأن من الشأن في الأمر عند الله وعند رسوله وعند الناس، ثم ليختبر مدى عقولهم في صالحهم، ومن ثم إذا شاورتهم في الأمر فقد حملتهم على اجتهاد جماهيري في صالحهم فإذا أصابوا صدقتهم وفي

(١) نور الثقلين ١ : ٤٠٥ في تفسير العياشي أحمد بن محمد عن علي بن مهزيار قال: كتب إلى أبو جعفر عليه السلام أن سل فلاناً أن يشير علي ويتخير لنفسه فهو يعلم ما يجوز في بلده وكيف يعامل السلاطين فإن المشورة مباركة قال الله لنبيه في محكم كتابه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] فإن كان ما يقول مما يجوز كنت أصوب رأيه وإن كان غير ذلك رجوت أن أضعه على الطريق الواضح إنشاء الله ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ قال: يعني الاستخارة.

(٢) نهج البلاغة باب الحكم الرقم ٣٢١ عنه عليه السلام.

(٣) كما في حم ٢٩٢ / ٥ بإخراج المعجم المفهرس عن ألفاظ الحديث النبوي، وفيه عن النسائي قسامة (٤٠) أن النبي استشار الناس، وفي حم ٣: ٢٤٣ - استشارة رسول الله ﷺ في الأسارى يوم بدر.

ذلك بهجة لهم ونهجة في حياتهم العقلية الإسلامية، وإن اخطأوا أرشدتهم إلى صالح الأمر بما أوحى الله إليك.

وما أحلاه وأحناه عناية بأمرهم في شورى الأمر وهم العصاة، لكيلا يعتبروا أنفسهم بعد خارجين عن نطاق الأمر، اجتذاباً لهم أكثر واجتلاباً إلى أمر الشرعة الربانية دون مجانبة وابتعاد عنها لأنهم كانوا عصاة.

و﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ هنا في حقل المشاورة هو بطبيعة الحال ليس مما جاء في نصّ القرآن أو السُّنة، إنما هو الأمر الذي لا نصّ فيه، أو فيه اختلاف وشبهة تعتريه كما و«أمرهم» في ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ ولكنه أوسع دائرة لمكان اختلاف الأنظار في الأحكام غير الضرورية، فلتشملها الشورى.

فليأخذ القواعد المسلمون، روحيون وزمنيون، درساً نابغاً من سّنة الرسول ﷺ نابعاً من منبع الوحي، فلا يستبدوا بآرائهم بسند الطاقات العلمية والعقلية، فضلاً عن سيادة القوة الزمنية، وليحسبوا للأمة الإسلامية الحساب الذي حوسب به الرسول ﷺ ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ فالمستبد برأيه مهما كان صائباً هو خائب حيث يخسر عطف الأمة واستصلاحها لمعرفة صالحها عن طالحها، ويخسر نضوج العقلية بينهم فهم كالطفل تحت الولاية في الأمر.

كلّا! وإن على القائد أن يقود المقود إلى ما استأهله للقيادة، حتى تسود مختلف القابليات والفاعليات في الأمة، ف «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» والراعي بحاجة إلى صائب الرأي فيمن يرعاه.

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾:

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ لا تختص بميادين النضال الخارجية بل وبأحرى

بميادين النضال النفسية، فما لم تكن النصرة الربانية لم يوفّق العبد في أي حقل من الحقول الحيوية الإيمانية، فردية كانت أو جماعية، و﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ يتغلب عليكم، فكل طاقة مبذولة أمام النصرة الربانية مغلوبة مخذولة ومرذولة.

فـ «إذا فعل العبد ما أمره الله عزّ وجلّ به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عزّ وجلّ وسمي العبد به موفقاً، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فيتركها كان تركه بتوفيق الله تعالى ذكره ومتى خلى بينه وبين المعصية فلم يخل بينه وبينها حتى يرتكبها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه»[(١)].

ثم ﴿فَلَا غَالِبَ﴾ استغراق في سلب أي غالب من دون الله، سواء أكانت النفس الأمارة بالسوء أم سائر شياطين الجن والإنس، حيث تنتظم ﴿فَلَا غَالِبَ﴾ كلّ غلبة من أي غالب من بعد الله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٢)] ﴿... وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾[(٣)].

وترى ما هو دور «لكم» بعد سلبية مطلقة لأي غلب؟ والغلب المحظور هو «عليكم» لا «لكم»؟

«الغلبة» هي متعدية بنفسها دون أية حاجة لها إلى معدّ: ﴿كَم مِّن

---

(١) نور الثقلين ١: ٤٠٥ في كتاب التوحيد بإسناده إلى عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه فقلت قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [هُود: ٨٨] وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٠] فقال: ...

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٧.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١) - ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾(٢) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾(٣).

إذاً فتلحيقها بجار لا يعني التعدية، سواء في ذلك «على - أو - ل - أو - في» فإنها لإفادة فائدة أخرى. تأكيداً لتحليق الغلبة كما في «على»: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾(٤) أم لاختصاص النفي بخاص كما في ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ حيث اللام تعني الاختصاص لسلب الغلبة بذلك المورد الخاص، صدقاً كما هنا وكذباً كما ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ...﴾(٥).

فليست «لكم» لتعني «عليكم»، إنما هي لكم اختصاصاً للسلب بكم المؤمنين ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾. ويقال نصر الله وخذلانه إذ لا يخلو لعبيده من نصر وخذلان، وليس العوان بينهما - دون نصر ولا خذلان - يناسب ساحة الربوبية الوحيدة غير الوهيدة، التي تحلّق على كلّ سلب وإيجاب، تخييراً كما في النصرة والخذلان فإنهما من مخلّفات الإيمان واللّاإيمان، أم تسييراً كما في الأمور المسيّرة غير الميسّرة للمكلفين سلباً ولا إيجاباً.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ فيكلكم إلى أنفسكم وإن في طرفة عين ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ من بعد خذلانه، فـ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾(٦) غير مغلوب، إذا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا سواه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٧) سورة الحج، الآية: ٣٨.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾:

﴿وَمَا كَانَ﴾ هنا كأضرابها في سائر القرآن تضرب هذه السلبية إلى أعماق الماضي سلباً عن مثلث الزمان، حيث تسلب الغلول عن الكينونة الرسالية ككل وبأحرى هذه الرسالة السامية، فليس - إذاً - سلباً للجواز وتثبيتاً للحرمة فحسب، بل هو سلب لإمكانية الغلول للنبيين.

والغلول هو تدرع الخيانة كما الغل: العداوة، والغل هو الاغتيال: القتل، فما كان لنبي أن يغل ولا أن يغل وله أن يغل ويقتل في سبيل الله من يغل أو يغل أو يغل إذ كان يستحق الغل.

فالخيانة بأية صورة من صورها وأية سيرة من سيرها مسلوبة عن النبيين، سواء أكانت خيانة في النفس أو النفيس، خيانة بحق الله في شرعته أم بحق عباد الله في حقوقهم، فإن الأمانة هي من اللزامات الأولية الرئيسة للرسالة الإلهية على أية حال في قال وحال وفعال، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وكيف يخون الله شرعته وخلقه أن يأتمن الخائن، وما هو إلّا جهلاً أو تجاهلاً أو عجزاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فالآية لها دور طليق بالنسبة لمطلق الخيانة عن ساحة النبوة على مدار الزمن الرسالي، فتشمل كافة الشؤون لنزولها وسواها مما لم تحصل، اجتثاثاً للغلول عن هذه الساحة السامية عن بكرته وبكرتها، سواء أكانت خيانة في الرسالة، أم في الغنائم الحربية اختصاصاً بنفسه[2] أم في تقسيمها[3] أم

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

(٢) الدر المنثور ٢: ٩١ - أخرج عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر فقال بعض الناس لعل رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ . . .﴾.

(٣) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير من طريق سلمة بن نبيط عن الضحاك قال بعث =

قبولها[١] أم في السكوت عنها[٢] ومن قوله ﷺ: «اجتنبوا الغلول فإنه عار وشنار ونار»[٣].

وإن رضا الناس لا تملك وألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوه يوم بدر إلى أنه أخذ لنفسه من المغنم قطيفة حمراء حتى أظهره الله على القطيفة وبرأ نبيه من الخيانة وأنزل في كتابه ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ...﴾[٤].

وأن تهمة الغلول - الوقحة - كانت من العوامل التي جعلت الرماة يزايلون مكانهم من الجبل خوفة ألا يقسم لهم الرسول ﷺ من الغنائم كما سبقت يوم بدر بالنسبة للقطيفة الحمراء وساحة النبوة منها براء، فهنا يأتي النص بحكم عام ينفي عن الأنبياء إمكانية الغلول فضلاً عن خاتم الأنبياء.

ولقد تقولوا عليه قولة الغلول حتى أنه كان يقول: «لو كان لكم مثل أحد ذهباً ما حبست عنكم منه درهماً أتحسبون أني اغلكم مغنمكم».

ويقول «لا إسلال ولا غلول»[٥] ولم يضمن الإغاثة لمن يغل يوم

= النبي ﷺ طلائع فغنم رسول الله ﷺ فقسم بين الناس ولم يقسم بين الطلائع شيئاً فقالوا: قسم الفيء ولم يقسم لنا فأنزل الله الآية.

(١) المصدر أخرج الطبراني بسند جيد عن ابن عباس قال بعث النبي ﷺ جيشاً فردت رابته ثم بعث فردت بغلول رأس غزالة من ذهب فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن أنس بن مالك قال قيل يا رسول الله ﷺ استشهد مولاك فلان قال كلا إني رأيت عليه عباءة قد غلّها، وفي نقل آخر، بل هو الآن يجر إلى النار في عباءة غلها الله ورسوله.

وفيه أخرج الترمذي وحسنه عن معاذ بن جبل قال بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال أتدري لم بعثت إليك لا تصيبن شيئاً بغير إذني فإنه غلول ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة لهذا دعوتك فامض لذلك.

(٣) المصدر ذكر لنا أن نبي الله كان يقول:...

(٤) نور الثقلين ١ : ٤٠٤ في آمالي الصدوق بإسناده إلى الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه يا علقمة....

(٥) الدر المنثور ٢ : ٩٢ - أخرج الطبراني عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: ﴿...وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

القيامة(١) وهو الشفيع فيه.

ولقد أثرت آية الغلول وأضرابها في نفوس الجماعة المؤمنة أثراً عميقاً حتى أتت بالعجاب، فكانوا يجتنبون الخيط والمخيط(٢) وكما يروى عنه ﷺ: «أدّوا الخيط والمخيط فإنه عار وشنار يوم القيامة»(٣).

ذلك ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهذه هي عينية التبعة أن يؤتى من غل بما غل، سواء أكان قولاً أو فعلاً أم شيئاً غل فيه، حيث المحشر يحشر فيه الإنسان بكل أعماله قالة وحالة وفعالة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهنا ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ في التوفية دون «بما كسبت» مما يدل على أن المكاسب يوم الدنيا هي بنفسها الجزاء يوم الآخرة، أن تظهر بملكوتها تحولاً لها إلى الجزاء بنفسها.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾:

(١) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال قام بينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال: لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول يا رسول الله اغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول يا رسول الله اغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفف فيقول يا رسول الله اغثني فأقول لا أملك من الله شيئاً قد أبلغتك.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٩: ٧٠ روي أنه ﷺ جعل سلمان على الغنيمة فجاءه رجل وقال يا سليمان كان في ثوبي خرق فأخذت خيطاً من هذا المتاع فخطه به فهل عليّ جناح؟ فقال سلمان: كل شيء بقدره فسل الخيط من ثوبه ثم ألقاه في المتاع، وروي أن رجلاً جاء النبي ﷺ بشراك أو شراكين من المغنم فقال أصبت هذا يوم خيبر فقال النبي ﷺ شراك أو شراكان من نار، ورمي رجل بسهم في خيبر فقال القوم لما مات، هنيئاً له الشهادة فقال ﷺ كلّا والذي نفس محمد بيده أن الشملة التي أخذها من الغنائم قبل قسمتها لتلتهب عليه ناراً.

(٣) المصدر وقال عليه الصلاة والسلام.

فكيف يساوى بين صفتي الرضوان والسخط من الله، أن يبعث الله الساخط عليه كما يبعث الراضي عنه، أم كيف يبتعث الذي مأواه جهنم وبئس المصير ويترك الذي مأواه الجنة ونعم المصير؟ فكيف يفترى على رسول الهدى الغلول وصاحبه في سخط من الله وقد باء ورجع في أولاه وأخره بسخط من الله!

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾:

أترى ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ تختص بمن ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ حيث الدرجة كأصل هي ما يرقى عليه فيرتقي كما وجلّ آيات الدرجات تعني درجات الرحمة والرضوان(١).

أم تعم إلى هؤلاء الأكارم ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إقحاماً للدرجات الخلقية إلى الدرجات الخلقية: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ﴾(٢) فالناس كمعادن الذهب والفضة ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٣) تشمل درجات الدركات بالأعمال السيئة.

ثم وكيف ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ وليسوا إلّا أصحاب الدرجات بالأعمال والعقائد والصفات، فإنها مما عملوا كما في آيات؟ لأن «درجات» تعم الدرجات الخلقية في الذوات، ثم الدرجات الخُلقية تتعامل مع الذوات، متعاكسة في تأثيرات، فالدرجات الذاتية تنعكس على الأفعال والصفات، وهما تنعكسان أيضاً على الذوات، إذاً فـ ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، في ذواتهم وحالاتهم وأفعالهم وصفاتهم، فالمؤمن درجته مرتفعة والكافر درجته

---

(١) نور الثقلين ١ : ٤٠٦ في تفسير العياشي عن عمار بن مروان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ . . .﴾ [آل عِمرَان: ١٦٢] فقال: هم والله درجات المؤمنين عند الله وبموالاتهم ومعرفتهم إياناً يضاعف الله للمؤمنين حسناتهم ويرفع لهم الدرجات العلى.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.

متّضعه، كلّ ينال درجته باستحقاق فلا ظلم ولا إجحاف ولا محاباة ولا جزاف في الدرجات الخلقية المسيرة ولا في الخلقية المخيرة، التي تؤثر في الذوات، إذاً ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قابلية وفاعلية فجزاء وفاقاً، كما هم درجات عند الله عندية العلم والتقدير والتدبير، فلا تخفى من درجاتهم خافية بحضرة الربوبية إعطاء وجزاء وبينهما عوان.

ثم وكما ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يدرجون إلى رضوانه[1] أو سخطه، كذلك يدرج بهم إليهما لأنهم أصول الخير والشر، بهم يدرج أهل الخير إلى الخير وأهل الشر إلى الشر ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾:

آية يتيمة لا نظيرة لها في القرآن، بشأن الرسول اليتيم المنقطع النظير، يمن الله فيها به على المؤمنين، ترتكن في ذلك المن على قواعد اربع.

١ - «إذ بعث فيهم رسولاً منهم» فـ «المؤمنين» هنا طليقة تعم كلّ المؤمنين على مدار الزمن الرسالي الأخير من أي العالمين كانوا، من الجنة والناس وسواهما أجمعين، فإن «منهم» تعني مجانسة الإيمان، لا المجانسة في البشرية.

وأما ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[2] المقرّرة المجانسة بين الرسول والمرسل إليهم، فقد تعني طليقة المجانسة، غير المناحرة

---

(١) نور الثقلين ١: ٤٠٦ في أصول الكافي بسند متصل عن عمار الساباطي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ... هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣] فقال: الذين اتبعوا رضوان الله هم الأئمة عليهم السلام وهم والله يا عمار درجات للمؤمنين وبولايتهم ومعرفتهم إياناً يضاعف الله لهم أعمالهم ويرفع لهم درجات العلى.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

لاختلاف الجنس بين الرسل الأصليين والمرسل إليهم، حيث تكفى المجانسة في الرسل الوسطاء، جناً في الجن وسواه في سواه، ثم الرسالة المحورية هي لقبيل الإنس، و«رسولاً منهم» تحمل بعدي البشرية والرسالية، فهو بشر كما أنتم، وهو مؤمن فيما أنتم، فاصطفاه الله من البشر المؤمنين رسولاً فيهم، لا إليهم فقط فإنه رسول للعالمين من الجنة والناس ومن سواهم من المكلفين أجمعين.

هنا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وفي سواها منهم، وليست الأنفس هنا زائدة غير قاصدة، فإنما تعني زائداً قاصداً وظلّاً عميق الإيحاء والتدليل، أن الصلة بينه وبين المؤمنين هي صلة النفس بالنفس، واقعة بينه وبين قليل منهم، وواجبة بين الآخرين أن يحصلوها، فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى، إنما هي ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهم بالإيمان الصالح يرتقون إلى هذا المرتقى، ويرتفعون إلى هذه الصلة، فالمنة - إذاً - مضاعفة في إرسال رسول من أنفسهم، بهذه المواصلة النفسية النفيسة بينهم وبينه ﷺ فلو كان رسولاً لا بشراً ولا من المؤمنين لكانت الخيبة في هذه الرسالة ذات بعدين، حيث المجانسة بين الرسول والمرسل إليهم أصل من أصول الرسالة الرئيسة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ...﴾ كما أن أمانة الإيمان الأمين أصل وهو أقوى من أصل المجانسة، ولو كان رسولاً منهم لا من أنفسهم لقلت العائدة في هذه الرسالة، فبفقد كلّ من الأصلين تنقص الرسالة حسبه فضلاً عنهما جميعاً، فذلك ثالوث من انتقاص الرسالة أن يكون الرسول مؤمناً مؤمناً غير بشر أو بشراً غير مؤمن أم يفقدهما، فـ ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ تجمع الأصلين معاً، أنه بشر كما هم ومؤمن كما هم ولكنه اصطفى من بينهم فأوحي إليه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1] فأصبح ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فالروح الرسالية هي أرواح المؤمنين اجمع.

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

٢ - ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تلاوة المتابعة فإنها ليست إلهية كما ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝﴾[١] وقد ارتكزت رسالته على هذه التلاوة: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ﴾[٢] متابعة في كلّ حقولها ترتلاً وترتيلاً، تعلماً وتعليماً، فهي - إذاً - رسالة التلاوة التابعة لآيات الله في نفسه وأنفس العالمين.

٣ - ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بتلاوة آياته، زكاة في علومهم وحلومهم، عقائدهم وأخلاقهم، أعمالهم وكل ما لهم من قالات وحالات وأفعال وصفات.

٤ - ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ تعليماً بعد التزكية وتلاوة لآليات، حيث العلم الذي يتبنى الزكاة هو خالص العلم وصالحه، وقد يقدم التعليم على التزكية كما في آية واحدة بين أربع[٣] ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾[٤] وقد فصلنا القول حولها في محالها ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وترى أن ﴿بَعَثَ فِيهِمْ﴾ تختص رسالته بالمؤمنين به؟ وهم حال كونهم مؤمنين ليسوا بحاجة إلى رسالة فإنها تحصيل لحاصل، فغير المؤمن هو الذي يحتاجها حتى ينقلب مؤمناً، وهو ليس فيهم! قد تكون هذه نظيرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٥] قبل هداهم وبعدها، فالذي يتحرى عن إيمان هو قد يحسب مؤمناً قبل الإيمان، ثم يتكامل إيمانه بواقع الإيمان بالقرآن، ثم تكاملاً بالعلم والعمل بالقرآن فـ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[٦] تشير إلى مزيد الإيمان بعد إيمان.

---

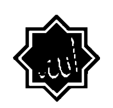
(١) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩٢.
(٣) والثلاثة الباقية هي آيتنا وآية الجمعة (٢) والبقرة (١٥١).
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

ذلك، مهما كانت رسالته إلى العالمين أجمع من يؤمن ومن لا يؤمن، فهو رسول في المؤمنين ورسول إلى العالمين ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾(١).

ولأن المنة ليست إلّا على ما فوق الواجب، فضلاً بعد عدل، فقد حملت هذه الرسالة السامية واجب الدعوة ونفلها، جامعة بين العدل والفضل قدر الإمكان منهما والحاجة إليهما للعالمين أجمعين، ولا نرى منّا في رسالة على أمة من الأمم إلّا على هذه الأمة المرحومة بتلك الرحمة الغالية المتعالية، فهل يخلد بخلد عاقل بعد أنه ﷺ يغل وهو الأمين قبل رسالته عند الكل، فكيف لا يكون أميناً بعدها، وهو الأمين لدى الناس قبل رسالة الله فكيف لا يكون أميناً لدى الله بعدما ائتمنه برسالته العليا!.

فالانشغال بغلول الغنيمة وغير غلولها - وهو السبب المباشر لقلب الموقف في أحد - بعيد كلّ البعد عن حامل تلك الرسالة العظمى، حيث تبدو غنائم الأرض وأسلابها وأعراضها وكل ما عليها تافهاً زهيداً أمامها، فليمت خجلاً التافه السخيف الرذيل الذي يمس من كرامة ذلك الفضيل بغلول في ذلك التافه الرذيل.

ثم الأمة المؤمنة التي غنمت هذه الرسالة الممنونة عليها، المشكورة فيها، لا يجدر لها أن تتحرى عن المغانم المادية، ولا سيما التي فيها عصيان الرسول وخسارة الحرب.



(١) سورة يس، الآية: ٧٠.

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾

تتمة من قيلات المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وعرض لمكانات الشهداء في سبيل الله عند الله تشجيعاً على الجهاد وتنديداً بدعايات المختلفين.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾:

هذه هي مصيبة الهزيمة العظيمة في أحد التي استقطبت واجهات النظر بين المنهزمين، ومن اعتراضاتهم عليها بصيغة السؤال «أنّى هذا» وقد وعدنا النصر كما انتصرنا في بدر، ومما هوّن هذه المصيبة ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ إذ هزمتموهم مرة في بدر وأخرى يوم أحد في مطلع المعركة قبل تخلفكم عن أمر الرسول ﷺ ووهنكم.

و«مثليها» في عديد الإصابات ومديدها، إذ «كان المسلمون قد أصابوا ببدر مائة وأربعين رجلاً قتلوا سبعين وأسروا سبعين فلما كان يوم أحد أصيب من المسلمين سبعون رجلاً»[1]. . . . .

---

(١) شهداء أحد على ما ذكره ابن هشام في سيرة النبي هم: حمزة بن عبد المطلب - مصعب بن عمير - عبد الله بن جحش - شماس بن عثمان وهؤلاء من المهاجرين، ثم: عمرو بن معاذ بن النعمان - الحارث بن أنس بن رافع - عمارة بن زياد السكن - سلمة بن ثابت - عمرو بن ثابت بن وقش - ثابت بن وقش - رفاعة بن وقش - حسيل بن جابر أبو حذيفة اليمان - صيفي بن قيظي - حباب بن قيظي - عباد بن سهل - الحارث بن أوس بن معاذ - إياس بن أوس - عبيد بن التيهان - حبيب بن يزيد بن تيم - يزيد بن حاطب بن أمية بن رافع - أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد - حنظلة بن أبي عامر وهو غسيل الملائكة - أنيس بن قتادة - أبو حبة بن عمر بن ثابت - عبد الله بن جبير بن النعمان وهو أمير الرماة - أبو سعد خيثمة بن خيثمة - عبد الله بن سلمة - سبيع بن حاطب بن الحارث - عمرو بن قيس - قيس بن عمرو بن قيس - ثابت بن عمر بن زيد - عامر بن مخلد - أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة بن عمرو - عمرو بن مطرف بن علقمة بن عمرو - أوس بن ثابت بن المنذر أخو حسان بن ثابت - أنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ - قيس بن مخلد - كيسان عبد لنبي نجار - سليم بن الحارث - نعمان بن عبد عمرو - خارجة بن زيد بن أبي زهر - سعد بن الربيع بن عمرو بن =

فاغتموا بذلك فأنزل الله الآية»[(١)].

وقد تعني «مثليها» كلا المثلين، فإنها طليقة في جنسهما الشامل لعدد الهزيمة وعدد المصابين، ومما يجيب عن ذلك التساؤل كأصل في الإصابة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ حيث تركتم مقاعدكم للقتال تخلفاً عن أمر الرسول ﷺ وبغية الغيمة حيث أهمتكم أنفسكم وظننتم بالله الظنونا.

ذلك، وأما مبادلة أسرى بدر - بديلاً عن قتلهم - بالفداء، ومبادلة الفداء باستشهاد مثلهم من المسلمين في عام قابل - كما يروى -[(٢)] فهو إغراء بأجهل الجهل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

= أبي زهر - أوس بن الأرقم - مالك بن سنان من بني خدرة وهو والد أبي سعيد الخدري - سعيد بن سويد - عتبة بن ربيع - ثعلبة بن سعد بن مالك - سقف بن فروة بن البدي - عبد الله بن عمرو بن وهب - ضمرة حليف لبني طريف - نوفل بن عبد الله - عباس بن عبادة - نعمان بن مالك بن ثعلبة - المجدر بن زياد - عبادة بن الحسماس - رفاعة بن عمرو - عبد الله بن عمرو من بني حرام - عمرو بن الجموح من بني حرام - خلاد بن عمرو بن الجموح - أبو أيمن مولى عمرو بن الجموح - سليم بن عمرو بن جديدة - عنترة مولى سليم - سهل بن قيس - ذكوان بن عبد قيس - عبيد المعلى - مالك بن تميلة - حارث بن عدي بن خرشة - مالك بن إياس - إياس بن عدي وعمرو بن إياس - وهؤلاء من الأنصار.

(١) نور الثقلين ١ : ٤٠٨ في تفسير العياشي محمد بن أبي حمزة عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية.

(٢) المصدر في تفسير علي بن إبراهيم أن النبي ﷺ لما تبعوا قريشاً بعد أحد إلى حمراء الأسد ثم رجعوا إلى المدينة فلما دخلوا المدينة قال أصحاب رسول الله ﷺ ما هذا الذي أصابنا وقد كنت تعدنا النصر؟ فأنزل الله: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٥] وذلك أن يوم بدر قتل من قريش سبعون وأسر منهم سبعون وكان الحكم في الأسارى القتل فقامت الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله هبهم لنا ولا نقتلهم حتى نفاديهم فنزل جبرئيل عليه السلام فقال: إن الله قد أباح لهم الفداء أن يأخذوا من هؤلاء يطلقوهم على أن يستشهد منهم في عام قابل بقدر من يأخذون منه الفداء فأخبرهم رسول الله ﷺ بهذا الشرط فقالوا: قد رضينا نأخذ العام الفداء من هؤلاء ونتقوى به ويقتل منا في عام قابل بعدد من نأخذ منهم الفداء وندخل الجنة فأخذوا منهم الفداء وأطلقوهم فلما كان هذا اليوم وهو يوم أحد قتل من أصحاب رسول الله ﷺ سبعون فقالوا يا رسول الله =

فلعمر إلهي الحق هذا من غرائب التأويل العليل، أن يبدل الله حكم قتل الأسرى بالفداء لمجرد استيهاب بعض المسلمين شرط أن يستشهد بعددهم لعام قابل، تجارة بائرة بائدة تبوء بذلك الخسار العظيم.

وكيف تباع نفوس طيبة منهم بمال والله يقبله منهم بما شرط، ونفس واحدة منهم هي أثمن وأنفس من أموال الدنيا بأسرها، ثم الهزيمة العظيمة التي خلفتها هذه المبايعة هي أخسر من خسار أنفسهم!.

كلّا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ كما قال الله إنهم تخلفوا عن أمر رسول الله ووهنوا، لا كما تقولوا على الله أنه أغراهم وأقرّهم بجهلهم فانهزموا.

ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: شيء النصرة بشروطها، وشيء الهزيمة بالانهزام عن شروط النصرة، فهناك يد القدرة الربانية تؤيد الربانيين، كما وهي تقيّد من سواهم بما قيدوا به أنفسهم جزاءً وفاقاً.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾:

فليست تلك الإصابة المخزية تغلباً على وعد الله ومشيئته في نصرتكم، بل هي بإذن الله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾[(١)] فالإذن هنا والصرف هناك متجاوبان في عناية مشيئة الله في ذلك الانهزام الذي سببه في الأصل

= ما هذا الذي أصابنا وقد كنت تعدنا النصر؟ فأنزل الله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم . . .﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وفي تفسير الفخر الرازي ٩: ٨٢ روي عن علي عليه السلام قال: جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر فقال: يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا الأسارى فيضربوا أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقتل منهم عدتهم فذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لقومه فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشائرنا وإخواننا نأخذ الفداء منهم فنتقوى به على قتال العدو ونرضى أن يستشهد منا بعددهم فقتل يوم أحد سبعون رجلاً عدد أسارى بدر فهو معنى قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] أي بأخذ الفداء واختياركم القتل.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

﴿مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، وذلك حين تخلّفتم وفشلتم، فلا سلب ولا إيجاب في الكون - ككل - إلّا بإذن الله تسييراً في قسم وتخييراً في آخر، فليست مشيئة الخير والشر بمقدماتها وأسبابها الخلقية هي الكافية في حاصل الخير والشر إلّا بإذن الله، ولا يعني إذن الله «تسييراً» فإنما هو السبب الأخير في كلّ فاعلية سلبية أو إيجابية قضية التوحيد في كلّ الآثار، فليس بالإمكان تكوين أي كائن إلّا بإذن الله، المشترك بين ما لا اختيار فيه للخلق وما فيه اختيار.

﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ كما هو ﴿مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ الله علامة النجاح «المؤمنين» بالله في هذه المحنة، فالصمود في هذه الإصابة على الإيمان بالله، ولا سيما بالنسبة لمن لم يقصر في حقل الإصابة، إنه علامة صادق الإيمان، كما التزلزل ولا سيما بالنسبة لمن سبب الهزيمة هو علامة كاذب الإيمان.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾:

ثم «وليعلم» علامة السقوط ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ وهم المتخلفون عن الانضمام إلى جيش الكرامة، المنحازون عنه، وهم ثلث الجيش بقيادة رأس المنافقين عبد الله ابن سلول إذ ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هجوماً على أعداء الله «أو» لأقل تقدير من مقادير المسؤولية الجهادية «ادفعوا» عن الإسلام وحوزته، فما كان قولهم إلّا أن ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ إحالة لعلم القتال وهم جند مجندون بسلاح الحرب، ف «لو» غدر غادر مائر يجعل ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ حيث النفاق هو باطن الكفر وظاهر الإيمان، ولكنهم نقضوا ظاهراً منه باهراً هو القتال في سبيل الله ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ وقد تعني «لو نعلم» لو نعلم صالح القتال، أو ما يسمّى قتالاً، وليس هذا قتالاً حيث الخروج عن المدينة

خروج عن سنة القتال، وإلقاء للنفس إلى التهلكة، وهذا أحرى بـ ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ تعريضاً بأنه قتل لنا دون قتال.

ذلك فـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجاه ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ إنها تشمل من سوى المنافقين الرسميين، وعلامة النجاح لهم درجات حسب درجاتهم إلى أسفلها وهي المتخلفة عن مقاعد القتال، والتي وهنت أو همت بالفشل أو ظنت بالله الظنونا: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[(١)].

فالقول بالأفواه ما ليس في القلوب نفاق عارم، كما أن تطابق القول والقلب - لا سيما مع الفعل - إيمان صارم، وبينهما عوان من الإيمان والنفاق يعبر عن صاحبه بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيماناً مبدئياً مهما اختلفت درجاته[(٢)].

وقد تعني ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ كلّ المتخلفين في تلك المعركة، فـ «المؤمنين» هم - إذاً - صادقوا الإيمان، فإن «نافقوا» وجاه «المؤمنين» تعبير قاصد، ولكن الوجه الأول أوجه فإن «تعالوا...» تشي إلى تخلفهم عن أصل القتال والدفاع، فقد لا تشمل المتخلفين ضمن المعركة فضلاً عن الذين هموا أن يفشلوا.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٢) مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام في كلام طويل ومن ضعيف يقينه تعلق بالأسباب ورخص لنفسه بذلك واتبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة والسعي في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها، مقر باللسان أنه لا مانع ولا معطي إلّا الله وأن العبد لا يصيب إلّا ما رزق وقسم له والجهد لا يزيد في الرزق وينكر ذلك بفعله وقلبه قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ...﴾.

﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ هنا كما «لإخوانهم» فيما مضى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ...﴾(١).

ثم «وقعدوا» حال عن القائلين لإخوانهم قيلتهم الغيلة، والجواب تعجيز لهم على غرار قيلتهم ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ بقعود وسواه من أسباب الفرار عن الموت فيما تزعمون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ﴿لَوْ أَطَاعُونَا...﴾.

ذلك، ولكن الدرء عن الموت أمر والدرء عن القتل أمر آخر، فاستحالة الدرء عن الموت لا تحيل الدرء عن القتل فإنّ بالإمكان الابتعاد عن أسبابه، إلّا أن الموت هنا يعم القتل، و﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢) ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾(٣) حيث تعم مضاجع الموت الأعم من القتل، وقد مضى فصل القول فيه فلا نعيد.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ خطاب لكل الحاسبين ذلك الحسبان الجاهل القاحل، والعائشين في جوّه بتلك الدعاية المجمّدة للطاقات الحربية، فلا تشمل رسول الهدى ﷺ، إنما هو خطاب لأهله على الأبدال، دون من لا يخلد أو لن يخلد بخلده ذلك الحسبان المناحر للإيمان، حيث الحياة البرزخية كأصل، ثم حياه الشهداء المفضلة على كلّ الأحياء، في البرزخ، إنها من معاريف الإيمان بفضل الشهادة وأصل الحياة بعد الموت، مهما كان الشهداء درجات(٤) كما أن سائر الصالحين درجات.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٤) الدر المنثور ٢: ٩٦ - إن رسول الله ﷺ قال: إن الشهداء ثلاثة فأدنى الشهداء عند الله =

و﴿أَمْوَٰتًا﴾ هنا المسلوبة عن ساحة الشهداء بتّة، لا تعني - بطبيعة الحال - الموت الذي بعده حياة، بل هو موت الفوت، حيث خيّل إلى ناكري الحياة بعد الموت ككل، وناكري الحياة البرزخية وحياة الشهادة المتميزة فيها.

إذاً فـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ تحلّق النهي عن ذلك الحسبان على كلّ حقوله كجواب ثانٍ عن الشبهة المختلقة ضد القتال، فالأول يجعل الموت بإذن الله أمراً لا بدَّ منه، والثاني يحول بين القتل في سبيل الله والدعايات ضده أنه فوت، وكيف يقدم العاقل على فناء حياته قائلاً: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

= منزلة رجل خرج منبوذاً بنفسه وماله لا يريد أن يقتل ولا يقتل أتاه سهم فأصابه فأول قطرة تقطر من دمه يغفر له ما تقدم من ذنبه ثم. . .

وفيه (٩٨) أخرج البزاز والبيهقي والأصبهاني في ترغيبه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: الشهداء ثلاثة رجل خرج بنفسه وماله محتسباً في سبيل الله لا يريد أن يقتل ولا يقتل يكثر سواد المؤمنين فإن مات أو قتل غفرت له ذنوبه كلها وأجير من عذاب القبر وأومن من الفزع الأكبر وزوج من الحور العين وحلت عليه حلة الكرامة ووضع على رأسه تاج الوقار والخلد، والثاني رجل خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يقتل ولا يقتل فإن مات أو قتل كانت ركبته مع ركبة إبراهيم خليل الرحمن بين يدي الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، والثالث رجل خرج بنفسه وماله ومحتسباً يريد أن يقتل ويقتل فإن مات أو قتل جاء يوم القيامة شاهراً سيفه واضعه على عاتقه والناس جاثون على الركب يقول: ألا افسحوا لنا مرتين فأنا قد بذلنا دماءنا وأموالنا لله، قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لولا قال ذلك لإبراهيم خليل الرحمن أو لنبي من الأنبياء لتنحى لهم عن الطريق لما يرى من واجب حقهم حتى يأتوا منابر من نور عن يمين العرش فيجلسون فينظرون كيف يقضي بين الناس لا يجدون غم الموت ولا يغتمون في البرزخ ولا تفزعهم الصيحة ولا يهمهم الحساب ولا الميزان ولا الصراط ينظرون كيف يقضي بين الناس ولا يسألون شيئاً إلّا أعطوا ولا يشفعون في شيء ألا شفّعوا ويعطون من الجنة ما أحبوا وينزلون من الجنة حيث أحبوا.

وفي نور الثقلين ١ : ٤٠٩ في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: أتى رسول الله ﷺ فقال: إني راغب نشط في الجهاد قال: فجاهد في سبيل الله فإنك إن تقتل كنت حياً عند الله يرزق وإن مت فقد وقع أجرك على الله وإن رجعت خرجت من الذنوب إلى الله، هذا تفسير ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ. . .﴾.

ليس فحسب أنهم ﴿أَحْيَآءٌ﴾ كما كانوا قبل استشهادهم، بل هم كانوا قبله في حياة بعيدة عن حضرة الربوبية خليطة بكل شقاء ثم الآن عند ربهم عندية الزلفى والكرامة المتميزة ﴿يُرْزَقُونَ﴾ رزقاً من عنده، فهي - إذاً - حياة عند ربهم يرزقون عند ربهم، بعد أن كانوا أحياء بحياة بعيدة خليطة بموات وظلمات.

أترى ﴿أَحْيَآءٌ﴾ تعني - فقط - الحياة الآخرة؟ و«أمواتاً» تحلق على كلّ حلقات الموت بعد الشهادة، فلو كانوا أمواتاً في البرزخ بين الحياتين لصدق أنهم أموات؟ مهما أحيوا يوم القيامة، ثم ولا تصدق ﴿أَحْيَآءٌ﴾ على الذين يحيون يوم الدين وهم أموات في البرزخ، وإنما صيغته الصالحة «بل يحيون يوم الدين» ثم الخطاب ليس لناكري الحياة يوم الدين مهما كانوا ضمنه في طليق الخطاب! فليس لناكري الحياة البرزخية من محيص ولا محيد عنها وجاه هذه الآية المصرحة بها في بنود عدة.

ذلك وبأحرى لا تعني ﴿أَحْيَآءٌ﴾ حياة الذكر ولا واقع لها ولا موقع إلّا الخيال، ثم إذا لا حياة في البرزخ فأين - إذاً - ذلك الخيال، اللّهم إلّا خيالاً هنا على خيال، فكيف - إذاً - ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. . .﴾! ثم وكيف هم ﴿فَرِحِينَ﴾ - ﴿يَسْتَبْشِرُونَ. . .﴾ أما ذا من حالات مرضية بعد الموت؟.

ويا لها من حياة الزلفى المنقطعة النظير: حياة الشهداء في سبيل الله، أن يكونوا ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ كما المقربون والسابقون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴾[١].

ولا تعني عندية الرب مكاناً ولا زماناً، وإنما هي مكانة ربانية قدر مساعيهم ودرجاتهم، من الزلفى والمعرفة بجنب الله.

ذلك ولأنهم انقطعوا عن النفس والنفيس إلى الله، فأصبحوا وهم ليسوا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

عند أنفسهم ونفائسهم، فإنما هم عند ربهم حيث ضحوا في سبيل ربهم، فهم - إذاً - أحياء عند ربهم، فالمتفاني في سبيل هو محسوب على ذلك السبيل، سبيل اللهو ولا سمح الله، أو سبيل الله رزقنا الله إياه.

فالمستشهدون في سبيل الله - في صيغة سائغة لهم - هم خرجوا من عند أنفسهم فعرجوا إلى معراج ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فما لم يخرج السالك من عند نفسه لم يعرج إلى «عند ربه» كما وكل تحلية بحاجة إلى تخلية قبلها يناسبها، والمستشهد في سبيل الله يتخلى عن كلما يملكه في سبيل الله، فيتحلى بالزلفى عند الله، فطوبى له وحسن مآب.

وكما العندية في حياتهم الدنيا ذات درجات كذلك خلفيتها يوم البرزخ وبأحرى الأخرى ذات درجات ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

و«عند ربهم» هي رمز لكل مواصلة ربانية عن كلّ مفاصلة، إذ انقطع الشهيد عن كلّ ما لديه إلى الله، فلم يبق له ولا عنده إلّا سبيل الله، فأصبح بنفسه سبيل الله:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

﴿فَرِحِينَ﴾ حال لهم لمثلث الأحوال ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فرحين أحياء وفرحين عند ربهم وفرحين يرزقون، أتراهم - بعد - أمواتاً عن تلك الحياة، والميت الفائت ليس يشعر حتى يفرح أو يترح!.

و﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ هو أنهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ولا فضل أفضل منه أو يساويه أم يساميه، مهما كانت «عند ربهم» درجات حسب درجات الزلفى للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين فإنهم كلهم - على

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

درجاتهم - من ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[١].

﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ هل تعني يبشرون؟ وصيغتها هي صيغتها؟ ثم لا دور - إذاً - للباء في ﴿بِٱلَّذِينَ...﴾.

الاستبشار هو طلب السرور بالبشرى، وهو ﴿بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ يعني بسببهم ومصاحبتهم فهم يطلبون البشرى في حياتهم البرزخية بسبب الذين لم يلحقوا بهم، طلباً لبشراهم أنفسهم باستمرار القتال في سبيل الله، سواء في نومهم أو يقظتهم أو بما أخبر الله من حالهم وقالهم، فمثلث الاستبشار معني بـ«يستبشرون» كما و«يستبشرون» فيما بينهم.

ومادة البشرى هي ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فهي بشراهم لأنفسهم، وهي بشراهم للذين لم يلحقوا بهم، و«هم» في «عليهم - ولاهم» يعمهم والذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، فقد يلمح ذلك الاستبشار أنهم مطلعون على أحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وأنهم يوصلون هذه البشارة إليهم في الرؤيا واليقظة أماهية، وإنما ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ دون «لا يخافون» كما «لا يحزنون» حيث الخوف يعم نفسيه وخارجية، والحزن يخص النفسي لما مضى.

و﴿بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ هم الذين يجاهدون على أشراف اللحوق بهم، لحقوا بهم بالشهادة أم بالموت حيث الأصل هو قضاء النحب في سبيل الله شهادة أو موتا[٢].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) نور الثقلين ١: ٤٠٩ في روضة الكافي ابن محبوب عن الحارث بن النعمان عن بريد العجلي قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز ذكره: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ...﴾ قال: هم والله شيعتنا حين صارت أرواحهم في الجنة واستقبلوا الكرامة من الله عز وجل واستيقنوا أنهم كانوا على الحق وعلى دين الله عز ذكره «فاستبشروا بمن لم يلحق بهم من إخوانهم من خلفهم من المؤمنين ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ... أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أنفسهم وإياهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أنفسهم هؤلاء، لا خوف مما يحصل ولا حزن مما حصل، حيث الحصيلة الأصيلة من الحياة ككلّ حاصلة عندهم إذ هم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فلماذا الخوف إذاً ولماذا يحزنون(١).

وحين نتأمل في أغوار ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نجدها تزيل عنهم كلّ أسى ونقصان في مثلث الزمان، فكما أن مستقبلهم مأمون عن كلّ خوف، كذلك ماضيهم مأمون عن كلّ حزن، فلا يحزنون على ما فات منهم وجاه ما وجدوه، فلهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدّعون، نزلاً من غفور رحيم.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كما استبشروا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ما أنعمها وأعظمها «وفضل» على تلك النعمة فـ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٢) - «و» بـ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهنا الاستبشار يعمهم والذين لم يلحقوا بهم، طلب البشرى لأنفسهم وإياهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهنا ﴿أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون خصوص الشهداء مما يعمم الحياة البرزخية السعيدة لكافة المؤمنين، وكما الحياة البرزخية الشقية للآخرين حسب آيات

---

(١) الدر المنثور ٢: ٩٥ - أخرج الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن أبي عاصم في السنة وابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر عبد الله قال لقيني رسول الله ﷺ فقال يا جابر ما لي أراك منكسراً؟ قلت يا رسول الله ﷺ استشهد أبي وترك عيالاً وديناً فقال: ألا أبشرك بما لقى الله به أباك؟ قال: بلى، قال: ما كلم الله أحداً قط إلّا من وراء حجاب وأحيا أباك فكلمه كفاحاً وقال: يا عبدي تمنّ على أعطاك قال يا رب تحييني فاقتل فيك ثانية قال الرب تعالى قد سبق مني أنهم لا يرجعون قال: أي رب فابلغ من ورائي فأنزل الله هذه الآية.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.

أخرى، وإنما يمتاز الشهداء عن سائر المؤمنين بفضل الشهادة وزلفاها عند ربهم ورزقهم.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾:

فهناك استجابة لله والرسول قبل إصابة القرح في هذه السبيل وهي وسط الإيمان، وهنا استجابة لله والرسول من بعدما أصابهم القرح وهي قلب الإيمان وصلبه شريطة الإحسان والتقوى فلهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد نزلت هذه الآية بشأن الخارجين معه ﷺ وذلك إن النبي ﷺ ندب الناس ثاني يوم أحد إلى اتباع المشركين، تقوية لقلوب أصحابه وتجلداً على أعدائه، وكان بالمسلمين جوانح الجراح ومواقع السلاح ما انتزع قواهم وأثر في تماسكهم حتى كان بعضهم يحمل بعضاً عند خروجهم في ملاحقة المشركين، ضعفاً عن الاستمرار على المشي والدوام على السعي فلما ندب ﷺ الناس إلى الخروج قال المنافقون للمؤمنين - على طريق التهيب لهم والمكر بهم - قد رأيتم ما لقيتم بالأمس من أعدائكم وأنتم في باحات دياركم ومدارج أقدامكم حتى لم يفلت منكم إلّا الشريد ولم ينج منكم إلّا القليل، أفتصحرون لهم اليوم وقد قلّ عددكم وضعف جلدكم وأسرع القتل في رجالكم فأوقع الشيطان قلوب المنافقين في قلوب بعض المؤمنين.

الرسول ﷺ يدعوهم مرة أخرى بعد هنيئة من أُحد وهم مثخنون بالجراح، وهم ناجون بشق الأنفس من أمس المعركة عن القتل، ولما ينسوا هول الدعكة ومرارة الهزيمة وشدة الكربة.

فلقد دعاهم رسول الله ﷺ دون من سواهم، فلم يأذن للمتخلفين ولا غير الجرحى مهما لم يتخلفوا، إذ لم يكن - وقتذاك - يهمه العدد، إنما

همته العدد الروحية في النضال، فاصطفى الأصفياء منهم فاستجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح»[1].

وهكذا تتضافر مثل هذه الصورة الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة في هذه النفوس المؤمنة الكبيرة التي لا تعرف سوى الله وكيلاً وتزداد به إيماناً في ساعة العسرة واليسرة سواء، قائلة في مواجهة المخاوف الهائلة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

أجل وإن كلّ مزايا الحياة وزيادة حاصلة هي للشهداء عند ربهم، وذلك تعديل كامل لمفهوم القتل في سبيل الله، وللمشاعر المصاحبة له، في نفوس المجاهدين أنفسهم وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم، ونفوس المتشككين بشأنهم حيث كان يخيّل إليهم أنهم أموات.

وذلك إفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها، لكي تتجاوز نطاق هذه الدانية العاجلة إلى تلك العالية الآجلة.

وعلى ضوء ذلك التوجيه الوجيه سارت خطى المجاهدين الكرام في معارك الشرف والكرامة، ونضجت فيها تلك النماذج الرفيعة في غزوتي بدر وأُحد وسواهما.

فمن الناس من لا يستجيب لله والرسول في السبل الخطرة الحذرة، ومنهم من يستجيب فإذا أصابهم القرح وقفوا غير راجعين، ومنهم المستجيبون لله والرسول من بعدما أصابهم القرح ولكنهم بعد لا يستمرون، ومنهم المستمرون حتى النفس الأخير وهم أولاء المعنيون بـ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ

(١) الدر المنثور ٣: ١٠٢ - أخرج ابن جرير عن السدي قال لما ندم أبو سفيان وأصحابه عن الرجوع عن رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا ارجعوا فاستأصلوهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جعلاً فقالوا له إن لقيت محمداً وأصحابه فأخبرهم أنا قد جمعنا لهم فأخبر الله رسوله ﷺ فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فلقوا الأعرابي الذي لقيهم الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم...

مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ مهما كان لمن سبقهم أجر حسب درجات الاستجابة دون فوضى جزاف، فكل شيء عنده بمقدار.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾:

أولئك الأكارم هم المستجيبون لله والرسول ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ النسناس ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ المشركين ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ ولكنهم لم يخشوهم إنما خشوا الله ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ على إيمانهم ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾:

﴿فَانْقَلَبُوا﴾ هؤلاء الأكارم ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ الذين استبشروا بهما ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أبداً ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ في الأولى وفي الأخرى طبقاً عن طبق ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

وذلك الانقلاب كان مصاحباً ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ وبسبب نعمة من الله وفضل فلا ينقلب الإنسان عما لديه إلى ما لدى الله، وعما هو عنده إلى ما هو عند الله، إلّا بنعمة من الله وفضل واتباع رضوان الله ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١).

فتلك عشرة كاملة من صفات وحالات الذين قتلوا في سبيل الله كما يرضاه أنهم: «١ - أحياء، ٢ - عند ربهم، ٣ - يرزقون، ٤ - فرحين..، ٥ - ويستبشرون...، ٦ - يستبشرون بنعمة من الله وفضل، ٧ - الذين استجابوا..، ٨ - أحسنوا، ٩ - واتقوا، ١٠ - فزادهم إيماناً، وعلى ضوء

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

هذه العشرة الكاملة «فانقلبوا»... انقلاباً عن كلّ ما سوى الله إلى الله حيث يعيشون مع الله عند الله لا سواه.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾:

أولياء الشيطان هم الذين يتولونه على دركاتهم في ولايته ومنها الخوف على النفس والنفيس في سبيل الله، فالخائفون غير الله في سبيل الله هم من أولياء الشيطان، والخائفون الله هم من أولياء الرحمن، فـ «من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا»[1] و«من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء»[2].

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أترى «هم» هنا أولياء الشيطان الذين خوفوهم في سبيل الله؟ ولم يكن الخوف من هؤلاء، بل هو من الناس الذين جمعوا لكم وهم المشركون!.

«هم» هنا هم الناس الذين جمعوا لكم، والذين يخافونهم من ضعفاء المؤمنين هم من أولياء الشيطان حيث يخوفهم ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ كما خافهم أولياء الشيطان ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله.

فالإيمان المتين بالله يجعل من المؤمنين غير خائفين إلّا الله، فالخائفون الله لا يخوفهم الشيطان ولا يخافون الشيطان وأولياءه، والخائفون غير الله هم من أولياء الشيطان مهما كانوا من المؤمنين بالله.

وهذا التخويف أياً كان هو من سلطان الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾[3]، فالمتخوفون بتخويف الشيطان - على دركاتهم -

---

(١) نور الثقلين ١: ٢١٣ في أصول الكافي بإسناده إلى حمزة قال قال أبو عبد الله عليه السلام...

(٢) المصدر عن المصدر بإسناده إلى الهيثم بن واقد قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:...

(٣) سورة النحل، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

هم من أوليائه على دركات ولايته حيث ركنوا إلى وسوسته وانقادوا لغوايته، ومن كان بهذه الصفة فهو ولي الشيطان بمعنى تولي القبول والركون لا تولي العبادة والدين، والمؤمن مخالف لهذه الطريقة لأنه عند الخواطر السيئة من الشيطان يرجع إلى يقينه ويتوكل على ربه.

فـ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ البعيد البعيد ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ فلا تكونوا من أوليائه فيؤثر فيكم تخويفه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أولاء المشركين بتخويف الشيطان فتكونوا من أوليائه «وخافون» أنا ربكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.



﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ
ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟
إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ
عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟
فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ
قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ
ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ
قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا
تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ

ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

لقد كان يحزنه ﷺ الذين يسارعون في الكفر مصارعين الإيمان وأهله علّهم يضرون شيئاً فطمأنه الله أنهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ وإنما يضرون أنفسهم، فلا يضرون الله ولا شرعة الله، وإنما ينضر بهم ضعفاء الإيمان، فلا يعني النهي عن الحزن في حقل المسارعة في الكفر إلّا الحزن على إضرارهم وأضرارهم في إصرارهم، وأما الحزن على أن الله يعصى، الداعي إلى القبض على أيدي العصاة، فليس داخلاً في النهي، فإنه قضية الإيمان بالله أن يحزن المؤمن على ما يرى في الأرض من الفساد وكما يفرح بما يرى من صالح الإيمان.

أترى من هم ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾؟ أهم المشركون وهم كافرون لأسفل دركاته فكيف يسارعون في الكفر إلّا تحصيلاً للحاصل!.

أم هم المسلمون البسطاء المستغفلون الذين يكفرون سراعاً؟ قد يشملهم النص.

أم وهم المنافقون وأهل الكتاب حيث يسارعون في مزيد كفرهم وفي كفر المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ

لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1].

قد يشمل النص ثالوث المسارعة في الكفر، كفرهم وكفر المسلمين، وهم على أية حال ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ و﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ وكذا الذين معك، اللّهم إلّا بسطاء الإيمان، غير المتوكلين على ربهم، الذين في قلوبهم مرض، فقد ينضرّون ارتجاعاً إلى الكفر أم عن حاضر إيمانهم - مهما كان ضعيفاً - إلى أضعف منه.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل هم يضرون أنفسهم ويضرهم الله بما أضروا حيث ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لا فحسب بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلماذا - إذاً - الحزن عليهم؟.

أو يريد الله سلبية الحظ أخروياً وإيجابية العذاب فيها والله لا يريد شراً ولا ضراً بالعباد؟ إنها إرادة الجزاء الوفاق بما يسارعون في الكفر وما الله يريد ظلماً بالعباد.

ذلك، وليس فحسب المسارعة في الكفر لن تضر الله شيئاً، بل كضابطة عامة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾:

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٤١، ٤٢.

وهذا يشمل كلّ دركات الكفر، فطرية ملية أماهية، كما الإيمان هنا يشمل الإيمان الفطري والملي، حاضر الإيمان بمراتبه، وغائب الإيمان بحاضر براهينه آفاقياً وأنفسياً، إنهم ككل ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ ضراً بالشارع أو شرعته أو حامل شرعته رسولياً أو رسالياً، اللهم إلّا الذين في قلوبهم مرض ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هنا أليم لاشتماله كلّ دركات الكفر، وهناك عظيم لأنه أسفل دركات الكفر لمكان المسارعة في الكفر، فمشتري الكفر بالإيمان قد يسارع في الكفر وقد لا يسارع وإنما يصارع في ميادين الكفر والإيمان فيصرع تقصيراً من عند نفسه فلهم عذاب أليم، ولأولئك عذاب عظيم.

ومن العذاب الأليم العظيم للذين يسارعون في الكفر، أو يشترون الكفر بالإيمان بلية الإملاء التي يحسبها الجاهل خيراً.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

هنا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المسارعون في الكفر، الذين ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] ولا يعني ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ككل، إذ قد يؤمن البعض بالإملاء بطول النظر والعبر، الذين كفروا لشبهة دون عناد، أم عناد غير عريق، أم عريق غير غريق، فـ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا﴾ بيان لواقع المستقبل للمسارعين في الكفر المصارعين الإيمان وأهله على علم وعمد.

فالذين كفروا - ومعهم بسطاء الإيمان القاحل - يحسبون إنما يملى لهم في نفس ونفيس خيرٌ لأنفسهم فيخيّل إليهم أن لو كان الإيمان حقاً لما أملى الله للكافرين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

كلا! بل ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[(١)] والإملاء له طرفان، رباني ابتلاء وامتهاناً في امتحان بكيد متين، وشيطاني حيث ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[(٢)]: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[(٣)] - ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾[(٤)] ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[(٥)].

والإملاء هو الإمداد ومنه قيل للمدة الطويلة ملاوة من الدهر وملي من الدهر، فالإملاء هو الإمهال مدّة وعدة وعدة، إمداداً بأموال وبنين، فـ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(٦)] ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[(٧)].

أجل، إنه ليس الإملاء الإمداد من الله للذين كفروا خيراً لأنفسهم بل هو شر فـ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ثم وشرعة الله وعباده الصامدون مأمونون عن إملاء الكافرين، وهو لهم امتحان ليزدادوا إيماناً بجهادهم المتواصل، ولأولاء امتهان ليزدادوا إثماً.

وثالوث العذاب العظيم الأليم المهين متوارد على المسارعين في الكفر، المنهمكين في وسائل ترفهم، المهملين في كلّ طرفهم.

وهذا أنسب ختام بعد عرض الحرب وانهزام المسلمين، فإن هناك شبهة كاذبة مريبة تحيك في صدور ضيقة أمام المعارك الناشبة بين الحق والباطل،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.
(٢) سورة محمد، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٢.
(٤) سورة الحج، الآيات: ٤٢-٤٤.
(٥) سورة الحج، الآية: ٤٨.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٥.
(٧) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

حين يعود منها الباطل منتصراً ذا جولة وصولة: لماذا يا رب يصاب الحق بما يصيب الباطل أهل الحق، وهذه فتنة تهز القلوب، وكما حصلت في هزيمة أحد «أنى هذا»؟.

ففي هذا المطلع الختامي يأتي حاسم الجواب الصواب بعد سائر الجواب الصواب، إن ذهاب الباطل ناجياً عن المعركة وبقائه متنفّشاً في فترة قليلة أو طويلة، إنه لا يعني أن الله يملي الباطل ويمهله بإهمال الحق، وأنه مجافيه أو ناسيه، متروكاً للباطل يغتاله ويرديه، فإنما هي حكمة وتدبير، إملاء للباطل ليمشي ويمضي إلى نهاية المطاف، وليرتكب أبشع الآثام ويرتبك فيها فينال العذاب المهين، ويصمد أهل الحق وجاه الباطل فينالوا الثواب العظيم.

إنما يريد الله استنفاد رصيد الباطل في هذه المعارك لينال خالص العذاب، وتبلور رصيد الحق لينال خالص الثواب فإن الدار دار الامتحان لأهل الحق، والامتهان لأهل الباطل في جو ذلك الامتحان.

فلا تعني ﴿لِيَزْدَادُوٓا﴾ ما تعنيه «ليعبدون» في ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] حتى تتعارضا، فالعناية الأولى تكوينية عقوبة على أهليها الكافرين، والثانية تشريعية مغبة العبادة من المؤمنين.

فالغاية القصوى من خلق الجن والإنس هي العبادة، كآية محكمة تفسر الغاية الجانبية في ﴿لِيَزْدَادُوٓا﴾.

ثم قد تكون الغاية معنية كما العبادة غاية للخلق، وأخرى غير معنية ولكنها واقعية كازدياد الإثم في إملاء الذين كفروا، فإنها غير معنية لله، وإنما هي واقعية لم يحجب الله عنها تكويناً كما في ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[2] ولم تكن هذه الغاية معنية لآل فرعون، بل هي واقعية.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨.

فإنما التعمير يعني في عناية شرعية التذكير ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾(١) فقد أنعم الله عليهم ليشكروه وأحسن إليهم ليطيعوه، فتمادوا وتتابعوا في ضلالهم فتركهم وما افتعلوا، وخلى بينهم وبين ما اختاروا، فلم يمنعهم من ذلك إجباراً، ولم يحل بينهم وبينه اقتساراً، فسمي ذلك الترك إملاء، فكما أجراهم الله في المضمار وأجرّهم طول الأنظار ولم يعاجلهم بمستحق العقاب تمادوا غياً، وازدادوا إثماً.

ذلك، وحتى إذا كانت زيادة الإثم معنية في التعمير، فهي عناية تكوينية لا تشريعية، والعناية التكوينية الربانية تحلق على كافة الحوادث خيّرة وشريرة دون تناحر مع صالح الاختيار والتكليف.

لذلك ترى أن الله قد ينسب فعلة الشيطان إلى نفسه، تدليلاً على أنه تعالى غير منعزل ولا معتزل عما يفعله العباد مهما كان لهم اختيار في تكليفية الأفعال.

وهكذا توجه إرادة الله لزيادة الإثم كفاية معنية من إملاء الكافرين، أنها غاية واقعية هي لهم مختارة، عقوبة عليهم بإثمهم فيزدادوا إثماً، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم.

وترى إذا كان إملاء الكافر وإمهاله شراً له فموته خير، فهل إن المؤمن كما الكافر موته خير مهما كانت حياته أيضاً خيراً؟ نعم موته خير حين يزداد بإملائه شراً، وحياته خير حين يزداد خيراً، والرواية القائلة بأن موته خير(٢)

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٢) نور الثقلين ١ : ٤١٣ في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له: أخبرني عن الكافر الموت خير له أم الحياة؟ فقال: الموت خير للمؤمن والكافر، قلت:=

مؤولة على الحالة السائرة بين المؤمنين أنهم - في الأكثر - لا يزدادون بإملائهم إيماناً، بل إثماً، وعلى حدّ المروي عن سيد الساجدين عليه السلام «اللهم إن كان عمري بذلة في طاعتك فعمرني وإن كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبقني مقتك وغضبك».

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾:

﴿مَّا كَانَ﴾ من شأن الله ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصالحين الواقعيين ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ﴾ المتظاهرين بالإيمان ﴿عَلَيْهِ﴾ أن يدع صفّ الإيمان مختلطاً دون تمييز حيث يتوارى المنافقون وضعفاء الإيمان فيه وراء دعوى الإيمان ومظهره، فالدور الإيماني العظيم يقتضي الصفاء والتجرد والوفاء والتميّز والتماسك والتحيز، فلا يكون في صف الإيمان خلل ولا في بنائه بلبناته دخل.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ... حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾... ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[1].

= ولِمَ؟ قال: لأن الله يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٨] ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟...﴾ [آل عِمرَان: ١٧٨].

أقول: صحيح أن ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ ولكن الحياة الإيمانية الموفقة لصالح الإيمان وتقدمه تزيد خيراً فيما عند الله، فالتأويل الصالح ما ذكرناه في المتن.

وفيه عن مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف قال الضحاك بن عبد الله مرّت بنا خيل ابن سعد لعنه الله تحرساً وكان الحسين عليه السلام يقرأ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ...﴾.

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٠، ١٤١.

فالعلم هنا هو الميز هناك يعنيان ميز الخبيث من الطيب أن يعلم كلاً بعلامته، فيصهر الصف ليخرج منه الخبث، وأن يضغط لتتهاوى اللبنات المتهاوية، وأن تسلط عليه الأضواء لتكشف الدخائل والضمائر: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).

وإن لميز الخبيث عن الطيب أدواراً متدارجة متدرجة حتى يصل الدور إلى ميز مطلق مطبق زمن القائم المهدي عليه السلام، و«لا تمضي الأيام والليالي حتى ينادي مناد من السماء يا أهل الباطل اعتزلوا فيعزل هؤلاء من هؤلاء ويعزل هؤلاء من هؤلاء...»(٢).

وإن لزمن الغيبة دوراً عالياً لذلك الميز المبين حتى تبين أهل الحق عن أهل الباطل فيحكم الحق بصالحي أهله دون خلط ولا خبط ف «لتغربلن غربلة ولتبلبلن بلبلة حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم».

ذلك ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ المختص بربوبيته أو بوحيه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ أن يطلعه على غيب وحيه قضية رسالته ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ عالم الغيب طليقاً ﴿وَرُسُلِهِۦۚ﴾ عالمي غيب الوحي حقيقاً ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ بالله ورسله ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله حق تقاته ما استطعتم ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وهنا تناسب سلبية الاطلاع على الغيب ميز الخبيث من الطيب، فليس كما الله يعلم الخبيث من الطيب بالغيب، أن يطلعكم على هذا الغيب كما لا يطلعكم على سائر الغيب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ فيوحي إليه

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.

(٢) نور الثقلين ١ : ٤١٤ في تفسير العياشي عن عجلان بن صالح قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: . . . قال: قلت أصلحك الله يخالط هؤلاء هؤلاء بعد ذلك النداء؟
قال: كلا إنه يقول في الكتاب: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

بشطر الغيب من وحي الأحكام وميز الخبيث من الطيب، أحياناً بما يطلعهم الله عليها، وأخرى بما يوحي إليهم بسرّ البليات ومنه ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، فذلك من الغيب المستور، كيف ينهزم المؤمنون - أحياناً - وجاه الكافرين، وهم موعودون بالنصر؟ فيوحي إلى رسله ما يكشف الستار عن هذا الغيب ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ...﴾.

ذلك، إضافة إلى أن الميز بالامتحان أميز من الميز بالاطلاع دون امتحان، فقد يتبلور الإيمان في خضمّ الامتحان كما يتعور أخرى فيمن يدعيه خاوياً، فليعلم غيب سرّ الهزيمة بذلك الوحي، ثم يعلم غيب واقع الإيمان واللّاإيمان بذلك الابتلاء، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾:

كما أن إملاء الذين كفروا شرٌّ لهم، في أموالهم وأحوالهم، كذلك إملاء البخلاء في أموالهم، فرغم أنهم يحسبون بخلهم بما آتاهم الله من فضله خيراً لهم، إذ لا ينقص من أموالهم، فتصبح ركاماً من المال، ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ هنا حيث يحرّض عليهم المحاويج فيقضون عليهم يوماً ما، ويعيشونه أعداء طول حياتهم، ثم هو شرٌّ لهم في الأخرى حيث ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ طوق النار[1] كما طوقوا أنفسهم بها في الأولى بخلاً عن إنفاقها في سبيل الله

---

(١) الدر المنثور ٢: ١٠٥ - أخرج البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله ما لا فلم يؤد زكاته مثّل له شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بهزمتيه يعني شدقه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية».

وفيه أخرج ابن أبي شيبة في مسنده وابن جرير عن حجر بن بيات عن النبي ﷺ قال: «ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل ما أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلّا خرج له يوم القيامة من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه ثم قرأ هذه الآية». =

«لله» لا سواه ﴿مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بعد تقضّي الحياة الدنيا، فلماذا - إذاً - البخل بما آتاهم الله من فضله؟ فلو كانت هذه الأموال حصيلة مساعيهم - فقط - دون فضل من الله، لكان إنفاقها مفروضاً بأمر الله، فضلاً عن أنها - كواقع لا مردّ له - من فضل الله، كما أنّ طاقاتهم ومساعيهم أيضاً من فضل الله، ف ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1]!

وترى ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تخص فضل الأموال؟ وليس فضل الله خاصاً بالمال، بل إن فضل الحال علماً وعقلاً وما أشبه، إنه أفضل من فضل المال كما ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[2] تجعله الفضل الأفضل الكبير، ثم البخل به، المعني بالتهديد هنا، هو بخل بواجب الإيتاء والعطاء، مقدراً بأقدار الحاجات فردية وجماعية، فلا يختص ماله بالزكاة المصطلحة، اللهم إلّا إذا عني بالزكاة طليق واجب الإنفاق من مال أو حال وقيلة القائل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ دليل على اختصاصه بالمال حيث العلم لا يطوق به، مردودة بأن طوق العلم المتخلف أطوق من متخلف المال، مهما اختلف طوق عن طوق، أو تخلّف طوق العلم عن طوق علم القيل، حيث الأعمال الشريرة كلها أطواق: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[3]، وقد يروى عن رسول الله الهدى ﷺ: «من سئل عن علمه فكتمه ألجمه الله بلجام من النار يوم القيامة».

= وفي نور الثقلين ١: ٤١٤ في الكافي بسند متصل عن محمد بن مسلم قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فقال: يا محمد ما من أحد منع من زكاة ماله شيئاً إلّا جعل الله عزّ وجلّ ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب ثم قال هو قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ...﴾ يعني ما بخلوا به من الزكاة.

(١) سورة الحديد، الآية: ٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

وهنا تجاوب عام بين آية الطوق وسائر آيات الإنفاقات المفروضة، وآخر خاص بينها وبين آية الكنز: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1].

ومن الملاحم الغيبة في آية الطوق هي حشر عوامل الشر كما يحشر العامل بعمله، فهناك مثلث من الحشر تحضيراً حذيراً لثالوث الشرير ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة.

وإنما ﴿هُوَ خَيْرًا﴾ لا «هو خير» حيث «هو» ضمير فصل عن المفعول المحذوف المعروف من ﴿يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فلا يحسبنه خيراً[2].

وردّاً على زعم إن الله فقير، وإلا فلماذا يأمر بالإنفاق وله أن ينفق إذا يشاء؟ يقول:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾:

هؤلاء الأغبياء ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هم اليهود وكما قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[3] حيث حسبوا أنفسهم أغنياء في ذوات أنفسهم

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤، ٣٥.
(٢) فلأن للمبتدأ حقيقة وللخبر حقيقة وكون المبتدأ موصوفاً بحقيقة الخبر أمر زائد على حقيقة المبتدأ وحقيقة الخبر فلا بدّ من صيغة ثالثة دالة على هذه الموصوفية وهي هنا «هو»، والبصريون يسمون «هو» هذه فصلاً والكوفيون عماداً والثاني أحسن اعتماداً فالعماد هنا عماد الفعل لوقوعه عليه فهو مفعول.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وأغنياء عن الله، فلا حاجة لهم إلى جزائه ولا إلى أضعاف مضاعفة يعدها الله لمن ينفق في سبيله، ولقد قالوا بكل قحة مقالتهم هذه وأنه: ما بال الله يطلب إلينا أن نقرضه من أموالنا فيضاعفه لنا وهو ربا شدد النهى عنها والنكير عليها؟![1].

حاسبين بسوء تصورهم إن الله بحاجة إلى ما آتاهم من فضله، رأوا أولياء الله فقراء فقالوا: «لو كان غنياً لأغنى أولياءه ففخروا على الله بالغنى»[2]، ورأوا أن أفضلهم وهو محمد ﷺ قد يستقرضهم وسواهم لسد جوعته، فقد تقولوا قيلات وتفعلوا افتعالات لا نجدها بين سائر الأقوام حتى المشركين رغم أنهم أولاء أهل كتاب.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ نسخة طبق الأصل عما قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا

(١) الدر المنثور ٢: ١٠٥ عن ابن عباس قال دخل أبو بكر بيت المدارس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم فقال أبو بكر ويلك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وأنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه ما يتضرع إلينا وإنا عنه أغنياء ولو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله فذهب فنحاص فتخلص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر ما حملك على ما صنعت قال يا رسول الله قال قولاً عظيماً يزعم أن الله فقير وإنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه فوجد فنحاص فقال ما قلت ذلك فأنزل الله الآية.
وفيه أن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى فنحاص اليهودي يستمده وكتب إليه وقال لأبي بكر لا تفتت علي بشيء حتى ترجع إلي فلما قرأ فنحاص الكتاب قال قد أحتاج ربكم، قال أبو بكر فهممت أن أمده بالسيف ثم ذكرت قول النبي ﷺ لا تفتت علي بشيء فنزلت ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾ ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عِمرَان: ١٨٦].

(٢) في تفسير العياشي في الآية عن الصادق عليه السلام قال: والله ما رأوا الله حتى يعلموا أنه فقير ولكنهم رأوا أولياء الله فقراء فقالوا: لو كان غنياً لأغنى أولياءه ففخروا على الله بالغنى.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ و﴿سَنَكْتُبُ﴾... ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وترى هذه الكتابة إن كانت هي ذلك الاستنساخ فلماذا «سنكتب» مستقبلاً عن نزول هذه الآية وبينها وبينهم أمة من الزمن؟.

القصد من الكتابة هنا هو واقعها العذاب بعد واقع الكتاب، وكما تلمح له ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ فإن هذا القول لا دور لواقعه إلّا بعد الموت حيث هو بداية العذاب.

فكتابة قولتهم هذه وقتلهم الأنبياء بغير حق هي كتابة الملكوت أن تظهر القولة والقتلة وسائر القيلة والغيلة بمظهر الواقع المستور هنا المشهور هناك ف ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١).

ولقد حفظ تاريخ بني إسرائيل سلسلة عظيمة أثيمة من قتلهم الأنبياء بغير حق، آخرها محاولة اغتيال المسيح عليه السلام زاعمين انهم قتلوه، متباهين بذلك الجرم العظيم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(٢).

ذلك ومن قتلهم الأنبياء إذاعة أسرارهم المسبّبة لقتلهم(٣) حيث المسبب للقتل قاتل مهما اختلف قاتل عن قاتل.

﴿سَنَكْتُبُ... وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وهو نفسه المكتوب عليهم من أقوالهم وأعمالهم المسجلة في مختلف سجلّات الكون.

وترى كيف يتفوه عاقل مهما كان جاهلاً بهذه القولة القاحلة الجاهلة مهما كان مشركاً فضلاً عن اليهود وهم أهل كتاب؟.

قد تكون هذه منهم على سبيل الهزء والإلزام، أن لو كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

(٣) نور الثقلين ١ : ٤١٦ في أصول الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية فقال: أما والله ما قتلوهم بأسيافهم ولكن كانوا أذاعوا أمرهم وأفشوا عليهم فقتلوا.

وكان القرآن كتاباً من الله لما تطلّب إلى ربه قرضاً من عبيده، ولا نبيّه قرضاً منا، ولا أمته فقراء، ثم وليس بذلك البعيد جدّ هذه القولة ممن يقتلون الأنبياء بغير حق، وكما قالوا قيلات مثلها ينقلها القرآن كـ ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وأضرابها.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب وكتابة قولتهم وفعلتهم ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ منهما، فأصبحتا منسوختين في سجلات الأقوال والأفعال، ثم ظاهرتين يوم الحساب بواقعهما، فليس العذاب - إذاً - إلّا ما قدمت أيديكم كما قدمت فـ ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1] - ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2].

فـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ بـ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فلو كان ظلّاماً للعبيد لما عذبكم بما عذبتموهم، فترك العذاب عمن عذب العبيد ليس ظلماً، بل التارك ظلام للعبيد، فإنهم ظلموا على علمه وقدرته، وقد وعد الظالم أن يعذبه والمظلوم أن يرحمه و﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[3]، فترك العذاب إذا ليس ظلماً بسيطاً، بل التارك - إذاً - ظلام للعبيد علماً وعملاً وقولاً.

ومن ناحية طليقة لهذه الجملة الجميلة ليس الله بظلام للعبيد الظالمين كما ليس بظلام للعبيد المظلومين، أما الظالمين فـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ولا تظلمون نقيراً، وأما المظلومين فلأنه لا يترك الظالمين سدى يفلّون، هضماً لحقوق المظلومين وعطفاً على الظالمين!.

وكضابطة ثابتة من عدل الله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[4].

---

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة ق، الآية: ٢٩.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

ثم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ هي من دلائل الاختيار، فـ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يحلّق سلب الظلم على كافة حقول الجزاء، فلو كان العبد مسيّراً غير مخيّر لكان الله ظلاماً بأمره أو نهيه فيما لا يستطيع العبد وهو تعالى فاعله!، ثم بعقابه على العصيان المسيّر فيه، ولو أن الله لم يعاقب الظالم بما قدّمت يداه لكان ظلاماً بالنسبة للمظلومين، ولو عاقب دون ظلم لكان ظلاماً، ولو عاقب بأكثر مما قدمت يداه لكان ظلاماً، فمربع الظلم عبر عنه بـ «ظلام» وما أحسنه تعبيراً!.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾:

أتراهم صادقين في ذلك العهد؟ فكيف يؤمنون بمحمد ﷺ وأضرابه من رسل لم يأتوا بقربان تأكله النار! أم كاذبين؟ فما هو - إذاً - دور ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ وما قولهم هنا إلّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾!.

﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ ينقسم إلى طليق العهد وأصله، فطليقه مكذوب لمكان ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وإن كثيراً من الرسل المزودين بسائر الآيات لم يأتوا بهذه الآية، وأصله بالنسبة لبعض النبيين صادق لمكان ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ لا كأصل تتبناه الرسالة، فلولاه لما تثبت رسالة أبداً، فإنما كان ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ من عديد الآيات الرسالية دون أن تحصرها بنفسها، وإلا فما هي الحاجة إلى سائر الآيات الرسالية، وكثير من المرسلين لم يأتوا بقربان تأكله النار.

فإنما القصد من الآية الرسالية دلالتها على الرسالة المدّعاة، سواء أكانت قرباناً تأكله النار أم أية آية من آياتها كيفما كانت وأينما حصلت.

ثم لو كانت ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ هي الآية الوحيدة المثبتة للرسالات وسائر الآيات وهيدة، فلا يصدّق محمد ﷺ إذ لم يأت بها، فلم كذبتم وقتلتم رسلاً جاءتكم بالبينات وبالذي قتلتم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك العهد المدعى.

وتراهم هؤلاء الحضور المخاطبين زمن نزول أمثال هذه الآيات، هم أنفسهم شاركوا سابقيهم القتلة في قتل النبيين؟ ولمّا يولدوا وقتئذ إلّا بعد آلاف من السنين!.

أنهم برضاهم قتلهم وعدم براءتهم من قتلتهم يحسبون في عدادهم ويحاسبون بحسابهم اللهم إلّا في حكم القود وما أشبه(١).

ثم ترى ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ تسمح لقرابين الأضحى في منى أن تأكلها النار أو الأرض اتّباعاً للسُّنة الرسالية السابقة وإن لم تحلق على كلّ الرسالات؟.

---

(١) نور الثقلين ١ : ٤١٦ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لعن الله القدرية لعن الله الخوارج لعن الله المرجئة لعن الله المرجئة قال قلت: لعنت هؤلاء مرة مرة ولعنت هؤلاء مرتين؟ قال: إن هؤلاء يقولون: إن قتلنا مؤمنون فدمائنا متلطخة بثيابهم إلى يوم القيامة إن الله حكى عن قوم في كتابه ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ . . .﴾ قال: كان بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام فألزمهم الله القتل برضاهم ما فعلوا وفي تفسير العياشي مثله إلّا أن بعد ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قال: فكان بين الذين خوطبوا بهذا القول وبين القاتلين خمسمائة عام فسماهم الله قاتلين برضاهم بما صنع أولئك.

وفيه عن محمد بن هاشم عمن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية. . وقد علم أن قالوا: والله ما قتلنا ولا شهدنا؟ قال: وإنما قيل لهم ابرؤوا من قتلتهم فأبوا.

وفيه عن محمد بن الأرقط عن أبي عبد الله عليه السلام قال لي تنزل الكوفة؟ قلت: نعم، قال: فترون قتلة الحسين عليه السلام بين أظهركم؟ قال قلت جعلت فداك ما بقي منهم أحد، قال: فإذن أنت لا ترى القاتل إلّا من قتل أو من ولى القتل؟ ألم تسمع إلى قول الله: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ . . .﴾ ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ فأي رسول قبل الذي كان محمد ﷺ بين أظهركم ولم يكن بينه وبين عيسى رسول، إنما رضوا قتل أولئك فسموا قاتلين.

كلّا، حيث النار التي كانت تأكل قربان الرسالة كانت ربانية تدليلاً على صدق الرسالة، فلم يكن يسمح وقتذاك أن تحرق القرابين فضلاً عن شرعة القرآن المصرحة بـ «فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[١] فـ «قد جعلت قربان أمتك في بطون فقرائها ومساكينها»[٢].

ثم إن «قرباناً تأكله النار» لم يأت في في القرآن إلّا مرة يتيمة هي هذه، ثم لا ثانية لها إلّا قربان ابني آدم ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾[٣].

ذلك مع إتيان الكثير الوفير من سائر الآيات البينات، مما يدل على أصالتها دون القربان، فهو - إذاً - آية هامشية جانبية لبعض المرسلين، دون أن يحتل القمة أو يساوي أم يسامي سائر الآيات الرسالية، وقد تلمح له مقابلة ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ بـ «البينات» وكأنه ليس من البينات أم هي بيّنة هامشية مقترحة، فلم تكن آية أصيلة، وإنما هي آية أحيانية مقترحة على سبيل التعنّت دون الاسترشاد، فكما لم يؤمنوا بمن أتى بها من الرسل السابقين كذلك لم يؤمنوا بهذا الرسول حيث لم يأت بها - على سواء -.

كما ومن العجاب أننا لا نجد «قرباناً تأكله النار» في التوراة - على تحرّفها - كآية رسالية لرسول فضلاً عن كونها عهداً مستمراً مع الرسالات

(١) سورة الحج، الآية: ٢٨.

(٢) نور الثقلين ١ : ٤١٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عن الحسين بن علي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: قال الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم لما أسري به وكانت الأمم السالفة تحمل قرابينها على أعناقها إلى بيت المقدس فمن قبلت ذلك منه أرسلت إليه ناراً فأكلته فرجع مسروراً ومن لم أقبل ذلك منه رجع مثبوراً وقد جعلت قربان أمتك في بطون فقرائها ومساكينها فمن قبلت ذلك منه أضعفت ذلك أضعافاً مضاعفة ومن لم أقبل ذلك منه رفعت عنه عقوبات الدنيا وقد رفعت ذلك عن أمتك وهي من الإصار التي كانت على الأمم قبلك.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

كلها، فأين ذلك العهد المدعى، الحاجب بينهم وبين تصديق هذه الرسالة السامية؟!.

ذلك! ومن ثم فهذه الدعوى في نفسها باطلة، فإن دلالة سائر الآيات المعجزات هي لأقل تقدير كدلالة قربان تأكله النار، فكيف يعهد الله إلى بني إسرائيل ألا يؤمنوا لرسول إلّا أن يأتيهم - فقط - بهذه الآية، وقد أرسل رسلاً بغير هذه الآية، أم وأرسلهم بهما، والآية الرسالية ذات دلالة ذاتية على رسالة الآتي بها، فكيف يبعث الله بها ثم يعهد إلى قوم ألّا يؤمنوا لرسول أتى بها، وذلك جمع بين متناقضين!.

فيا لها من مجابهة قوية تكشف عن اتجاهة غوية لهم، وعن كذب وافتراء منهم على الله وإصرارهم على كفرهم، وهنالك تأتي تسلية حنونة لخاطر الرسول الأقدس ﷺ أن تكذيب الرسل يحلق على كلّ الأدوار الرسالية فليس هو بدعاً من الرسل أن يكذّب.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾:

فالمصيبة إذا عمت طابت وخفت كما إذا خصت هابت وثقلت، و«كذبوك» هنا تعم أصل الرسالة المحمدية، وأن جمعاً من الرسل لم يأتوا بتلك الآية المقترحة، وأنهم كذبوا جمعاً منهم أتوا بها، فقد تشمل «كذبوك» ذلك الثالوث كله مهما كان أصل النبوة رأس الزاوية.

ثم «البينات» المزوّد بها كلّ الرسل هي الآيات البينات الرسالية التي أتت بها الرسل، والزبر جمع الزبور من الزبر وهو الزجر بحكمة وموعظة وتخويف وتحذيركما نراها في زبور داود عليه السلام.

وأما ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ فقد يعني كتاب الشرعة الأصيلة المنيرة على

البينات وعلى الزبر ككتاب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وفوق الكل القرآن العظيم، ولكن «من قبلك» يخرجه عن هذا المجال.

وقد تلمح وحدة «الكتاب» أمام جمعية ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أنه أصل الزبور والبينات، وكما أتى مفرداً في (٢٣٠) موضعاً ولم يأت جمعاً إلّا في ثلاث.

ثم الفصل بين البينات والزبر والكتاب المنير مما يدل على فصل الآيات المعجزات لسائر المرسلين عن زبرهم وكتاباتهم، والقرآن بما يجمع هذه الثلاث يمتاز عن كلّ كتب السماء بهذه الجمعية البارعة، لحدّ أصبح آية رسالية قبل كونه كتاب الرسول، حيث يثبت رسالة من جاء به، ومن ثم هو تبيان لكل شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة!: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾[١].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾:

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مهما شملت كلّ النفوس - الإنسانية والجنية والملكية وسواها من الأحياء، رسولاً وسواه وملك الموت بمن سواه[٢] - ولكنها

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٢) وهذا خلافاً لزعم الخليفة عمر حيث كان يهدد القائل أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مات وقد مات. وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسّه ولا يرون شخصه فقال: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل ما فات فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب فقال علي عليه السلام: هذا الخضر، أقول وفي نور الثقلين مثله عن أبي عبد الله عليه السلام بألفاظ عدة حفاظاً على أصل المعنى.

وفي نور الثقلين ١: ٤١٩ عن الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن أبي المعزا قال حدثني يعقوب الأحمر قال دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام نعزيه بإسماعيل فترحم عليه ثم قال: إن الله عزّ وجلّ نعى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم =

ليست لتشمل الذات القدسية الإلهية مهما يطلق عليها ﴿نَفْسٍ﴾ حيث لم تأت له سبحانه إلّا مضافة «نفسك - نفسي» تعنيان ذاته تعالى وتقدس، وأما النفس دون إضافة فلا تطلق عليه أبداً، كما «هو الحي الذي لا يموت» وسائر البراهين عقلية ونقلية هي مجندة لاستحالة موته تعالى[1].

وذوق الموت يختلف عن الموت الفوت، فإنه ذوق لانفصال الروح عن البدن وهي حية في بدن آخر في البرزخ، ولولا حياة النفس الإنسانية حين الموت لما كان لذوقها الموت من معنى فإنما النفس - وهي الروح - تذوق موت البدن وموتها عن البدن انفصالاً عنه دون فوت.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تحصر توفية الأجور بيوم القيامة، فطليق الأجر يرى في الأولى بسيطاً وفي البرزخ وسيطاً: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2].

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ إزالة عن معرة فيها إذا ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ

= نفسه فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ثم أنشأ يحدث فقال: إنه يموت أهل الأرض حتى لا يبقى أحد ثم يموت أهل السماء حتى لا يبقى أحد إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل عليهم السلام قال: فيجيء ملك الموت حتى يقوم بين يدي الله عز وجل فيقال له: من بقي؟ وهو أعلم - فيقول: يا رب لم يبق إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل فيقال له: قل لجبرئيل وميكائيل فليموتا، فيقول الملائكة عند ذلك يا رب رسوليك وأمينيك؟ فيقول: إني قد قضيت على كل نفس فيها روح الموت ثم يجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيقال له: من بقي؟ - وهو أعلم - فيقول: لم يبق إلّا ملك الموت وحملة العرش فيقول: قل لحملة العرش فليموتوا، قال: ثم يجيء كئيباً حزيناً لا يرفع طرفه فيقال: من بقي؟ - وهو أعلم - فيقول: يا رب لم يبق إلّا ملك الموت فيقال له مت يا ملك الموت فيموت ثم يأخذ الأرض بيمينه والسماوات بيمينه ويقول: أين الذين كانوا يدعون معي شريكاً؟ أين الذين كانوا يجعلون معي إلهاً آخر؟.

(١) لنا قول فصل على ضوء نظيرة الآية في الأنبياء (٣٥) فراجع.

(٢) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[١] ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بعد زحزحته عن النار، ﴿فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ حياة ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ حيث يزينها لأهليها الغرور كأنها أصل الحياة لحدّ يُشترى بها الحياة الأخرى معاكسة ظالمة وقسمة ضيزى، أم ولأن الغرور لا متاع له على الحقيقة، وإنما يراد به أن ما يستمتع به الإنسان المغرور من حطام الدنيا ظل زائل وخضاب ناضل، زيّنه له الغرور كأنه متاع يقصد وحياة تعتمد، وهو متاع يشرى به الحياة الآخرة لمن أبصر بها فبصرته ولم يبصر إليها فأعمته.

وقد يدل التحليق العام في ذوق الموت لكل نفس أن القتيل ميت مهما كان شهيداً أو سواه، فبين الموت والقتل عموم مطلق.

ثم والزحزحة عن نار البرزخ والأخرى تبدأ من نيران الشهوات في الدنيا وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ «أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأ وإن شئتم ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾»[٢] و«من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[٣].

ويقول حفيده الصادق عليه السلام «خياركم سمحاءكم وشراركم بخلاءكم ومن خالص الإيمان البر بالإخوان والسعي في حوائجهم وإن البار بالإخوان ليحبه الرحمن وفي ذلك مرغمة للشيطان وتزحزح عن النيران ودخول الجنان»[٤].

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

(٢) الدر المنثور ٢: ١٠٧ أخرج جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: . . . وأخرج ابن مردويه مثله عن سهل بن سعد عنه ﷺ وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «الغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا بما عليها ولقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا بما عليها».

(٣) المصدر أخرج أحمد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: . . .

(٤) نور الثقلين ١ : ٤٢٠ في الكافي سهل بن زياد عمن حدثه عن جميل بن دراج قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: خياركم. .

والزحزحة عن النار تصوّر لنا جاذبية لتلك النار، جاذبية منهومة تجذب إليها ناهمة الأخفّاء، أفليست لأصل النار - وهي الشهوة والمعصية - جاذبية، أفليست النفس بحاجة إلى ما يزحزحها عن نار الشهوة، فكذلك نار البرزخ والقيامة طبقاً عن طبق فإنهما من خلفيات نار الدنيا، فكل زحزحة عن نار هي إدخال في جنة على قدرها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

وقد تكون قضية الصبر والتقوى السكوت أمام الأمور الهاجمة، فالسكوت، كما قال علي بن الحسين عليه السلام «لوددت أنه أذن لي فكلمت الناس ثلاثاً ثم صنع الله بي ما أحب - قال بيده على صدره - ثم قال: ولكنها عزمة من الله أن نصبر ثم تلا هذه الآية»[1].

وأخرى تكون قضيتها الكلام رداً على شطحات وشبهات جدالاً بالتي هي أحسن إن أمكن، وثالثه قتالاً بكل صمود حفاظاً على هالة الإيمان وحالته فردياً أو جماهيرياً.

ولقد أتى عزم الأمور في حقل الدفاع عن الدين، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2]، أم - بالنهاية - قتالاً في سبيل الله.

إذاً فالصبر في حقل المواجهة لأذى الأعداء هو عدم التفلُّت عما أنت عليه من إيمان، وعدم التلفت عما يتوجب عليك في المواجهة سلباً وإيجاباً من قضايا الإيمان، فليس هو صبر الفشل والبتل والكسل!، فإنما هو صبر البطل كما تقتضيه بطولته الإيمانية.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) نور الثقلين ١: ٤٢١ في تفسير العياشي عن أبي خالد الكابلي قال قال علي بن الحسين عليه السلام: . . .

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٧.

مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾:

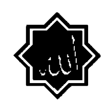
هذا توطين لخاطر النبي الأقدس، القريح الجريح - والذين معه - من أذى الكافرين، أنه لا يختص بانهزام أحد وقيلات المنافقين والذين في قلوبهم مرض وويلات ضعفاء الإيمان، بل هو مستمر على مدار الزمن.

فالبلاء النازل فجأة فجيعة لا تحمل، ولكن النازل على علم به وترقب له ليس بتلك الصعوبة الفاجعة، وهكذا يوطن الله قلوب المؤمنين على النوازل، لكي يستعدوا لها، حين تتناوشهم الذئاب بالأذى، وتعوي حولهم بالدعايات المضللة، وحين يصيبهم الابتلاء منهم والفتنة.

فـ ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أيها المؤمنون حسب قابلياتكم وفاعلياتكم ودرجاتكم ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ - ﴿أَمْوَٰلِكُمْ﴾ التي حصلتم عليها في تحصيلها وصرفها وإنفاقها، و﴿أَمْوَٰلِكُمْ﴾ التي تحاولون في تحصيلها «أنفسكم» في ذواتكم ثم ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ فيمن يتصلون بكم بقرابة أو نسبة أو اتصال أخوي إيماني ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كاليهود والنصارى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ - لتسمعن - ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ من لغو القول الزور والغرور، ومن ألوان التهم والشبهات المفتّتة لعضد الإيمان والدعايات الهارفة الخارفة الخواء الهادفة القضاء على الإسلام، وكما نراها ونسمعها من المبشرين المسيحيين ومن الصهاينة المجرمين، سلسلة موصولة مع الزمن لكي ينالوا من شرعة القرآن والمتشرعين بها كلّ نيل ويميلوا بهم كلّ ميل.

تلك الدعايات الواسعة من كتاباتهم وأبواقهم الجهنمية ضد الإسلام ومعهم استعمار الشرق والغرب، ولهم طائلة الأموال والعدة والعدة المديدة، ولكن: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على أذاهم صبراً جميلاً فلا تتفلتوا عن صامد الإيمان ولا تظنوا بالله ظن الجاهلية، صبراً فيه الحفاظ على صالح

الإيمان والجدال على طالح الكفر، لا صبر التخاذل والتحمل وأنتم قادرون على الدفاع، بل هو صبر أمام التعاضل ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ في صبركم محاظيره، وتتقوا الله في ذلك الموقف الحرج المرج «فإن ذلك» الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: عزم في الأمور الخطرة وعزم لها وعزم إليها، فالعزم على آية حال هو للموطن نفسه على الأمور العازمة، أن يتغلب الإنسان على كلّ حادثة وكارثة دون أن تتغلبه، أم هما ككفتي الميزان تتجاوبان، فالأمور التي تقصد الإنسان لتنال منه صالح الإيمان عقيدة وعملاً، لا بدَّ من العزم والصمود أمامها لكي لا تتغلب عليه لأقل تقدير، أو يتغلب عليها لأكثر تقدير، لا أن يغلب متفلتاً عن الصبر أمامها والتقوى في خضمها.



﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ
فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾
لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا
تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾
ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ
﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ
﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ
رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾
رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ
ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ
أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي
سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا
يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ
وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

«و» اذكر «إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب» وهم حملته العلماء دون الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني، حيث التبيين لا دور له إلّا بعد التبينّ وليس ذلك إلّا للعلماء.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ واللّام هنا في موضع القسم تأكيداً لمدخولها، والناس هم أعم من الناس الكتابيين والمشركين والمسلمين مهما اختلفت فاعلية التبيين فيهم، ومما تدل عليه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ وجوب تبيين الكتاب وتفسيره حسب نصه وظاهره المستقر، تبييناً لبعضه ببعض دون نثره نثر الدقل وضرب بعضه ببعض، فإنه ليس من تبيين الكتاب وتفسيره، بل هو تفسير للكتاب عن مراده وتبيين لآراء الذين أوتوا الكتاب، وهو كتمان للكتاب عن مراداته ومقاصده.

ترى ولماذا «لا تكتمونه» نهياً وقضية صحيح الأدب «لا تكتموه»؟ لأن ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ ليس أمراً حتى يعطف عليه النهي، إنما هو إخبار آكد من الإنشاء، فكذلك «لا تكتمونه» عطفاً كمعطوف عليه.

وقد تكون ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ حالاً عن واجب التبيين، تبيننا حال عدم الكتمان، فقد لا يبيّن الحق، وأخرى يبين ويكتم واقع المعني منه تحريفاً في لفظه أو تجديفاً في معناه.

فلا يكفي تبيين الحق لفظياً حال كتمان صالح معناه، وإنما هو تبيين له متين دون خفاء وإخفاء ذلك، ولكن ﴿فَنَبَذُوهُ﴾: ميثاق الكتاب ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ نبذاً لتبيينه كأصل، أو نبذاً لمعناه كما يعني بعد تبيين الأصل، وكلاهما كتمان للحق مهما اختلفا في أصل وفصل، والنبذ وراء الظهور يعني أنهم تغافلوا عن ذكره وتشاغلوا عن فهمه وتفهيمه فأصبح كالشيء الملقى خلف الظهر لا يراه فيذكره ولا يلفت إليه نظره.

﴿فَنَبَذُوهُ... وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مالاً ومنالاً في قيادات زمنية أو روحية وكل ثمن الدنيا أمام الحق قليل ضئيل ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ من ثمن بخير ما يبيعون من مثمن.

إنهم نبذوا ذلك الميثاق وراء ظهورهم بين مثلث الناس، ناسهم الأميين، والناس المشركين والناس المسلمين، ومن أهم ما نبذوه البشارات المحمدية المودوعة في كتابات السماء تحريفاً وتجديفاً أم إخفاء وكتماناً لها عن بكرتها[١].

هنا ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ حين تعني أهل الكتاب الاصطلاحيين، بأحرى تعني أهل القرآن المسلمين، فعلى علماء الإسلام أن يمحوروا القرآن في كلّ علومهم ومعارفهم، ثم عليهم التبيين دون كتمان، فالكاتمون كتاب الله في ثالوثة: تعلماً وتعليماً وبياناً صالحاً لما يعلمونه، إنهم هم الملعونون أياً كانوا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[٢] وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ قوله: «من كتم علماً عن أهله ألجم بلجام من نار»[٣]، وعن

(١) لمعرفة شاملة بما افتعلوه راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٣) تفسير الفخر الرازي ٩: ١٣١ وفيه حكي أن الحجاج أرسل إلى الحسن وقال: ما الذي =

علي عليه السلام: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ به من منكر بديل المعروف ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ من معروف، أولئك الحماقى الأنكاد عليهم وزران اثنان: الفرح بفعلهم المنكر، وحبهم أن يحمدوا بما لم يفعلوه من المعروف وهذا كفر ذو بعدين بعيدين عن أصل الإيمان حيث الفرح بالعصيان نكران للعقاب كما الحمد بما لم يفعل تحريف لموقف الثواب عن الصواب.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ﴾ كما يزعمون، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والمفازة هي الأرض البعيدة التي إذا قطعها الإنسان فاز بقطعها وأمن من خوفها.

و﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ تشمل إلى سلبية الأفعال المحمودة عن بكرتها، سلبية العدّة والعدّة فيها، أنهم فعلوا خيراً ما ويحبون أن يحمدوا بأكثر مما يستحقون ولم يفعلوا القدر الذي يستحق الأكثر، فمهما كان الأول ظلماً طليقاً فهذا ظلم نسبي.

ثم إن مناسبة السياق وإطلاق الآية تصدق الرواية القائلة أنهم اليهود

= بلغني عنك؟ فقال: ما كل الذي بلغك عني قلته ولا كل ما قلته بلغك، قال: أنت الذي قلت النفاق كان مقموعاً فأصبح قد تعمم وتقلد سيفاً؟ فقال: نعم، فقال: وما الذي حملك على هذا ونحن نكرهه؟ قال: لأن الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه. وفيه قال قتادة: مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب، وكان يقول: طوبى لعالم ناطق ولمستمع واع، هذا علم علماً فبذله وهذا سمع خيراً فوعاه.

والمنافقون[١] وكذلك غيرهم من نصارى ومسلمين وإن لم ترد به الرواية، هؤلاء الذين يفرحون بما أتوا من نقض الميثاق في تبيين الكتاب وهم - مع ذلك - يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من ميثاق الكتاب.

وذلك حسب أصلهم النحس النجس: «الغاية تبرر الوسيلة» فالحفاظ على الشرعة الإسرائيلية، أو الحفاظ على باطن الكفر وظاهر الإيمان، يبرر عندهم التخلف عن ميثاق الكتاب فرحين وهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا: فهم من الأخسرين أعمالاً: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[٢].

وقد تظل الآية تذم بطليق مضمونها كلّ هؤلاء الذين يفرحون بما أتوا من نقض الميثاق الرباني، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، تلبيساً على المجاهيل الأغفال، فارحين فارهين بذلك الإغفال، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ على حدّ زعم هؤلاء المجاهيل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وكم من فرق فارق بين هؤلاء النحسين وبين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[٣] فقد تعتبر طائفة أو أشخاص أنفسهم من الناجين مهما ظلموا أو بغوا أو طغوا، وكأن الله يختصهم برحمته دونما شرط شرطه على سائر عباده كما ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ

---

(١) الدر المنثور ٢: ١٠٨ - أخرج جماعة عن ابن عباس سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه.
وفيه أخرج جماعة عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت الآية.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ﴾[(١)] ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ . . .﴾[(٢)].

كلّا! ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(٣)] دون ما ادعى فـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾[(٤)] فإنهم لم يكسبوا إلّا خيراً فلماذا يرهنون؟!.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾:

﴿وَلِلَّهِ﴾ لا سواه ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۗ﴾ ومِلكهما ضمن مُلكهما بما فيهما وما بينهما ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من فعل أو شيء ممكن ذاتي ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ﴾ الله ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وإن في مخلوقية السماوات والأرض، بما لهما من مختلف الصنع المنضّد، «و» في «اختلاف الليل والنهار» وهو إتيان كلّ خلف الآخر بصورة منظمة ﴿لَآيَاتٍ﴾ على وجود الخالق وتوحيده وقاصدية خلقه ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ألباب لعقولهم حيث القشور مقشّرة.

ذلك - لأن الخلق دليل الخالق واختلاف الخلق دليل قصده وتصميمه، ونضد الخلق دليل توحيده.

وهذه حقيقة هي حقيقة بالتفكير الكثير، كمقوم قائم من مقومات التصور الإسلامي السامي عن الكون كله، والصلة الأصلية بينه وبين الإنسان فطرياً وعقلياً وحسياً وعلمياً، حيث يدل على ضوء هذه الجهات الأربع الإنسانية

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٤) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

على خالق الكون من جهة وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبه من غاية وقصد وحكمة من أخرى.

وإن في ذلك لآيات لأولي الألباب، آية الوحدة والحكمة والحيطة العلمية وفي القدرة الخلاقة أماهية من آيات الربوبية، وقد اتجهوا إليه سبحانه بدعاء خاشع منيب - والله من ورائهم رقيب مجيب - وهم يتدبرون كتاب الكون المفتوح بكل مصاريعه، متأملين ما ينطق به آيات وما يوحي به من حكم وغايات.

فالعقول القشرية تكتفي بألفاظ الإيمان، ومن ثم بعقيدة الإيمان والفكر دون العمل بالأركان، فأما أولو الألباب فهم يصدقون باللسان معتقدون بالجنان وعاملون بالأركان كما جمعت لهم هذه الثلاث في هذه الآية، ابتداءً بظاهر اللسان ثم التصديق بالجنان ثم التحقيق بالأركان، فإذا كان اللسان مستغرقاً في الذكر، والأركان في الشكر، والجنان في الفكر، كان العبد مستغرقاً بكل كيانه في العبودية وأصبح من أولي الألباب...

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ قالاً وحالاً وأفعالاً في مثلثة الأحوال: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ فإنها تحلق على كافة الأحوال فيصبحون هم أنفسهم بكل حالاتهم ذكر الله، ومن مخلفاته التفكر في خلق الله، ومن منتجات ذلك التفكر ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ﴾:

من باطل الخلق وعاطله، فحين ذكرناك في أحوالنا كلها وفكرنا في صالح خلقك وآمنا أنك ما خلقت هذا باطلاً فأيقنا بالمعاد كما أيقنا بالمبدأ، وحقّقنا العقيدة والعمل بما بين المبدأ والمعاد، إذاً ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾،

ذلك! و«لا يزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً»[١].

ولأن الصلاة هي أفضل ذكر الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[٢] فقد تعني الحالات الثلاث لذكر الله الحالات المترتبة في الصلاة «قياماً» إن أمكن، ثم «قعوداً» حين لم يستطع على القيام ثم ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ على أقل تقدير حين لا يستطيع على القيام فيها ولا القعود، فقد يستفاد منها المروي «لا تترك الصلاة بحال» وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب»[٣].

ولقد وردت بشأن هذه الآيات روايات ما أرواها وأروعها، منها قول الرسول ﷺ بعد بالغ تعبده «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[٤] و«ويل

(١) نور الثقلين ١: ٤٢٣ في آمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى الباقر عليه السلام قال: لا يزال المؤمن... أن الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ...﴾.

(٢) سورة طه، الآية: ١٤.

(٣) الدر المنثور ٣: ١١٠ - أخرج البخاري عن عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال:...

وفيه في لفظ آخر عن عمران بن حصين قال سألت النبي ﷺ عن صلاة الرجل وهو قاعد؟ فقال: «من صلى قائماً فهو أفضل ومن صلى قاعداً فله نصف أجر القائم ومن صلى نائماً فله نصف أجر القاعد».

أقول: هذا يختص بصلاة الليل وأما سائر النوافل فلا صلاة فيها نائماً، وأما الفرائض فلا تصح إلّا قائماً اللهم إلّا للمضطر، وفي نور الثقلين ١: ٤٢٣ في الكافي علي عن أبيه عن ابن محبوب عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: الصحيح يصلي قائماً وقعوداً، المريض يصلي جالساً و﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ الذي يكون أضعف من المريض الذي يصلي جالساً.

أقول: قائماً وقعوداً للصحيح هو على الصحيح حالتا الصلاة فإنها بين قيام وقعود، والقعود هو الذي بعد قيام، دون الجلوس فإنه عن النيام أو هو أعم.

(٤) المصدر أخرج جماعة عن عطاء قال قلت لعائشة أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ قالت: وأي شأنه لم يكن عجباً أتاني ليلة فدخل معي في لحافي ثم قال: ذريني أتعبد لربي فقام فتوضأ ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم رفع =

لمن لاكها بين فكيه فلم يتأمل فيها»[١].

فالتفكر التفكر، فإنه حياة قلب البصير، و«فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة»[٢] ولكن فيم؟ في خلق الله وليس في ذات الله وكما يروى عن رسول الله ﷺ [٣] ومن لطيف الجمع في هاتين الآيتين الجمع بين أطوار العبودية الثلاثة: الذكر باللسان حيث يشمله وسائر الذكر ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ والعمل بالأركان ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ والتصديق بالجنان «ويتفكرون» إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، وهذه الثلاث تحلّق على كيان الإنسان ككل.

هنا ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ يعني لغواً دون هدف صالح وهو لعب

= رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ﷺ ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً ولم لا أفعل وقد أنزل عليّ هذه الليلة ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ ثم قال: ويل..».

(١) مجمع البيان وقد اشتهرت الرواية عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قال: ويل...
وفي نور الثقلين ١ : ٤٢٣ عن الكافي بإسناده إلى عبيدة عن أبيه وأبي رافع كلام يحكيان فيه ذهاب علي عليه السلام بالفواطم من مكة إلى المدينة ملتحقاً بالنبي ﷺ حين هاجر ومقارعته عليه السلام الفرسان من قريش - وفيه - ثم سار ظاهراً قاهراً حتى نزل ضجنان فلزم فيها قدر يومه وليلته ولحق به نفر من المستضعفين المؤمنين وفيهم أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ فصلى ليلته تلك الليلة، والفواطم أمه بنت أسد وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت الزبير، يصلون ليلتهم ويذكرونه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فلن يزالوا كذلك حتى طلع الفجر فصلى عليه السلام صلاة الفجر ثم سار لوجهه فجعل وهم يصنعون ذلك منزلاً بعد منزل يعبدون الله عزّ وجلّ ويرغبون إليه كذلك حتى قدم المدينة وقد نزل الوحي بما كان من شأنهم قبل قدومهم ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ - إلى قوله -: فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ...﴾ [آل عِمرَان: ١٩١-١٩٥].

(٢) الدر المنثور ٢: ١١١ - أخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ...

(٣) المصدر أخرج جماعة عن عبد الله بن سلام قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون فقال: «لا تفكروا في الله ولكن تفكروا فيما خلق»، وأخرج مثله عن عمرو بن مرة وعثمان بن أبي دهرين وابن عمر وابن عباس عنه ﷺ ما في معناه.

بالخلق ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾[(١)].

«سبحانك ربنا» من اللعب واللغو، فسبحانك من عدم إقامة يوم القيامة الجزاء ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ التي هي للناكرين حقّ الخلق والمعاد، ونحن معترفون به وعاملون له داعين إليه.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢)﴾:

أترى ربنا تدخلنا النار ونحن عبيدك الطائعون لك العابدون إياك؟ وذلك خزي والمؤمن عزيز؟!.

إنه الخوف من خزي النار قبل خوف النار، والخزي فيها إنما هو للبعيدين عن ساحة قدسه تعالى، فإنما يهمهم أولاء الداعين قربه ورضاه إن في الجنة أو في النار، فهم أشد حساسية في بعدهم عنه تعالى من دخول النار، وبقرنهم بالبعدين عن الله من نفس النار، فـ «العار والتخزية يبلغ من ابن آدم يوم القيامة في المقام بين يدي الله ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار»[(٢)].

ولأن المؤمن لا يخزى يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[(٣)] إذاً فهو لا يدخل النار مهما كان مؤقتاً يخرج بعده، فأصحاب الكبائر من المؤمنين لا يدخلون النار، إنما يعذبون في البرزخ أو يشفع لهم يوم القيامة في بقية باقية من كبائرهم.

فالخزي الدخول في النار يختص بالكافرين كما ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

---

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٢) الدر المنثور ٣: ١١١ - أخرج أبو يعلى عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: العار... وفيه أخرج أبو بكر الشافعي في رباعياته عن أبي قرصافة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم لا تخزنا يوم القيامة ولا تفضحنا يوم اللقاء».

(٣) سورة التحريم، الآية: ٨.

﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[١] طالما الكافرون ليسوا على سواء في عذاب النار مادة ومدة، فمنهم من يخرج عنها إلى الجنة إذ لم يمحض الكفر محضاً وله حظ من الإيمان وهو التوحيد، وآخرون يظلون فيها خالدين أبداً ثم يخمدون مع خمود النار.

ثم المنفي عن المؤمنين هو الخزي يوم القيامة، وأما البرزخ فقد يخزي المؤمن بالكبائر لتعزيزه يوم القيامة بدخول الجنة.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾:

أوّل مناد هنا ينادي للإيمان هو الرسول المنادي بالقرآن: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[٢] ثم خلفائه المعصومون عليهم السلام، ثم العلماء الربانيون.

ولأنهم كلهم ميتون، فالمنادي للإيمان على مدار الزمان هو القرآن، نودي به أم لم يناد به، فإنه هو الناطق بالحق لمن ألقى السمع وهو شهيد، مهما كان في نداء من يعرف القرآن رسولياً أو رسالياً دخلاً في تفهم القرآن.

وذلك النداء أياً كان نداء صارم لا قبل له ببراهين الآيات الربانية آفاقية وأنفسية، فليس نداء مجرداً عن البرهان كما ليس مجرداً عن البيان، بل هو بيان وبرهان، بيان ببرهان وبرهان ببيان.

و﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ دون «إلى الإيمان» كما ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ وفوقهما ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[٣]؟

لأنه نداء وسيط، لا إلى الإيمان ككل، ولا هدى دون وسيط كما في الصراط المستقيم، فهو لمحة لامعة إلى أن أولي الألباب تخطّوا المرحلة

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢٧.
(٢) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

الأولى وهي النداء إلى الإيمان، فإنهم - مبدئياً - كانوا مؤمنين قبل النداء، إذ كانوا يتحرون عن صالح الإيمان، فالقرآن ورسول القرآن لهم نداء للإيمان، أي لصالح الإيمان حتى يكمل برسالة القرآن، إذاً «فآمناً» هو كمال الإيمان لحدّ مّا لا بدايته البدائية فإنها لغير أولي الألباب.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ السابقة على هذا الإيمان قصوراً دون تقصير، واللاحقة عن الإيمان، غفراً عما تهجم علينا من ذنوب فنقترفها، أم نقتربها، غفراً بعد واقع الذنوب كالأول، وآخر قبل واقعها كالثاني.

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ وهي أصغر من الذنوب، حيث الذنب ما يستوخم عقباه، والسيئة هي أعم منها حين تنفرد، وهي أخص منها حين تقرن بالذنوب كما هنا فهي - إذاً - أصغر منها.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ الذين هم براء من الذنوب والسيئات بما غفرت وكفرت.

وقد يتسق ظل هذه الفقرة في الدعاء مع ظلال السورة كلها في اتجاهها في خضم المعركة الشاملة مع الشهوات، اتجاهاً إلى الله في النجاة منها إلى مرضاته تعالى.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾:

وهنا اكتملت الأدعية الثمان لأهل الجنة عدد أبواب الجنة - الثمان ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ. . .﴾.

وذلك استنجاز لوعد الله الذي بلغته رسله، و﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ دون برسلك أمّا شابه اعتباراً بتضمن «على» معنى العهدة، إن الله تعالى عاهدهم على بلاغ هذه الرسالة، لزاماً في بلاغهم الرسالي.

وترى كيف يدعون ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ ومحال على الله أن يخلف الميعاد كما اعترفوا به؟ ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ له جانبان، وعد الجزاء على صالح

الأعمال، والتوفيق لتلك الأعمال حتى ينطبق عليهم وعد الله، فكما إن الدعاء للثاني صالح للصالحين استمداداً من الله، كذلك للأوّل تخضعاً له وتذللاً بأننا لا نليق تحقيق وعدك فلو تركته ما كنت تاركاً لحق، ولكنا نسألك أن تحقق وعدك فينا على قصورنا وتقصيرنا ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ مهما أخلفنا نحن الميعاد.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾:

ويا لها من استجابة حبيبة غالية كضابطة ثابتة ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ فنفس العمل الصالح - قولاً وفعلاً وحالاً - باق وكما تدل عليه آيات انعكاس الأعمال والأقوال والأحوال، فحين لا يضيع عمل عامل وهو باق غير حابط، فليجز به يوم القيامة فـ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] فليس - إذاً - مجرد العقيدة والتفكير والذكر هي الغاية الإيمانية، وإنما هذه التي تنحو نحو العمل، العمل الإيجابي تحقيقاً واقعياً لذكر الله والإيمان بالله، فالعمل الصالح هو الثمرة الواقعية للفظ الإيمان وعقيدته وطويته، ولا سيما العمل الجاد في الجهاد.

ثم ولا فارق في عدم الضياع بين ذكر وأنثى فلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس، فإن بعضكم من بعض[2] فإنما الفارق هو فارق الأعمال، حسب درجاتها ودرجات النيات والطويات.

---

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٢) الدر المنثور ٢: ١١٢ - أخرج جماعة عن أم سلمة قالت يا رسول الله ﷺ لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، قالت الأنصار هي أوّل ظعينة قدمت علينا.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ في الله حفاظاً على شرعة الله، ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ وعلّ الفارق بينهما أن الأولين هاجروا بإيمانهم دون إخراج مهما كان إحراج، خرجوا أو لم يخرجوا، فإنما هو عموم الهجرة في الله مهما كان من مصاديقه الهجرة من الديار، والآخرين أحرجوا حتى أخرجوا، كمصداق من مصاديق الهجرة في الله: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ محرجين ومخرجين، إيذاء في نفس أو مال أو منال.

«وقاتلوا» في سبيل الله حتى «وقتلوا» فمن المقاتلين من يقاتل دون أن يَقتل أو يُقتل، ومنهم من يقال ليَقتل ولا يُقتل، ثم منهم من يقاتل ليَقتل وإذا لزم الأمر أن يُقتل، وهؤلاء الآخرون هم المعنيون بـ ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ كلها دون إبقاء حيث استقصوا التضحيات كلها، وتفانوا في سبيل الله دون إبقاء.

﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وذلـــك ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ عندية الرحمة البالغة السابغة والزلفى البائقة وهم من أوّل من يدخل الجنة[١] ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

لقد ذكر هؤلاء الأكارم في أدعيتهم الثمان «ربنا» خمس مرات، فكما أن للثمانية حساب كعدد أبواب الجنة، كذلك للخمسة حساب قد تؤثر في

---

(١) الدر المنثور ٢: ١١٢ - أخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عمر وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أوّل ثلة يدخلون الجنة الفقراء المهاجرون الذين تتقى بهم المكارة إذا أمروا سمعوا وأطاعوا وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقتلوا وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب ويأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا فيقول: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي فتدخل الملائكة عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار».

استجابة الدعاء، وكما يروى عن الامام الصادق عليه السلام : من حزنه أمر فقال خمس مرات «ربنا» أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ هذه الآية قال: لأن الله حكى عنهم أنهم قالوا خمس مرات «ربنا» ثم أخبر أنه استجاب لهم[(١)] فيا ربنا وفقنا لما تحبه وترضاه بحق الخمسة الطاهرة الباهرة.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾:

﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾[(٢)] والتقلب هو كثرة الاضطراب في مختلف البلاد والتقلقل في الأسفار والانتقال من حال إلى حال، بوفور النعمة وكثرة القوة والسلطة.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ لا يغررك تقلبهم في البلاد، تقلباً في أي تغلب بمتاع، في دولة المال أم دولة الحال، وتغلباً في أي تقلب، فإنما ذلك على طوله وطوله ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ فإن الدنيا بكل متاعها بجنب الآخرة قليل ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

فالغرور هو الذي يغر أهل الغرور بذلك التقلب التغلب بمتاع، وهو عند الله متاع قليل، ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

وقد تعم ﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ إلى تقلبهم في البلاد كفرهم في البلاد، فقد يتقلب الكفار في البلاد تقلب التجوال تغلباً، أم يكفرون في البلاد تقلباً فيها في أهوائهم، والمعنيان معنيّان.

﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾:

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٩: ١٥١ روي عن جعفر الصادق عليه السلام : ...

(٢) سورة غافر، الآية: ٤.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ عن كلّ تقلب عاطل وتغلب باطل، وانحصرت تقلباتهم في تقدمات المعرفة بالله والخدمة لعباد الله مهما كانوا فقراء أو أثرياء، حيث وقفوا كلّ حياتهم في مرضاة الله ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، عطاء غير مجذوذ، فهم داخلون فيها دون خروج ﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ وهي المضايف الربانية المخضّرة المحضّرة للمتقين ولهم نعيم مقيم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ مما عندهم وعند الناس، فلذلك يضحون بهما ابتغاء ما عند الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾[١].

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٩٩﴾:

أجـــل و﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ۝١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ۝١١٥﴾[٢].

فمنهم ﴿لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ من القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ من كتاباتهم السماوية دونما تحريف وتجديف، يؤمنون ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ وهي عبارة أخرى عن أنهم لا يشترون بها أي ثمن لأن ثمن الدنيا كله قليل أمام ما أنزل الله الجليل من الجليل فـ «أولئك» الأكارم ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ قدر سعيهم ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٣-١١٤.

فهؤلاء هم الكتابيون الذين يؤمنون بهذه الرسالة الأخيرة دونما تعصب على شرعتهم كعبد الله بن سلام والنجاشي، وأضرابهما على مدار الزمن الإسلامي السامي، مهما نزلت الآية بشأن جموع منهم حضور زمن الرسول ﷺ (١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾:

تلحيقة ختامية لهذه السورة تحلق على كلّ شروطات الإيمان المفلح فردياً وجماعياً، كنموذجة شاملة كاملة عن ناجح الإيمان وفالحه وكل صالحه، حيث يحافظ على كافة المصالح الإيمانية السامية.

هنا يدعم مفلح الإيمان على دعائم أربع: الصبر - المصابرة - المرابطة - التقوى، والنتيجة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وهذه الأربع كلها مربوطة بسبيل الله لا سواه، كما الزاوية الرابعة هي تقوى الله في كلّ شروطات الإيمان ولا سيما الصبر والمصابرة والمرابطة.

١ - ﴿اصْبِرُوا﴾ في الأفراح والأتراح، في البأساء والضراء، في تكاليف الإيمان إيجابية وسلبية، فالصبر - وهو رأس الإيمان - هو زاد الطريق في هذه الدعوة الطائلة الشاقة، الحافلة بالعقبات والحرمانات والشهوات

(١) الدر المنثور ٣: ١١٣ - أخرج النسائي والبزاز وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس قال: لما مات النجاشي قال رسول الله ﷺ صلوا عليه قالوا يا رسول الله نصلي على عبد حبشي فأنزل الله الآية.
وفيه أخرج ابن جرير عن جابر أن النبي ﷺ قال: اخرجوا فصلوا على أخ لكم فصلّى بنا فكبر أربع تكبيرات فقال هذا النجاشي أصحمة فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم نره قط فأنزل الله الآية.
أقول: أربع تكبيرات هي حسب مذهب إخواننا ونحن نكبر خمساً كما وصلاة الغائب من مذهبهم ولا نذهب إليها.

والرغبات، وعلى تنفّج الباطل ووقاحة الطغيان وفاحشة العصيان ووساوس الشيطان، وعلى الجملة الصبر في كلّ عسرة ويسرة على طاعة الله وترك معصية الله، والقوامة لشرعة الله، فلا يعني صبر التخاذل والتكاسل والتغافل في حقول الإيمان فإنه من الشيطان.

ولأن واجب الصبر - فقط - شخصياً لا يفي بصالح الجماعة المؤمنة وحده أو صالح عامة الشرعة الإلهية فلذلك:

٢ - ﴿وَصَابِرُواْ﴾: صابروا في مختلف طاقاتكم ورغباتكم صيانة عن تفلتها أو تلفتها في غير صالح، وصابروا مع إخوانكم تعاوناً على البر والتقوى، وتواصياً بالحق وتواصياً بالصبر، تكريساً لكل الطاقات لحمل بعضكم بعضاً على الصبر كما تحملون أنفسكم عليه، تعاوناً وتآزراً في التصابر، وصابروا على شهوات المؤمنين ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وانحراف طبائعهم وأثرتهم وغرورهم والتوائهم.

وصابروا على تنفج الباطل وتبلّجه عند أهله، وعلى انتفاش الشر والضر، وقلة الناصر، وكثرة الغادر.

وصابروا على مرارة الجهاد وما تثيره في النفس من مختلف الانفعالات، في الانتصار والانهزام سواء.

وصابروا أعداء الإيمان في سباق الصمود على العقيدة، حيث الأعداء يحاولون جاهدين أن يقل صبر المؤمنين فيفلّ، فلا ينفد صبركم على طول الجهاد، فذلك رهان في الصبر بينكم وبين أعدائكم، يبرزون فيه ويبارزون لمقابلة الصبر بالصبر والإصرار بالإصرار ثم تكون لكم عاقبة الأشواط، فإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي قدماً إلى الأمام، فما أجدر الحق أن يسبق في رهان الصبر.

٣ - ﴿وَرَابِطُواْ﴾ رباطاً بين طاقاتكم الشخصية، وآخر بين طاقاتكم

الجماعية ومنها الصلاة جماعة[١] وأخيراً في معارك الشرف والكرامة رباطاً في الحرب ورباطاً في المحراب، في الحروب الباردة الدعائية، وفي الحروب الحارة، حفاظاً على ثغور الإسلام زمنياً وروحياً.

و«رابطوا» في كلّ ذلك مع قياداتكم الزمنية والروحية المتمثلة في الإمام، بعد الله وبعد النبي، فالإمام هو الرباط الأدنى[٢] في هذه الثلاث والله هو الأعلى والنبي هو الأوسط، والرباط مع القائد يشملهم على مراتبهم متوحدة في سبيل الله[٣].

---

(١) الدر المنثور ٢: ١١٤ - أخرج جماعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطأ إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذالكم الرباط فذالكم الرباط فذالكم الرباط».

(٢) نور الثقلين ١: ٤٢٥ عن تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ يقول عن المعاصي ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ على الفرائض ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يقول ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ثم قال: وأي منكر أنكر من ظلم الأمة لنا وقتلهم إياناً ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ يقول في سبيل الله ونحن السبيل فيما بين الله وخلقه ونحن الرباط الأدنى فمن جاهد عنا فقد جاهد عن النبي ﷺ وما جاء به من عند الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وفيه في رواية أخرى عنه عليه السلام: ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ قال: المقام مع إمامكم»..

وفيه عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ يعني التقية ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ يعني الأئمة، وفي المعاني عن الصادق عليه السلام في الآية اصبروا على المصائب وصابروهم على الفتنة ورابطوا على من تقتدون به.

(٣) الدر المنثور ٢: ١١٤ - أخرج أبو نعيم عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا على الصلوات الخمس وصابروا على قتال عدوكم بالسيف ورابطوا في سبيل الله»، وفيه عن فضالة بن عبيد سمعت النبي ﷺ يقول: «كل ميت يختم على عمله إلّا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر»، وفيه عن ابن عابد قال خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل فلما وضع قال عمر بن الخطاب لا تصل عليه يا رسول الله ﷺ فإنه رجل فاجر فالتفت رسول الله ﷺ إلى الناس قال ﷺ: هل رآه أحد منكم على الإسلام؟ فقال رجل نعم يا رسول الله حرس ليلة في سبيل الله فصلى عليه رسول الله ﷺ وحثى عليه التراب وقال: أصحابك يظنون أنك من أهل النار وأنا أشهد أنك من أهل الجنة، وقال ﷺ يا عمر أنك لا تسأل عن أعمال الناس ولكن تسأل عن الفطرة، وفيه أخرج ابن ماجة عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «الرباط يوم في سبيل الله من وراء =

ولقد كانت الجماعة المؤمنة لا تغفل عيونها أبداً، ولا تستسلم للرقاد، فما هادنها أعداءها قط منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة، اللّهم إلّا من حمّلوها فلم يحملوها فأصبحوا غثاء للنسناس إذ لم يلتزموا بشرعة الناس، وطاعة إله الناس.

فلا بدّ من مرابطة دائمة في الثغور العقيدية والأخلاقية والعلمية الثقافية، والسياسية، والاقتصادية والحربية، حيث الكل هي ميادين السباق بين الكتلة المؤمنة والزمرة الكافرة، فالعلماء الربانيون مرابطون في الحقول الروحية كما هم قواد في سائر الحقول.

والجيوش الإسلامية مرابطون في الحروب الدامية الحامية المستمرة بين فريقي الحق والباطل، والأغنياء الأثرياء المؤمنون مرابطون في الحقول الاقتصادية.

والساسة الأزكياء الأذكياء مرابطون في ميادين السياسة بكل حراسة وكياسة.

وكل هؤلاء المرابطون يترابطون فيما بينهم لتنسيق الوحدة ووحدة التنسيق، حتى يصبحوا يداً واحدة على من سواهم، تسعى بذمتهم أدناهم.

٤ - ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الصبر والمصابرة والمرابطة ألا تتفلت عن سبيل الله، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلّ حركات الحياة وسكناتها، وفي كلّ ثكناتها الحربية ضد أعداء الإيمان.

= عورة المسلمين محتسباً من غير شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجراً من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسباً من شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجراً من عبادة ألفي سنة صيامها وقيامها فإن رده الله إلى أهله سالماً لم تكتب له سيئة وتكتب له الحسنات ويجري له أجر الرباط إلى يوم القيامة»، وفيه أخرج البيهقي عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «إن صلاة المرابط تعدل خمسمائة صلاة ونفقة الدينار والدرهم منه أفضل من سبعمائة دينار ينفقه في غيره».

فالتقوى والتقوى فقط هي الحارسة اليقظة في كلّ كارثة سلبية أو إيجابية، فهي هي زاد الطريق وراحلتها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وهذه التفاصيل هي قضية الإطلاق في هذه القواعد الأربع - ف:

﴿اصْبِرُوا﴾ في - على - لـ - من.... ﴿وَصَابِرُوا﴾ بين - في - لـ - على... «ورابطوا» بين - مع - على - في - لـ... ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في هذه وسواها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في سبيل الرحمن كما تفلجون سبيل الشيطان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]!.

أجل وإن المرابطة في سبيل الله في كلّ حقولها هي السياج الصارم للمجموعة المؤمنة عن التفلت والتفكك والانهيار، ولا سيما المرابطة في الثغور العقيدية ومن ثم الثغور الجغرافية، وعلى ضوئها سائر الثغور: السياسية والاقتصادية والثقافية أماهية.

والروايات الواردة عن النبي ﷺ في فضل المرابطين تعمم المرابطة في سبيل الله وأفضلها سبيل الحفاظ على العقيدة وعلى ضوئها سائر الثغور الإسلامية.

فكل ثغر من الثغور الإسلامية بحاجة إلى مرابطة ممن يأهل لها ويقومون بحقها وحاقها، فالحافظون لحدود الله - ككل - هم المرابطون في سبيل الله، دفاعاً عن الحرمات الإيمانية بألسنتهم وأقلامهم وسائر جهادهم وجهودهم ما لزم الأمر.

فالربط في أصله هو الإيثاق، فالمرابطة هي المواثقة، إيثاقاً من الجانبين فيما يحتاجه للحفاظ على كيان المسلمين، رباطاً «بين» ورباطاً «في»، و«ل» و«مع» للكتلة المؤمنة بينهم، ورباطاً «على» لهم على أعدائهم.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

ذلك والآيات في الترابط الجماعي بين المؤمنين كثيرة ومن أوضحها بين الناس كافة آية التعارف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[١] وآية السخري: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾[٢].

وبين المؤمنون خاصة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ...﴾[٣] و﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾[٤] ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾[٥] ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[٦].

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٧].

فالمسؤولية الإيمانية مزدوجة وليست فردية انعزالية، فإنها صناعة لبنات بناية الإيمان، ثم صناعة البناية بهذه اللبنات، أن يصنع كلّ واحد نفسه مسلماً ثم يحاول في صنع الآخرين، محاولة جماعية جماهيرية في تحسين وتحصين بناية رصينة متينة إسلامية لا تتهدم أمام أي قصف من أي قاصف، ولا تتهدر من أي عصف لأي عاصف، فلا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف.

لذلك نرى إن الإسلام يؤكد على التجمعات الإيمانية كأصل إيماني وحتى في العلاقات والصلات الشخصية بين المسلم وربه كالصلاة والحج وما أشبه، فإنهما كأفضل النماذج الجماعية في العبادات تربطان المؤمنين بعضهم ببعض في صفوف متراصة من كلّ صنوفهم ولا سيما في مؤتمر الحج

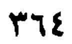
---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٠.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

العالمي الذي يهدف - فيما يهدف - توحيد الدولة الإسلامية على مدار الزمن، وفيما يسأل الرسول ﷺ عن صلاة الجماعة لمن ظل وحده فأهله وولده في الشغل، يقول: «المؤمن وحده جماعة»[١].



(١) مضمون الحديث فيما أذكر أن قروياً يسأله ﷺ أنا أؤذن وأقيم وورائي أهلي وولدي هل نحن جماعة؟ قال: نعم - قال قد يذهب ولدي إلى الشغل فتبقى معي أهلي فهل نحن جماعة؟ قال: نعم - قال: وتذهب أهلي وأظل وحدي هل لي جماعة؟ قال: نعم المؤمن وحده جماعة.



فهرس الجزء الخامس

الموضوع الصفحة

تتمة سورة آل عمران